اتعاظ الحنفا

أحمد بن علي المقريزي

الجزء الثاني

الفهرس

- **الحاكم بأمر الله**
  - سنة سبع وثمانين وثلثمائة
  - ودخلت سنة ثمان وثمانين وثلثمائة
  - سنة تسعين وثلثمائة
  - سنة إحدى وتسعين وثلثمائة
  - سنة إحدى وتسعين وثلثمائة
  - سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائه
  - سنة أربع وتسعين وثلثمائة
  - سنة خمس وتسعين وثلثمائة
  - سنة ست وتسعين وثلثمائة
  - سنة سبع وتسعين وثلثمائة
  - سنة ثمان وتسعين وثلثمائة
  - سنة تسع وتسعين وثلثمائة
  - سنة احدى وأربعمائة
  - سنة اثنتين وأربعمائة
  - سنة ثلاث وأربعمائة
  - سنة أربع وأربعمائة
  - سنة ست وأربعمائة
  - سنة ثمان وأربعمائة
  - تسع وأربعمائة
  - سنة عشر وأربعمائة
  - مقتل الحاكم
- **الظاهر لإعزاز دين الله**
  - سنة ثلاث عشرة وأربعمائة
  - سنة أربع عشرة وأربعمائة
  - سنة سبع عشرة وأربعمائة
  - سنة ثمان عشرة وأربعمائة
  - سنة عشرين وأربعمائة
  - سنة إحدى وعشرين وأربعمائة
  - سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة
  - سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة
  - سنة أربع وعشرين وأربعمائة
  - سنة خمس وعشرين وأربعمائة
  - سنة ست وعشرين وأربعمائة
  - سنة سبع وعشرين وأربعمائة
- **المستنصر**
  - سنة ثمان وعشرين وأربعمائة
  - سنة تسع وعشرين وأربعمائة
  - سنة ثلاثين وأربعمائة
  - سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة
  - سنة أربع وثلاثين وأربعمائة
  - سنة خمس وثلاثين وأربعمائة
  - سنة ست وثلاثين وأربعمائة

- سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة
- سنة أربعين وأربعمائة
- سنة إحدى وأربعين وأربعمائة
- سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة
- سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة
- سنة أربع وأربعين وأربعمائة
- سنة خمس وأربعين وأربعمائة
- سنة سبع وأربعين وأربعمائة
- سنة ثمان وأربعين وأربعمائة
- سنة تسع وأربعين وأربعمائة
- سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة
- سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة
- سنة أربع وخمسين وأربعمائة
- سنة خمس وخمسين وأربعمائة
- سنة ست وخمسين وأربعمائة
- سنة سبع وخمسين وأربعمائة
- سنة ثمان وخمسين وأربعمائة
- سنة تسع وخمسين وأربعمائة
- سنة ستين وأربعمائة
- سنة اثنتين وستين وأربعمائة
- سنة ثلاث وستين وأربعمائة
- سنة أربع وستين وأربعمائة
- سنة خمس وستين وأربعمائة
- سنة ست وستين وأربعمائة
- سنة سبع وستين وأربعمائة
- سنة ثمان وستين وأربعمائة
- سنة تسع وستين وأربعمائة
- سنة واحد وسبعين وأربعمائة
- سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة
- سنة ثمان وسبعين وأربعمائة
- سنة تسع وسبعين وأربعمائة
- سنة ثمانين وأربعمائة
- سنة إحدى وثمانين وأربعمائة
- سنة أربع وثمانين وأربعمائة
- سنة ست وثمانين وأربعمائة
- سنة سبع وثمانين وأربعمائة

الجزء الثاني

الحاكم بأمر الله

أبو علي منصور ابن العزيز بالله أبي المنصور نزار ابن المعز لدين الله أبي تميم معد ولد في القصر بالقاهرة ليلة الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وثلثمائة في الساعة التاسعة الموافق صبيحتها الثالث عشر من شهر آب.

والطالع من السرطان سبع وعشرون درجة والشمس في برج الأسد على خمس وعشرين درجة والقمر بالجوزاء على إحدى عشرة درجة وزحل بالعقرب على أربع وعشرين درجة والمشتري بالميزان على ثمان درج والمريخ بالميزان على ثلاث عشرة درجة والزهرة بالميزان على تسع عشرة درجة وعطارد بالأسد على عشر درج والرأس بالدلو على خمس درج.

وسلم عليه بالخلافة في الجيش بعد الظهر من يوم الثلاثاء ثامن عشري شهر رمضان سنة ست وثمانين وثلثمائة.

وسار إلى قصره في يوم الأربعاء بسائر أهل الدولة والعزيز في قبة على ناقة بين يديه وعلى الحاكم دراعة مصمتة وعمامة فيها الجوهر وبيده رمح وقد تقلد السيف فوصل إلى القصر ولم يفقد من جميع ما كان مع العساكر شيء ودخله قبل صلاة المغرب وأخذ في جهاز أبيه العزيز ودفنه.

ثم بكر سائر أهل الدولة إلى القصر يوم الخميس وقد نصب للحاكم سرير من ذهب عليه مرتبة مذهبة في الإيوان الكبير.

وخرج من قصره راكباً وعليه معممة الجوهر فوقف الناس بصحن الإيوان وقبلوا الأرض ومشوا بين يديه حتى جلس على السرير فوقف من مهمته الوقوف وجلس من له عادة الجلوس.

فسلم عليه الجماعة بالإمامة واللقب الذي اختير له وهو الحاكم بأمر الله.

وكان سنه يومئذ إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر وستة أيام.

وكان جماعة من شيوخ كتامة تخلفوا عن الحضور وتجمعوا نحو المصلى.

فخرج إليهم أبو محمد بن الحسن بن عمار في طائفة من شيوخهم وما زالوا بهم حتى أحضروهم بعد امتناعهم من الحضور وشكوا من قيس بن نسطورس وسألوا صرفه وأن تكون الوساطة لرجل منهم فندب لذلك أبو محمد الحسن بن عمار.

فقرر أحوالهم فيما يطلق لهم من الرزق بعد خطاب طويل على أن يطلق لهم ثماني إطلاقات في كل سنة وأن يكون لكل واحد ثمانية دنانير وأن يطلق هذا الفض في يومهم بحضرة أمير المؤمنين.

فأحضر المال ودفع إليهم بحضرة الحاكم الفضل وهو وخلع على أبي الحسن يانس الخادم الصقلبي وحمل على فرسخين وقال: يتولى القصور.

وفي أول شوال فرش على سرير الذهب في الإيوان مرتبة نسيج فضة وخرج الحاكم على فرس أدهم بمعممة الجوهر وقد تقلد السيف وفي ركابه الايمن حسين بن عبد الرحمن الرابض وفي ركابه الأيسر برجوان والناس قيام فقبلوا له الأرض ودعوا.

فقال ابن عمار للقاضي محمد بن النعمان: مولانا يأمرك بالخوارج إلى المصلى للصلاة بالناس وإقامة الدعوة لأمير المؤمنين.

فنهض قائما وقلده برجوان بسيف محلى بذهب من سيوف العزيز ومضى فصلى وأقام الدعوة ثم قدم.

ونصب السرير الذهب في صفة الإيوان ونصب السماط الفضة وخرج الحاكم من القصر وكان قد دخل إليه وهو على فرس أشقر فجلس على السماط وحضر من له رسم فأكلوا وانصرفوا.

وفي ثالثه خلع علي ابن عمار وقلد بسيف من سيوف العزيز وحمل على فرس بسرج ذهب وكناه الحاكم ولقبه بأمين الدولة وقال له: أنت أميني على دولتي ورجالي.

وقاد بين الخيل وعمل خمسين ثوبا ملونة من البز الرفيع.

ومضى في موكب عظيم إلى داره.

وكتب سجل من إنشاء أبي منصور بن سيرين وبخطه قرأه القاضي محمد بن النعمان بالجامع يتضمن وراثة الحاكم الملك من أبيه ويعد الرعية فيه بحسن النظر لهم وأمر فيه بإسقاط مكوس كانت بالساحل.

ففرح الناس.

وكانت عدة ممن قتلهم ابن نسطورس لما احترق الأسطول على الخشبة فأمر بتسليمهم إلى أهليهم وأطلق لكل واحد عشرة دنانير من أجل كفنه فكثر الدعاء من الرعية للحاكم.

وأمر بقلع الالواح التي على دور الأخباز وسلمت لأربابها ومستحقيها فبلغت شيئا كثيرا.

وخلع على القائد أبي عبد الله الحسين بن جوهر القائد ورد إليه البريد والإنشاء فكان يخلفه ابن سورين وحمل بين يديه كثير من الخيل والثياب وحمل على فرس بمركبين.

واستكتب أمين الدولة ابن عمار أبا عبد الله الموصلي واستخلفه على أخذ رقاع الناس وتوقيعاتهم.

وأقر عيسى بن نسطورس على ديوان الخاص.

وخلع على جماعة بولايات عديدة وقرىء سجل قرأه القاضي بالجامع يتضمن ولاية ابن عمار الوساطة وتلقيبه بأمين الدولة وأمر الناس كلهم أن يترجلوا لابن عمار فترجلوا بأسرهم له.

وفي ثاني ذي القعدة تجمع الكتاميون عند المصلى فأنفذ إليهم واستحضرهم وتقرر أمرهم على النفقة فيهم فأنفق عليهم.

وحمل راجلهم على الخيل وكانوا نحو الألف رجل وأركبت وفي ثاني عشره خلع على أبي تميم سلمان بن جعفر بن فلاح وقلد السيف وحمل على فرس بمركب ذهب وقيد بين يديه بأربعة أفراس مسرجة ملجمة وحمل بين يديه ثياب كثيرة من كل نوع وجرد معه عسكر ليسير إلى الشام.

وسارت قافلة الحاج بكسوة الكعبة والصلات والنفقة على الرسم المعتاد في النصف منه.

وركب الحاكم يوم الأضحى فصلى بالناس صلاة العيد بالمصلى وخطب وأصعد معه المنبر القاضي محمد بن النعمان وبرجوان وابن عمار وجماعة.

سنة سبع وثمانين وثلثمائة

في المحرم ورد سابق الحاج فأخبر بتمام الحج والدعاء للحاكم في الحرمين.

وفيه نزع سعر القمح وغيره وعز وجوده واشتد الغلاء ووقع في البلد خوف شديد من طرف رجل من اللصوص في الليل وكبسه دور الناس فتحارسوا في الليل وأخذت نساء من الطرقات وعظم الأمر في ذلك.

وفيه ضربت رقبة عيسى بن نسطورس.

ووصل الحاج في رابع عشر صفر فخلع على سبكتكين مقدم القافلة وحمل على عدد من ووقف سعر الخبز على أربعة أرطال بدرهم.

وسار أبو تميم سلمان بن جعفر بن فلاح بعد أن خلع عليه وقيد بين يديه عدة خيول وحمل معه شيء كثير من الثياب وأنفق في أهل عسكره فنزل مسجد تبر فأقام إلى تاسع عشر ربيع الأول فخرج إليه الحاكم وحلفه ومن معه وعاد.

فرحل ابن فلاح إلى القصور فأقام بها.

وقرىء سجل يوم الجمعة للنصف منه بمدح كتامة ولعن منجوتكين على سائر منابر مصر وفي القصر.

وخلع على جماعة من الحمدانية وجهزوا إلى ابن فلاح فساروا معه.

وفي آخره أخرج ابن عمار إلى سلمان بن جعفر بن فلاح بخزانة مال على ثمانية وستين بغلا في صناديق فيها أربعمائة ألف دينار وسبعمائة ألف درهم وستة وأربعين حملاً من السلاح وعشر جمازات عليها دروع وست قباب بفرشها وأهلتها ومناطقها وجميع آلاتها منها قبتان قرقرى مثقل وباقيها ديباج وست جمازات تجنب بآلة الديباج الملون وثلاثين جمازة بأجلتها وعشرة أفراس وثلاث بغلات بمراكبها ومنديل حمله خادم فيه ثياب مشرف بها من ثياب العزيز وسيف من سيوفه.

وفي ثالث ربيع الآخر ركب الحاكم وابن عمار إلى القصور فودعا ابن فلاح وسار في ثلاثة من كتامة وسبعمائة فارس من الغلمان وانضم إليه من عرب الرملة ثمانية آلاف.

وفي النصف منه شق الحاكم المدينة وقد زينت زينة عظيمة وزيدان يحمل مظلة عن يمينه وابن عمار عن يساره ويرجوان وحده خلفه فدخل الصناعة.

وأما منجوتكين فإنه لما بلغه ما فعله ابن عمار من إكرام كتامة وحطه من مراتب المصطنعين الذين اصطنعهم العزيز من الأتراك خاف.

فلم يكن غير قليل حتى بلغه خروج سلمان بن جعفر بن فلاح إلى الشام بالكتاميين فسار إلى الرملة مستعد القتال من يجيئه من مصر فالتقيا برفح.

وكانت الوقعة بين الطوالع فانهزم أصحاب منجوتكين وسار ابن فلاح إلى منجوتكين فلقيه بظاهر عسقلان وقد انضم إليه ابن الجراح في كثير من العرب فاستأمن إلى ابن فلاح عدة من أصحاب منجوتكين.

واقتتلا يوم الجمعة رابع جمادى الأولى فقتل كثير من أصحاب منجوتكين وأسر عدة منهم وانهزم منجوتكين بمن بقى معه فقطع من عسقلان إلى

دمشق في ثلاثة أيام وأهلها في مجاعة من غلاء الأسعار وقلة الطعام وقد راجت الغلال.

فاجتمع أهل البلد إلى الجامع وهم كثير فيهم حمال السلاح ومن يطلب الفتن.

فقال الناس: نرح منجوتكين عنا وقال طلاب الفتن: لا ما نقاتل معه وساروا إلى داره ومعهم قوم من المرج يقال لهم الهياجنة أهل شر وفساد فنهبوها وما حولها من دور أمرائها.

وخرج منهزما في يسير من الجند فراسخ فنزل على ابن الجراح.

وبلغ ذلك ابن فلاح فأرسل بأخيه علي بن جعفر بن فلاح في ألفي رجل فنزل بظاهر دمشق لست بقين منه وبعث إلى ابن الجراح رسولاً بأن ينفذ منجوتكين إلى مولانا فإنا لا نريد به سوءاً وهو آمن وبذل له مالا.

فسار منجوتكين ودخل القاهرة في ثاني عشري رجب فأنزله ابن عمار في دار وكان يركب في خدمته وإذا لقيه وهو راكب ترجل له.

وكان ابن عمار ينزله أدون المراتب وغير رسومه كلها.

وأما علي بن جعفر بن فلاح فإنه لما قدم من عند أخيه ولى البلد لرجل من المغاربة لم يكن عنده ما رآه بل كان فظا غليظاً فشاق العامة وواجههم فثاروا عليه بالسلاح وركب المغاربة وكانت بينهم حروب.

ثم إن شيوخ البلد خرجوا إليه وأصلحوا الأمر.

وسار علي من الرملة فنزل على دمشق في عسكر عظيم يوم الاثنين لست بقين من رجب وأقام لا يأمر بخير ولا شر.

وأما ابن عمار فإنه لما نظر في الأمر كان ينزل على باب الحجرة التي فيها الحاكم ويدخل القصر راكبا فيشق قاعة الدواوين ويدخل من الباب الذي يجلس فيه خدم الخاصة ثم يعدل منه إلى باب الحجرة فينزل ويركب منه.

وكان الناس من الشيوخ والرؤساء على سائر طبقاتهم يبكرون إلى داره والباب مغلق فيفتح بعد وقت فيدخل إليه الوجوه فيجلسون في قاعة الدار على حصير وهو في مجلسه لا يدخل إليه أحد فإذا مضت لهم ساعة أذن للوجوه فالقاضي وبعده كتامة والقواد فيدخل أعيانهم ثم يأذن لسائر الناس فلا يقدر أحد على الوصول إليه فمنهم من يومى إلى تقبيل الأرض ومنهم من يقبل الركاب ومنهم من يقبل ركبته.

وتسلم النظر والإسطبلات عامرة فأخرج لرجال كتامة وأحداثهم ألفا وخمسمائة فرس ولم يبق من شيوخهم إلا من قاد إليه الفرسين والثلاثة بمراكبها.

وحمل لسلمان بن جعفر ابن فلاح ما يتجاوز ألف رأس وجل رحل العزيز وأمتعته.

وباع من الخيل والبغال والنجب والحمر ما يتجاوز الألوف حتى بيعت الناقة بستة دنانير والحمار الذي قيمته أربعون دينارا بأربعة دنانير.

وقطع أكثر الرسوم التي كانت لأولياء الدولة من الأتراك والعبيد وقطع أكثر ما كان في المطابخ.

وقطع أرزاق جماعة أرباب الراتب وفرق كثيرا من الجواري طلباً للتوفير.

واصطنع أحداث المغاربة فكثر عبث أشرارهم وامتدت أيديهم إلى أخذ الحرم في الطرقات وعروا جماعة من الناس فكثرت الشكاية منهم ولم يبد كبير نكير فأفرط الأمر حتى تعرضوا إلى الأتراك يريدون أخذ ثيابهم فثار لذلك شر قتل فيه واحد من المغاربة وغلام تركي فسار أولياء الكتامى ليأخذوا التركي قاتله ويأتوا به إلى قبر المقتول فيعتقوه هناك فلما أخذوه قتلوه على قبر الكتامي.

فاجتمعت أكابر الطائفتين وتحزبوا فوقعت الحرب بينهما وقتل جماعة وانطلقت ألسن كل منهما في الآخرين بالقبيح.

وأقاموا على مصافهم يومين آخرهما تاسع شعبان فركب ابن عمار في عاشره بآلة الحرب وقد حفت به المغاربة وتبادر إليه الاتراك فاقتتل الفريقان وقتل منهما جماعة وجرح كثير.

وجيء لابن عمار بعدة رؤوس طرحت بين يديه فأنكر ذلك وظهر له الخطأ في ركوبه فعاد إلى داره.

وجاء برجوان ليصلح الأمر فثار الغلمان وركبوا دار ابن عمار للفتك به فأركب برجوان إلى القصر وانبسطت أيدي المغاربة وأحداث الغلمان والنهابة فانتهبوا دار ابن عمار واسطبلاته ودار رشا غلامه وأخذوا ما لا يحصى كثرة.

وانعزل لثلاث بقين منه وتحول من القاهرة إلى داره بمصر.

فكانت أيام نظره أحد عشر شهرا غير خمسة أيام.

فأقام بمصر سبعة وعشرين يوماً ثم عاد إلى القاهرة بأمر الحاكم فأقام بها لا يركب ولا يجتمع به سوى خدمه وأطلقت له رسومه وجراياته وجرايات حشمه على رتبه في أيام نظره.

وتقدم الحاكم إلى برجوان أن ينظر في التدبير على ما كان ابن عمار فنظر في ذلك لثلاث بقين من رمضان وسار إلى القصر وجمع الغلمان الأتراك ونهاهم عن التعرض لأحد من الكتاميين والمغاربة.

وقبض على عريف الباطلية فإنهم كانوا قد نهبوا شيئا كثيرا لابن عمار وألزمه بإحضار ما نهب أصحابه.

وأجرى الرسوم والرواتب التي قطعها ابن عمار وأجرى لابن عمار ما كان يجري له في أيام العزيز ولآله وحرمه ومبلغ ذلك من اللحم والتوابل والفاكهة خمسمائة دينار في كل شهر يزيد على ذلك تارة وينقص أخرى على قدر الأسعار مع ما كان له من الفاكهة وهو في كل يوم سلة بدينار وعشرة أرطال شمع كل يوم وحمل ثلج عن يومين فأجرى له ذلك مدة حياته.

وجعل برجوان أبا العلا فهد بن إبراهيم النصراني كاتبه يوقع عنه فنظر في قصص الرافعين وظلاماتهم وطالعه بما يحتاج إليه فرتب الغلمان في القصر وأكد عليهم في ملازمة الخدمة وتفقد أحوالهم.

وأزاح علل أولياء الدولة وتفقد أمور الناس وأزال ضروراتهم ومنع من الترجل له.

وكان الناس يلقونه في داره فإذا تكاملوا ركب وهم بين يديه إلى القصر.

ولقب كاتبه فهد بن إبراهيم بالرئيس فكان يخاطب بذلك ويكاتب به ويركب أكثر الناس إلى داره حتى يخرج برجوان إلى القصر فيجلس فيه في آخر دهاليزه ويجلس فهد في الدهليز الأول يوقع وينظر ويطالع برجوان بما يحتاج له فيخرج الأمر بما يكون.

فلم يزل الأمر على ذلك حتى انتهت مدتهما.

وكان الحاكم يركب كل يوم إلى الميدان فيجلس على سريره بالطارمة فتعرض عليه الخيل والقراء بين يديه وربما أنشده الشعراء ثم ينصرف إلى القصر فيجلس برجوان وكاتبه لأخذ رقاع المتظلمين وأرباب الحاجات فلا يزالان حتى لا يبقى منهم أحد ثم يدخلان.

فإذا فرغ الحاكم من غدائه ورفعت المائدة تقدم أبو العلا فجلس بين يديه وبرجوان قائم على رأسه حتى يقرأ جميع تلك الرقاع ويوقع عليها الحاكم

في أعلاها بما يراه ثم يخرج بها فتفرق كلها ويمضى بها إلى الديوان فتنفذ من غير مراجعة.

وكان الحاكم إذا جلس في الطارمة وأنشده الشعراء تناول برجوان قصائدهم فجعلها في كمه فإذا عرض رقاع الناس وفرغ من التوقيع قرأ القصائد وقد حضر من له تمييز ومعرفة بالشعر.

وكان الحاكم له من الحذق بذلك ما ليس لغيره فإذا أنشده الشاعر أو أنشد له أبو الحسن لا ينشد ويمر بالبيت النادر أو المعنى الحسن إلا نبه برجوان عليه واستعاده مراراً ثم يوقع لكل واحد منهم بقدر استحقاقه ومبلغه من صناعته فتخرج صلاتهم بحسب ذلك.

وفي يوم الثلاثاء تاسع شعبان أهدت ست الملوك إلى أخيها الحاكم بأمر الله ثلاثين فرسا مسرجة أحدها مرصع وآخر بلور وبقيتها ذهب وعشرين بغلة مسرجة ملجمة وخمسين خادما منها عشرة صقالبة ومائة تخت ثياب وتاجا مرصعا وشاشية مرصعة وأسفاطا كثيرة من طيب وبستانا من الفضة مزروعا من أنواع الشجر.

وصلى الحاكم بالناس صلاة عيد الفطر بالمصلى وخطب وأصعد معه المنبر الحسين بن جوهر والقاضي والأستاذ برجوان وجماعة.

وسارت قافلة الحاج من بركة الجب بالكسوة للكعبة والزيت والدقيق والقمح والشمع والطيب لمكة والمدينة في تاسع ذي القعدة.

وفيه خرج جيش بن الصمصامة إلى الشام مكان سلمان بن جعفر بن فلاح فرحل ابن فلاح عن دمشق في يوم الثلاثاء سابع عشر ذي الحجة بعسكره وسار إلى الرملة.

وفيها صلى الحاكم بالمصلى صلاة العيد يوم النحر بالناس وخطب على رسمه.

وورد الخبر من مدينة قوص بأن شدةً نزلت بهم من برق ورعد ومطر وحجارة نزلت من السماء منها ما لم يسمع بمثله وأنهم زلزلوا زلزلة شديدة قصفت النخل والجميز واقتلعت خمسمائة نخلة من أصولها.

وانبثق بقوص وأعمالها زرقة خضراء على ظهر الأرض وغرقت عدة مراكب مشحونة بغلال تساوى أموالا كثيرة.

وفيها كتب الحاكم بأمر الله مع الشريف الداعي علي بن عبد الله سجلين لأبي مناد باديس ابن يوسف بن زيرى أحدهما بولايته المغرب وتلقيبه نصير

دولة الحاكم والثاني بوفاة العزيز بالله وخلافة الحاكم وأخذه العهد على بني مناد.

فأنزل وأكرم وأخذ العهد على جميع قبائل صنهاجة وعمومهم بالبيعة للحاكم في جمادى الآخرة ثم عاد فقدم إلى القاهرة يوم الخميس لليلتين خلتا من جمادى الآخرة بعد أن وصله نصير الدولة بمال جليل وثياب وخيول.

ودخلت سنة ثمان وثمانين وثلثمائة

في المحرم كان غطاس النصارى فضربت الخيام والمضارب والأشرعة في عدة مواضع من شاطىء النيل ونصبت أسرة للرئيس فهد بن إبراهيم وأوقدت له الشموع والمشاعل وحضر المغنون والملهون وجلس مع أهله يشرب إلى أن جاء وقت الغطاس فغطس وانصرف.

وورد سابق الحاج لثمان خلون منه.

وخلع على أبي الحارث فحل بن إسماعيل بن تميم بن فحل الكتامي وقيد بين يديه وحمل إليه وقلد صور وخلع على أبي سعيد وقلد الحسبة.

وخلع على أبي الحسن يانس الخادم الصقلبي وقلد بسيف ودفع إليه رمح وحمل على فرس بمركب ذهب ثقيل وحمل إليه خمسة آلاف دينار وعدة من الخيل والثياب ومائة غلام وسار لولاية برقة.

وخلع على خود الصقلبي وقلد بسيف وحمل وقيد بين يديه فرس وحمل إليه ثياب وقلد ووصلت قافلة الحاج سابع عشر صفر.

وسار ميسور الخادم الصقلبي والباعلي طرابلس وخلع على فائق الخادم الصقلبي وجعل على الأسطول.

وفي سادس عشر ربيع الأول كان نوروز الفرس فأهدى الأتراك وقوادهم وجماعة الأولياء إلى الحاكم الخيل والسلاح الكثير فقبل يسيراً منه وشكر ذلك لهم ورد الباقي إليهم.

وفي أول ربيع الآخر قدم سلمان بن فلاح وأخوه من الرملة.

وفي سادس عشر كان فصح النصارى فخلع على فهد بن إبراهيم خلعة حملت إلى داره ومعها بغلتان بمركبيهما وألف دينار.

وخلع على أبي سعادة أيمن الخادم أخي برجوان وقلد غزة وعسقلان في سادس جمادى الأولى.

وورد الخبر بفتح صور.

وذلك أن أهل صور ثاروا على من عندهم من المغاربة وقتلوا منهم جماعة وقتلوا من بقى وغلب على البلد رجل من البجوية يقال له العلاقة وأرسل إلى الروم فسيروا إليه بمراكب فيها رجال فخرج إليهم عسكره وسارت إليها المراكب من مصر فقاتلوا من بها من الروم فانهزموا عنها في مراكبهم وبدت أهل البلد فألح القتال عليهم حتى ملكت منهم.

وامتنع العلاقة ومعه طائفة في بعض الأبرجة ثم طلبوا الأمان.

فانتهبت المدينة وأخذ منها ما لا يعرف قدره كثرة في الرابع عشر من جمادى الآخرة.

وحمل العلاقة مقيدا وسيق في جماعة معهم إلى القاهرة فشهروا وقد ألبس العلاقة طرطورا من رصاص له عظم وثقل على رأسه وكاد أن يغوص على رقبته ثم قتل وصلب وقتلت أصحابه.

وفي شعبان ورد الخبر من جيش بمواقعة الروم على فامية وأنطاكية.

وذلك أن جيشا نزل على دمشق ونزل بشارة إلى طبرية أيضاً لأربع خلون من رجب وكتب إلى بشارة بولاية دمشق فأقر عليا والياً من قبله وسار بعساكره هو جيش في رابع عشره إلى فامية وبها الروم.

فاشتد القتال بينهم وبين الروم فانهزم المسلمون وملك الروم سوادهم.

ثم غلبوا وعادوا إلى محاربة الروم فواقعوهم فانهزم الروم وقتل منهم نحو خمسة آلاف وقتل مقدمهم وذلك لتسع بقين من رجب.

ورجع المنهزمون إلى جيش ابن الصمصامة وقد خافوه فسار بهم إلى نحو مرعش فأحرقوا وهدموا ولم يلقهم أحد ونزل على أنطاكية فقاتل أهلها أياماً ثم رحل عنها إلى شيزر.

وسار بشارة إلى دمشق فنزلها للنصف من شوال على أنه قد ولى البلد فأقبل إليه جيش فنزل ظاهر المزة لسبع بقين من ذي القعدة وقد هجم الشتاء فوافى الكتاب من مصر بعزل بشارة عن دمشق وولايته طبرية واستقرار جيش على ولاية دمشق فدخلها واستقر بها.

وفي شهر رمضان صلى الحاكم بجامع القاهرة بالناس بعد ما خطب وعليه رداء وهو متقلد سيفا وبيده قضيب وزرر عليه جلال القبة لما خطب وقال خطبة مختصرة سمعها من قرب منه.

وهي أول جمعة صلاها ثم صلى جمعة أخرى وصلى صلاة عيد الفطر في المصلى وخطب على الرسم المعتاد وحضر السماط.

وأحضرت امرأة من الشام في علبة طولها ذراع واحد من غير زيادة وافت من خراسان ومعها أخ لها في قد الرجال فأنزلت بالقصر وأقيم لها ولمن معها الأنزال وكانوا عدة وقطع لها في وقت واحد مائة ثوب مثقل وحرير.

وكانت مليحة الكلام نظيفة ولبثت بضعة وثلاثين يوماً وماتت فكانت لها جنازة عظيمة.

وسارت قافلة الحاج في ثالث عشر ذي القعدة بالكسوة والصلات على العادة.

وصلى الحاكم يوم عيد النحر بالمصلى وخطب.

ووصل خود من قبل جيش بن الصمصامة في عشري ذي القعدة ومعه عدة أسارى ورءوس كثيرة فطيف بهم في البلد ثم عفى عن الأسرى وأطلقوا سنة ثمان وثمانين وثلثمائة في حادي عشر المحرم ورد سابق الحاج فأخبر أن عدن احترقت كلها وتلف فيها من المال ما لا يعرف له قيمة لكثرته.

وفي ليلة الرابع من صفر مات قاضي القضاة محمد بن النعمان فركب الحاكم وصلى عليه.

وله من العمر تسع وأربعون سنة إلا يوما ومولده لثلاث خلون من صفر سنة أربعين وثلثمائة وكانت مدة ولايته القضاء بمصر وأعمالها أربع عشرة سنة وستة أشهر وعشرة أيام.

ودفن بداره ثم نقل إلى القرافة وقيدت دوابه إلى الاصطبل.

وترك عليه دينا للأيتام وغيرهم عشرين ألف دينار وقيل ستة وثلاثين ألف دينار فبعث برجوان كاتبه أبا العلاء فهد بن ابراهيم فختم على جميع ما ترك القاضي ولم يمكن ورثته من شيء وباع ذلك كله.

وطالب الأمناء والعدول بأموال اليتامى المتبقية عليهم في ديوان القضاء فزعموا أن القاضي قبضها وأقام بعضهم بينة على ذلك وعجز بعضهم فأغرم من لم يقم بينة ما ثبت عليه.

فاجتمع من البيع والأمناء ثمانية عشر ألف دينار أخذها الغرماء بحق النصف مما لهم.

وأمر الحاكم ألا يودع عند عدل ولا أمين شيء من أموال اليتامى وأن يكتروا مخزنا في زقاق القناديل وتودع فيه أموال اليتامى فإذا أرادوا دفع أموال اليتامى حضر أربعة من ثقات القاضي وجاء كل أمين فأطلق لمن يلي عليه

رزقه بعد مشورة القاضي في ذلك فكتب على الأمين وثيقة بما بقبضه من المال لمن يلي عليه.

ورجم في ولايته رجلا زنى في ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة.

وكان أكثر أيامه عليلا بالنقرس والقولنج وكان برجوان على كلالته يعوده إذا مرض فمن دونه.

وكان يكاتب بقاضي القضاة.

وعلت منزلته حتى جاز حد القضاة وكانت النعمة تليق به وعم إحسانه سائر أصحابه وأتباعه.

وكان حسن الخلق ندي الوجه فاخر الزي يلبس الدراعة والعمامة بغير ولما مرض رأى كأن الحق تعالى نزل من السماء فلما بلغ باب داره مات فقال له ابن قديد عابر الرؤيا موت الحق إبطاله والله هو الحق ولا يزال الحق حيا حتى يصير إلى بابك فيموت فمات هو بعد ذلك بقليل.

ومن شعره:

أيا مشبه البدر بدر السماء ** لسبعٍ وخمسٍ مضت واثنتين

ويا كامل الحسن في نعته ** شغلت فؤادي وأنهرت عيني

فهل لي من مطمع أرتجيه ** وإلا انصرفت بخفّى حنين

ويشمت بي شامت في ** هواك صفر اليديين

فإمّا مننت وإمّا قتلت ** فأنت القدير على الحالتين

ومنه:

تأمل لذى الدنيا تجدها مشوبة ** سرورا بحزن في تقلّب أحوال

وقد قسمت أشياؤها بين أهلها ** فمالٌ بلا أمنٍ وأمنٌ بلا مال

وأقامت البلد بعد موته تسع عشرة ليلة بغير قاض.

وفي ثالث عشر منه استدعى برجوان أبا عبد الله الحسين بن علي ابن النعمان إلى حضرة الحاكم بأمر الله وأضعف له أرزاق عمه وصلاته وإقطاعاته وقال له: قد أرحت عليك فلا توجد لي سبيلا إليك بتعرضك لدرهم من أموال المسلمين فقد أغنيتك عنها.

ثم خلع عليه ثيابا بيضا ورداءً محشّى مذهبا وعمامة مذهبة وقلده سيفا وحمله على بغلة وقاد بين يديه بغلتين بسروجهما ولجمهما وحمل معه ثيابا كثيرة صحاحا ورد إليه القضاء بمصر وأعمالها ولم يظن ذلك أحد لضعف حاله وكان الناس يتخيلون ولاية عبد العزيز بن محمد بن النعمان بعد أبيه لأنه كان يخلف أباه فنزل إلى الجامع العتيق وقرئ سجله على منبره.

فنظر بين الناس وأوقف شهادة جماعة من الشهود وندب أربعة لكشف أحوال الشهود وألزم ولاة أمور الأيتام برفع حسابهم.

وطالب عبد العزيز بن النعمان بما على أبيه من أموال الأيتام.

وجعل موضعا بزقاق القناديل يكون مودعا لأموال الأيتام وجعل خمسة من الشهود يضبطون ما يرد إليه وما يخرج منه بحجج يكتب فيها خطوطهم فاستحسن ذلك من فعله.

وهو أول من اتخذ مودعا للأيتام من القضاة.

واستخلف بمصر أبا عبد الله الحسين بن محمد بن طاهر وبالقاهرة أبا الحسن مالك ابن سعيد الفارقي وعلى العرض والنظر بين المتحاكمين إذا غاب الحسن بن طاهر وأبا العباس أحمد بن محمد بن عبيد الله بن العوام.

واستكتب أبا طاهر زيد بن أحمد بن السندي وأبا القاسم علي بن عبد الرزاق وجعل إلى أخيه أبي النعمان المنذر بن علي النظر في العيار ودار الضرب.

واستخلف على الإسكندرية وأعمالها.

وقوى أمره وتشدد في الأحكام وقبل شهادة من أوقف شهادته وعزل آخرين واتخذ حاجبا.

وتولى أمر الدعوة وقراءة ما يقرأ في القصر من مجالس الدعوة وكتبها وعلت منزلته.

وفي خامس عشري صفر وصل حاج البيت.

وصلى الحاكم في رمضان بالناس جمعتين وخطب وصلى صلاة عيد الفطر وخطب وأصعد القاضي معه في جماعة وجلس على السماط.

وسارت قافلة الحاج أول ذي القعدة بالكسوة والصلات على العادة.

وصلى الحاكم صلاة عيد النحر وخطب على الرسم وأجرى الناس في أضاحيهم على عوائدهم.

وعمل عيد الغدير على العادة وطاف الناس بالقصر على رسمهم.

سنة تسعين وثلثمائة

في أول يوم من المحرم ظهر الحاكم ودخل الناس فهنئوه بالعام.

كان سعر الخبز ستة عشر رطلاً بدرهم.

وسقط إصطبل فهد بن ابراهيم فمات له نحو ستين وفي حادي عشر صفر وصلت قافلة الحاج من غير أن يدخلوا إلى المدينة النبوية.

وفي سادس عشر من ربيع الآخر أنهد الحاكم إلى برجوان عشية يستدعيه للركوب معه إلى المقس فجاء بعد بطء وقد ضاق الوقت إلى القصر ودخل بالموكب ورؤساء الدولة والكتاب إلى الباب الذي يخرج منه الحاكم إلى المقس فلم يكن بأسرع من خروج عقيق الخادم وهو يصيح: قتل مولاي وكان عقيق عيناً لبرجوان في القصر وقد جعله على خزاناته الخاصة.

فاضطرب الناس وبادروا إلى باب القصر الكبير فوقفوا عنده وأشرف عليهم الحاكم.

وقام زيدان صاحب المظلة فصاح بهم: من كان في الطاعة فلينصرف إلى منزله ويبكر إلى القصر المعمور فانصرف الجميع.

وكان قتل برجوان في بستان يعرف بدويرة التين والعناب كان الحاكم فيه مع زيدان فجاء برجوان ووقف مع زيدان.

فسار الحاكم حتى خرج من باب الدويرة فعاجل زيدان وضرب برجوان بسكين كانت في خفه وابتدره قوم وقد أعدوا له السكاكين والخناجر فقتل مكانه وحزت رأسه وطرح عليه حائط.

وسبب ذلك أن برجوان لما بلغ النهاية قصر في الخدمة واستقل بلذاته وأقبل على سماع الغناء وكان كثير الطرب شديد الشغف به فكان يجمع المغنين من الرجال والنساء بداره فيكون معهم كأحدهم ولا يخرج من داره حتى يمضى صدر من النهار ويتكامل الناس على بابه فيركب إلى وكان برجوان من استبداده يكثر من الدالة على الحاكم فحقد عليه أموراً منها أنه قال بعد قتله إنه كان سيىء الأدب جدا والله إني لأذكر وقد استدعيته يوما ونحن ركبان فصار إلي ورجله على عنق دابته وبطن خفه قبالة وجهي فشاغلته بالحديث ولم أره فكرةً في ذلك.

وغير ذلك مما يطول شرحه.

وأنهد الحاكم بعد قتل برجوان فأحضر كاتبه فهد بن إبراهيم في الليل وأمنه وقال: أنت كاتبي وصاحبك عبدي وهو كان الواسطة بيني وبينك وجرت منه أشياء أنكرتها عليه فجازيته عليها بما استوجبه فكن أنت على رسمك في كتابك آمناً على نفسك ومالك.

فكانت مدة نظر برجوان سنتين وثمانية أشهر غير يوم واحد.

وبرجوان بفتح الباء الموحدة وسكون الراء وفتح الجيم والواو وبعد الألف نون.

وبكر الناس إلى القصر فوقفوا بالباب ونزل القائد أبو عبد الله الحسين بن جوهر القائد وحده إلى القصر وأذن للناس فدخلوا إلى الحضرة وخرج الحاكم على فرس أشقر فوقف في صحن القصر قائماً وزيدان عن يمينه وأبو القاسم الفارقي عن يساره والناس قيام بين يديه فقال لهم بنفسه من غير واسطة: إن برجوان عبدي استخدمته فنصح فأحسنت إليه ثم أساء في أشياء عملها فقتلته والآن فأنتم شيوخ دولتي وأشار إلى كتامة وأنتم عندي الآن أفضل مما كنتم فيه مما تقدم.

والتفت إلى الأتراك وقال لهم: أنتم تربية العزيز بالله وفي مقام الأولاد وما لكل أحد عنيد إلا ما يؤثره ويحبه فكونوا على رسومكم وامضوا إلى منازلكم وخذوا على أيدي سفهائكم.

فدعوا جميعا وقبلوا الأرض وانصرفوا.

وأمر بكتابة سجل أنشأه أبو منصور بن سورين كاتب الإنشاء قرىء بسائر الجوامع في مصر والقاهرة والجيزة والجزيرة نصه بعد البسملة: من عبد الله ووليه المنصور أبي علي الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين إلى سائر من شهد الصلاة الجامعة في مساجد القاهرة المعزية ومصر والجزيرة: سلام عليكم معاشر المسلمين المصلين في يومنا هذا في الجوامع وسائر الناس كافة أجمعين فإن أمير المؤمنين يحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ويسأله أن يصلي على جده محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى أهل بيته الطاهرين.

أما بعد فالحمد لله الذي قال وقوله الحق المبين: " لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُون * " يحمده أمير المؤمنين على ما أعطاه من خلافته وجعل إليه فيها دون بريته من الضبط والقبض والإبرام والنقض.

معاشر الناس إن برجوان كان فيما مضى عبداً ناصحا أرضى أمير المؤمنين حينا فاستخدمهم كما يشاء فيما يشاء وفعل به ما شاء كما سبق في العلوم وجاز عليه في المختوم.

قال الله عز وجل: " وَلَوْ بَسَطَ اللّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مِا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ " * ولقد كان أمير المؤمنين ملكه فلما أساء ألبسه النقم لقول الله تعالى: " فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمُ " * وقوله عز وجل: " إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى " أن رآه استغنى * فحظره أمير المؤمنين عما صبا إليه ونزعه ما كان فيه وتمت مشيئة الله عز وجل ونفذ قضاؤه وتقديره فيه.

"كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً " * فأقبلوا معاشر التجار والرعية على معايشكم واشتغلوا بأشغالكم فهو أعود لشأنكم ولا تطغوا في أمر أنفسكم فلأمير المؤمنين الرأي فيه وفيكم.

فمن كانت له منكم مطالبة أو حاجة فليمض إلى أمير المؤمنين بها فإنه مباشر ذلك لكم بنفسه وبابه مفتوح بينكم وبينه.

" والله يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ" وأنتم رعايا أمير المؤمنين المفتحة لها أبواب عدله وإحسانه وفضله.

والله يريده فيما يريده ويعتمده من الخير لمن أطاعه من الأنام والحماية لحمى الإسلام " عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ " والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكتب يوم الجمعة لثلاث بقين من شهر ربيع الآخر سنة تسعين وثلثمائة.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الأخيار وسلم تسليما.

وكتبت سجلات على نسخة واحدة وأنفذت إلى سائر النواحي والأعمال.

ولثلاث خلون من جمادى الأولى خلع على القائد الحسين بن جوهر ثوب ديباج أحمر ومنديل أزرق مذهب وتقلد سيفا عليه ذهب وحمل على فرس بسرج ولجام ذهب وبين يديه ثلاثة أفراس بمراكبها وخمسون ثوبا من كل فن.

ورد إليه الحاكم التوقيعات والنظر في أمور الناس وتدبير المملكة وإنصاف المظلوم.

وخلع على فهد بن إبراهيم وحمل على بغلة وبين يديه بغلة أخرى وعشرون ثوبا.

فانصرف القائد وخلفه فهد وسائر الناس بين يديه إلى داره.

وتقدم إلى فهد بالتوقيعات في رقاع الرافعين على رسمه وأن يعاضد القائد حسينا في النظر ويعاونه ويخلفه إذا غاب.

فكان القائد يبكر إلى القصر ومعه الرئيس فهد فينظران في أمور الناس وينهيان الأمور إلى الحاكم والقائد متقدم وفهد يتبعه فإذا دخلا إلى حضرة الحاكم جلس القائد وقام فهد خلفه فيعرضان الكتب والرقاع عليه.

وأمر القائد ألا يلقاه أحد من الناس على طريق ولا يركب إليه إلى داره أحد لقضاء حق ولا سؤال في مصلحة ومن كان له حاجة يلقاه في القصر.

ونهى الناس أن يخاطبوه في الرقاع التي تكتب إليه بسيدنا ومولانا ولا يخاطبونه ويكاتبونه إلا بالقائد فقط ولا يخاطب فهد ويكاتب إلا بالرئيس فقط.

وحمل فهد إلى الحاكم هدية منها ثلاثون بغلة بألوان من الأجلة وعشرون فرسا منها عشرة مسرجة ملجمة وعشرة بجلال ملونة وعشرون ألف دينار وسفط فيه حلة دبيقية مذهبة لم ير مثلها ودرج فيه جوهر وأسفاط كثيرة فيها البز الرفيع وخزانة مدهونة.

وأمر أبو جعفر محمد بن حسين بن مهذب صاحب بيت المال بإحضار تركة برجوان فوجد فيها مائة منديل شرب ملونة معممة كلها على مائة شاشية وألف سروال دبيقي بألف تكة حرير أرمني ومن الثياب المخيطة والصحاح والحلى والمصاغ والطيب والفرش ما لا يحصى كثرة ومن العين ثلاثة وثلاثون ألف دينار ومائة وخمسون فرسا لركابه وخمسون بغلة وثلثمائة رأس من بغال النقل ودواب الغلمان ومائة وخمسون سرجا منها عشرون من ذهب ومن الكتب شيء كثير.

لما ركب القائد حسين رأى جماعة من قواد الأتراك قياما على الطريق ينتظرونه فوقف وقال: كلنا عبيد مولانا صلوات الله عليه ومماليكه وليس والله أبرح من موضعي أو تنصرفوا عني ولا يلقاني أحد إلا في القصر فانصرفوا.

وأقام خدما من الصقالبة بنوب على الطريق يمنعون الناس من المصير إلى داره ومن لقائه إلا في القصر وجلس في موضع رسم له بالجلوس فيه.

وتقدم حسين بن جوهر إلى أبي الفتوح مسعود الصقلبي صاحب الستر بأن يوصل الناس بأسرهم إلى الحاكم ولا يمنع أحدا وأن يعرف رسم كل من يحضر من يجلس للتوقيع إذا وقع له.

فدخل الناس ليأخذ رقاعهم وقصصهم ووقع فيها والحاكم في مكانه جالس يدخل إليه أرباب الحوائج ويشاور في الأمور المهمة.

ووصل إلى الحاكم جماعة ممن كان يدخل في الليل إلى العزيز وأمروا بملازمة القصر وقت جلوسه ودوام الجلوس بالعشايا فدخل أول ليلة وهي

ليلة الأربعاء سابع جمادى الأولى القائد الحسين والقائد فضل بن صالح والحسين بن الحسن البازيار.

فجلس حسين بن جوهر من اليمين وإلى جانبه فضل بن صالح ودونه ابن البازيار وبعده أبو الحسن علي بن إبراهيم المرسي ويليه القاضي عبد العزيز بن محمد بن النعمان وجلس من اليسار رجاء ومسعود ابنا أبي الحسين ودونهما أبو الفتح منصور بن معشر الطبيب وأبو الحسين بن المغربي الكاتب وأخوه.

ووقف عنده عدة من الأقارب وجماعة من القواد منهم منجوتكين وغيره ثم دخل بعد ذلك جماعة منهم ابن طاهر الوزان.

فجرى الرسم على ذلك إلى اثني عشر جمادى الآخرة.

ثم صار السلام يخرج فينصرفون إلا ابن البازيار وابن معشر الطبيب وعبد الأعلى بن هاشم من القرابة فإنهم يجلسون فربما أطالوا الجلوس وربما خدموا.

وركب الحاكم عدة مرار إلى ناحية سردوس وإلى بركة الجب وإلى عين شمس وحلوان للصيد وغيره.

وفي سابع عشري جمادى الآخرة قرئ سجل على سائر منابر المساجد الجامعة بأن يلقب القائد حسين بن جوهر بقائد القواد.

وخلع على جابر بن منصور الجودري جبة مثقلة ومنديل بذهب وحمل بين يديه ثياب كثيرة وقلد بسيف وندب ناظرا في السواحل والحسبة بمصر.

وأما الشام فإن جيش بن الصمصامة لما استقر بدمشق وقد خرب البلد وضعف وقل ناسه وطمعت رعيته فكان فيهم جهال يأخذون الخفارة ويطمعون في أموال أهل السلامة فصارت لهم أموال وخيول ومشى بين أيديهم الرجال وقويت نفوسهم وصاروا يوالون خروجهم مع جيش في وقائع الروم فوعدهم جيش بالأرزاق فاطمأنوا إليه.

ثم إنه رتب جماعة وقبض على المذكورين وقيدهم وأمر بهم فحبسوا وأفاض عليهم العذاب حتى سلبهم جميع أموالهم وتتبع من استتر منهم فضرب أعناقهم وصلبهم على أبواب البلد فلم يبق منهم أحد.

فلما خلا له البلد من حمال السلاح طمع في أهل القرى فعم كثيرا من الناس البلاء منه وشمل أهل المدينة والقرى ضرره حتى غلق أكثر الأسواق وضج الناس إلى الله بالدعاء وهو يعدهم بحريق البلد وبذل السيف فيهم فهرب كثير من الناس عن البلد.

ووصل الخبر بقدوم عسكر الروم فأخذ جيش في جمع العرب ونزل ملك الروم على شيزر وفيها عسكر من قبل الحاكم فقاتلهم حتى ملكهم بأمان.

ونزلت العرب الذين جمعهم جيش فيما بين حرستا والقابول وانتقل الروم من شيزر إلى حمص فأخذوها وسبوا أهلها وأحرقوا وذلك في ذي الحجة سنة تسع وثمانين وهي دخلة الروم الثالثة إلى حمص فأقاموا بها وقد اشتد البرد وغلت عليهم الأسعار حتى بيعت العليقة عندهم بدينار فرحلوا وقد مات أكثر دوابهم إلى طرابلس فنزلوا عليها وهم في ضيق ثم رحلوا عنها إلى ميافارقين وآمد وهادنوهم.

ثم ساروا إلى أرمينية.

وزاد جور جيش وأسرف في الظلم وكان به طرف جذام فاشتد به وسقط شعر بدنه ورشح جسمه واسود حتى انمحت سحنة وجهه وزاد وأروح سائر بدنه فكان يصيح: ويحكم ! اقتلوني أريحوني!! إلى أن هلك يوم الأحد لسبع خلون من ربيع الآخر.

فكان مقامه بدمشق ستة عشر شهرا وستة عشر يوما.

ووصل ابنه أبو عبد الله بتركته إلى القاهرة فخلع عليه الحاكم وحمله.

ورفع زيدان إلى الحاكم درجاً بخط جيش وفيه وصية وثبت بما خلف مفصلاً مشروحا وأن ذلك جميعه لأمير المؤمنين الحاكم بأمر الله لا يستحق أحد من أولاده منه درهما وكان ذلك يبلغ نحو مائتي ألف دينار ما بين عين ورحل ومتاع.

وقد قال فيه جيش: لو زيدان يتسلم ذلك فإنه على بغال تحت القصر بظاهر والقاهرة.

فأخذ الحاكم الدرج وأوصله لابني جيش وخلع عليهما وقال لهما بحضرة أولياء الدولة ووجوهها: قد وقفت على وصية أبيكما رحمه الله من عين ومتاع فيما وصى به فخذوه هنيئاً مباركاً لكما فيه.

فانصرفا بجميع التركة.

وأقطعت سيدة الملك على عبرة سنة تسع وثمانين الخراجية إقطاعا مبلغه مائة ألف دينار منها ضياع في الصعيد وأسفل الأرض ثمانية وستون ألفا وأربعمائة وخمسون دينارا منها بوتيج ستة آلاف وسبعمائة وخمسون دينارا وصهرشت سبعة عشر ألف دينار ودمنهور خمسة آلاف دينار وباقي ذلك وهو أحد وثلاثون ألف دينار وخمسمائة وخمسون ديناراً من دور وبساتين ورسوم.

وأما المغرب فإن الأستاذ برجوان لما ولى تدبير الدولة ثقل عليه أبو الحسن يانس الصقلبي العزيزي فإنه كان ينافسه في الرئاسة فتحيل حتى أخرجه إلى برقة كما تقدم فتوالت كتب تموصلت بن بكار يسأله أن يأتيه أحد ليسلمه مدينة أطرابلس وتقدم إلى الحضرة.

فقصد برجوان إبعاد يانس فكتب إليه حتى سار إليها وقدم إليها للنصف من جمادى الأولى سنة سبعين فسلمه تموصلت البلد ومضى إلى القاهرة وقد تأخر أكثر عسكره مع يانس فاختلفوا مع أصحابه حتى اقتتلوا وخرجوا أقبح خروج إلى إفريقية وشكوا ما نزل بهم إلى نصير الدولة أبي مناد باديس.

فبعث القائد جعفر بن حبيب على عسكر فقاتل يانس فقتل في رابع ذي القعدة.

وبادر فتوح بن علي بن عقيان من أصحاب يانس إلى أطرابلس فدخلها وانضم إليه بقية أصحابه وقاتل بها جعفر بن حبيب سنة إحدى وتسعين واستمد الحاكم فأمده بيحيى بن علي بن الأندلسي على عسكر فاختلف عليه أصحابه وعاد أقبح عود إلى القاهرة.

فأراد الحاكم قتله فأظهر كتاب زيدان صاحب المظلة بخطه أن يدفع إليه المال من برقة وأنه قبض ذلك من مال الحضرة فلم يجد ببرقة مالاً ينفقه على العساكر فقبل هذا العذر وقتل زيدان على ما فعل.

وكان مع يحيى بن علي عند خروجه من المغرب جماعة من بني قرة فكسروا عسكره ورجعوا إلى موضعهم فبعث الحاكم يستدعيهم إلى القاهرة فخافوا وامتنعوا فأعرض عنهم مدة ثم كتب إليهم أمانا فبعثوا رهائن منهم فأمرهم بالوصول إلى الإسكندرية ليقفوا على ما يأمرهم به فحذر أكثرهم وقدمت طائفة إلى الإسكندرية فقتلوا وحملت رؤوسهم إلى القاهرة وقتل من كان بها من رهائنهم فنفرت عنه بنو قرة وكان منهم ما يأتي ذكره من قيامهم مع أبي ركوة.

وفي ثالث رجب خلع على أبي القاسم عبد العزيز بن محمد بن النعمان ونزل إلى الجامع العتيق وبين يديه ثياب صحاح وحمل على بغلتين مسرجتين ملجمتين وقرئ له سجل بالنظر في المظالم وسماع البينة فيها.

وحمل رحل برجوان إلى القصر على ثمانين حمارا.

وقرئ سجل بالقصر نصه بعد البسملة: معاشر من يسمع هذا النداء من الناس أجمعين إن الله وله الكبرياء والعظمة أوجب اختصاص الأئمة بما لا يشركها فيه أحد من الأمة.

فمن أقدم بعد قراءة هذا المنشور على فليبلغ الشاهد الغائب إن شاء الله.

وأفطر في رمضان مع الحاكم جماعة رتبوا عن يمينه ويساره وصلى فيه جمعتين بالناس وركب لفتح الخليج.

ووصل تموصلت بن بكار الأسود عبد ابن زيرى وكان قد ولاه طرابلس المغرب فجار على أهلها وأخذ منها مالا كثيرا وفر خوفا من مولاه فسار من طرابلس المغرب ومعه نيف وستون ولداً ما بين ذكر وأنثى في عسكر كبير بعد أن مر ببرقة ودفع ليانس العزيزي متوليها ثلاثين ألف دينار لخاصة نفقته وأنفق في عسكره ورجاله مالا كثيرا وسلم إليه مخازن فيها العسل والسمن والقمح والشعير والزيت وغيره.

فجلس له الحاكم وأجلسه فكان من كلامه للحاكم: قد وصلت إلى حضرة مولانا بالأهل والمال والولد ومعي ما يكفيني ويكفي عقب عقبي ولكن الرجال الذين معي رجال مولانا وهو يحسن إليهم على ما يراه.

وأهدى إلى الحاكم مائة ألف دينار ومائة ألف درهم ونيفا وخمسين حملا من البز والطرف وثمانين فرسا منها أربعون بسرجها ولجمها وأربعين بغلا وخمسين بختيا بأكوارها ومائتي جمل.

فخلع عليه وعلى من حضر من أولاده وسار إلى دار قد أعدت له فيها خمس وثلاثون حجرة في كل حجرة آلاتها وفرشها فبلغت النفقة على هذه الدار خمسة آلاف دينار.

وفي يوم عيد الفطر صلى الحاكم بالناس بالمصلى وخطب على رسمه وأصعد ابن النعمان وعدة من القواد معه المنبر فجلس على الدرج.

ولخمس خلون من شوال أذن لابن عمار في الركوب إلى القصر فركب ونزل حيث ينزل سائر الناس وواصل الركوب إلى الرابع عشر منه فأحضر عشية إلى القصر فجلس إلى بعد العشاء الآخرة ثم أذن له في الانصراف فلما انصرف ابتدره جماعة من الأتراك قد أوقفوا لقتله فقتلوه واحتزوا رأسه ودفنوه هنالك ثم نقل إلى تربته بالقرافة فكانت مدة حياته بعد عزله ثلاث سنين وشهراً واحداً وثمانية عشر يوما.

وسارت قافلة الحاج لاثنتي عشرة خلت من ذي القعدة.

وعزل خود عن الشرطة السفلى وجمعت الشرطتان لمسعود الصقلبي فنزل بالخلع والطبول والبنود إلى الجامع العتيق حتى قرئ سجله على المنبر.

وفي ثالث ذي الحجة أمر الناس بتعليق القنادل على سائر الحوانيت وأبواب الدور كلها وفي جميع المحال والسكك الشارعة وغير الشارعة ففعلوا.

وصلى الحاكم صلاة عيد النحر بالمصلى وخطب ونحر في القصر على رسمه وجلس على السماط.

وكان الناس بين عبد العزيز بن النعمان وبين قاضي القضاة الحسين بن النعمان في شرور وبلاء وذلك أن عبد العزيز قبل شهادة جماعة اختارهم فكان من حاكم خصمه إلى الحسين اختار خصمه بالمرافعة إلى عبد العزيز وبالعكس.

وكان عبد العزيز إذا جلس للنظر في المظالم حضر شهوده عنده وسمع شهادتهم وأشهدهم فيما يقول ويمضى ولا يحضر أحد منهم عند الحسين ولا يقرب داره ويقيد الشهود القدماء يشهدون عنده غير أنهم لا يحضرون مجلس عبد العزيز مواصلين لذلك ولا يركبون معه.

وفيها عقد ليانس الصقلبي على ولاية أطرابلس الغرب بعد موت المنصور من بلكين فوصل إليها في ألف وخمسمائة فارس وملكها.

فبعث باديس بن جعفر بن حبيب على عسكر فلقيه على زنزوير واقتتلا يومين فانهزم عسكر يانس وقتل.

سنة إحدى وتسعين وثلثمائة

في المحرم واصل الحاكم الركوب في الليل في كل ليلة وكان يركب إلى موضع موضع وإلى شارع شارع وإلى زقاق زقاق.

وأمر الناس بالوقيد فتزايدوا فيه بالشوارع والأزقة وزينت الأسواق والقياسر بأنواع الزينة وباعوا واشتروا وأوقدوا الشموع الكبيرة طول الليل وأنفقوا الأموال الكثيرة في المآكل والمشارب والغناء واللهو.

ومنع الرجال المشاة بين يدي الحاكم أن يقرب أحد من الناس الحاكم فزجرهم وقال لا تمنعوا أحداً فأحدق الناس به وأكثروا من الدعاء له.

وزينت الصناعة وخرج سائر الناس بالليل للتفرج وغلب النساء الرجال على الخروج في الليل وتزايد الزحام في الشوارع والطرقات وتجاهروا بكثير من المسكرات وأفرط الأمر من ليلة التاسع عشر إلى ليلة الرابع والعشرين فلما خرج الناس عن الحد أمر الحاكم ألا تخرج امرأة من العشاء فإن ظهرت نكل بها.

ومنع الناس من الجلوس في الحوانيت.

وهبت في أول يوم من طوبة سموم لم يعهد مثله.

وورد سابق الحاج ثم قدمت قافلة الحاج في سادس عشر صفر.

وفي خامس ربيع الأول أعتق الحاكم زيدان صاحب المظلة وأمر أن يكتب على مكاتباته من زيدان مولى أمير المؤمنين.

وخلع على القاضي حسين بن النعمان وقيد بين يديه بغلتان بسروجهما ولجمهما وحمل إليه عدة ثياب لحضوره العتاقة.

وكثر وقود المصابيح في الشوارع والطرقات وأمر الناس بالاستكثار منها وبكنس الطرقات وحفر الموارد وتنظيفها.

وخلع على فتح غلام ابن فلاح وندب إلى الخروج على الأسطول.

وقبض على رجل شامي قال: لا أعرف علي بن أبي طالب وأقول إن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل غير أني لا أعرف علي بن أبي طالب.

فحبس وروجع فأصر على أنه لا يعرف عليا فرفق به القائد حسين فلم يعترف بمعرفة علي رضي الله عنه فخرج الأمر بقتله فضرب عنقه وصلب.

وفي سادس عشر جمادى الآخرة وصل رسول ملك الروم فحشدت له العساكر من سائر الأعمال ووقفوا صفين والحاكم واقف ليراهم.

وسار الرسول بين العساكر إلى باب الفتوح ونزل ومشى إلى القصر يقبل الأرض في طول المسافة حتى وصل إلى حضرة الحاكم بالقصر وقد فرش إيوان القصر وعلق فيه تعاليق غريبة يقال إنه أمر بتفتيش خزائن الفرش إلى أن وجد فيها أحداً وعشرين عدلا ذكرت السيدة رشيدة بنت المعز أنها كانت في قطار الفرش المحمولة من القيروان إلى مصر مع المعز في جملة أعدال وأن كتاب خزائن الفرش وجدوا على بعضها مكتوبا الحادي والثلاثون والثلثمائة من عمل العبيد ديباج خز ومذهب ففرش منه جميع الإيوان وستر جميع حيطانه بالتعاليق فكان جميع أرضه وحيطانه رفيعاً دليلا على عظمته وسعته.

وعلقت بصدر الإيوان العسجدة وهي درقة مطعمة بفاخر الجوهر النفيس من كل أصنافه فأضاء لها ما حوله ووقعت عليها الشمس فلم تطق الأبصار تأملها كلالاً.

فدخل الرسول وقبل الأرض وأنفذ الحاكم لأبي الحسن علي بن إبراهيم النرسي ألف دينار وأربعة وعشرين قطعة ثياب مختارة وسومح بمبلغ ثلاثة آلاف دينار كانت عليه.

وجرى الرسم في الفطر طول شهر رمضان على مائدة الحاكم كما تقدم.

ولما كثر النزاع بين عبد العزيز بن النعمان والقاضي حسين بن النعمان كتب الحاكم بخطه ورقة إلى الحسين نصها بعد البسملة: يا حسين أحسن الله عليك.

اتصل بنا ما جرى من شناعات العوام ومن لا خير فيه وإرجافهم وأنكرنا أن يجري مثله فيمن يحل محلك من خدمتنا إذ أنت قاضينا وداعينا وثقتنا.

ونحن نتقدم بما يزيل ذلك ولم نجعل لأحد غيرك نظراً في شيء من القضايا والحكم ولا في شيء مما استخدمناك فيه ولا مكاتبة أحد من خلفائك بالحضرة وغيرها وسائر النواحي ولا أن نكاتب أحدا منهم غيرك ومن تسمى غيرك بالقضاء فذلك على المجاز في اللفظ لا على الحقيقة.

وقد منعنا غيرك أن يسجل في شيء فيتقدم إلى جميع الشهود والعدول بألا يشهدوا في سجل لأحد سواك.

وإن تشاجر خصمان فدعى أحدهما إليك ودعى الآخر إلى غيرك كان الداعي إلى غيرك عليه الرجوع إليك طائعا مكرها فاجر على ما أنت عليه من تنفيذ القضايا والأحكام مستعينا بالله عز وجل ثم بنا ولك من جميل رأينا فيك ما يسعدك في الدنيا والآخرة.

وقد أذنا لك أن يكاتب جميع من يكاتب القاضي بقاضي القضاة كما جعلناك وتكاتب من تكاتبه بذلك وتكتب به في سجلاتك.

فاعلم ذلك وأشهر أمرنا بجميع ما يقتضيه هذا التوقيع ليمتثل ولا يتجاوز.

وفقك الله لرضاه ورضانا وأيدك على ذلك وأعانك عليه إن شاء الله تعالى.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما.

فقرأه القاضي على سائر الشهود وأمر أن يكتب في سجلاته قاضي القضاة وكوتب بذلك وكتب عليه.

وجرى الرسم في ركوب الحاكم لفتح الخليج وفي يوم العيد إلى المصلى على العادات.

وسارت قافلة الحاج للنصف من ذي القعدة بالكسوة والشمع والصلات وزينت البلد مرة في شوال ثلاثة أيام ومرة في ذي القعدة يوما.

وجرى الرسم في صلاة عيد النحر على ما تقدم ثم انصرف فنحر ودخل تربة القصر وحضر السماط.

وفيها توفي أبو الفضل جعفر بن الفرات في ثالث ربيع الأول عن اثنتين وثمانين سنة وثلاثة أشهر وخمسة أيام فصلى عليه القاضي حسين بن النعمان ودفن في داره.

وكان من الفضل والعلم والدين بمنزلة وحدث وأسمع وأملى مجالس وكتب على الصحيحين مستخرجا وكان كثير البرد والصلات والصدقة شديد الغيرة حتى إنه ليحجب أولاده الأكابر عن حرمه وأهله وعن أمهاتم.

فإنه بلغه عن بعض أولاده أنه واقع أختا له وأحبلها.

وكان يتنسك منذ تجاوز أربعين سنة.

ثم وفيها قتل الحاكم مؤدبه أبا القاسم سعيد بن سعيد الفارقي يوم السبت لثمان بقين من جمادى الأولى وهو يسايره بأن أشار إلى الأتراك بعينيه بعد أن بيت معهم قتله فأخذته السيوف وكان قد داخل الحاكم في أمور الدولة وقرأ عليه الرقاع واستأذنه في الأمور كهيئة الوزراء.

سنة إحدى وتسعين وثلثمائة

في المحرم قتل الحاكم ابن أبي نجدة وكان بقالا فترقت أحواله حتى ولى الحسبة ودخل فيما لا يليق به وأساء في معاملة الناس فاعتقل ثم قطعت يده ولسانه وشهر على جمل وضربت عنقه.

وفي شعبان سارت هدية إلى المغرب فيها ثلثمائة فرس بجلال وعشرة بمراكب وخمسة وأربعون بغلا تحمل السلاح والكسوة وعشرون بغلا تحمل صناديق فيها ذهب وفضة.

وفي شهر رمضان خلع على تموصلت بن بكار وقلد بسيف وحمل على عشرة أفراس بمراكبها وقلد إمارة الشام.

وجرى الرسم في سماط رمضان وصلاتي العيدين وخروج قافلة الحاج على ما تقدم.

وفيها توفي أبو تميم سلمان بن جعفر بن فلاح في ثامن جمادى الآخرة.

وقتل عدة أناس في نصف صفر قدم الحاج.

وفي ربيع الأول قرئ سجل برفع المنكرات وإبطالها وبمنع ذلك فختم على عدة مواضع فيها المسكرات لتراق.

وابتدئ في عمارة جامع راشدة وكان مكانه كنيسة فبنى جامعاً وأقيمت فيه الجمعة وفي ثامن جمادى الآخرة ضربت رقبة فهد بن إبراهيم وله منذ نظر في الرئاسة خمس سنين وتسعة أشهر واثنا عشر يوما.

فحمل أخوه أبو غالب إلى سقيفة القصر من مال أخيه فهد جرايات فيها خمسمائة ألف دينار.

فلما خرج الحاكم سأل عنها فعرف خبرها فأعرض عنا وبقيت هناك مدة ثم أمر بها فردت إلى أولاد فهد وقال إنا لم نقتله على مال فحملت إليهم ثم رفع أصحاب الأخبار عن أبي غالب كلمة تكلم بها فقتل وأحرق بالنار.

وخلع على أبي الحسن علي بن عمر بن العداس مكانه وخلع على ابنه محمد بن علي وعلى الحسين بن طاهر الوزان وحملوا في رابع عشره.

وسار الأمير ياروخ متقلدا طبرية وأعمالها.

وقبضت أموال من قبض عليه من النصارى الكتاب.

وأمر بإتمام بناء الجامع الذي ابتدأ بعمارته العزيز على يد وزيره يعقوب بن كلس خارج باب وفي خامس عشر من شهر رجب ضرب عنق أبي طاهر محمود بن النحوي الناظر في أعمال الشام لكثرة تجبره وعسفه بالناس.

وفي غرة شعبان جمع في الجامع الجديد بظاهر باب الفتوح.

وقطع الحاكم الركوب في الليل.

ورد إلى أولاد فهد بن ابراهيم سروجهم المحلاة وأمروا بالركوب بها.

وأطلق من اعتقل من الكتاب النصارى.

وصلى الحاكم في رمضان بالناس أجمعين بعد ما خطب وصلى صلاة عيد الفطر وخطب على الرسم.

وأكثر من الحركة في شهري رمضان وشوال إلى دمنهور والأهرام وغيرهما.

وسافر الحاج للنصف من ذي القعدة.

وأما الشام فإنه لما مات جيش بن الصمصامة في شهر ربيع الآخر سنة تسعين ولي دمشق شيخ من المغاربة يقال له فحل بن تميم فلبث شهورا ومات فقدم عند الحاكم على ابن جعفر بن فلاح فنزل على دمشق ليومين بقيا من شوال وأقام بها غير منبسط اليد في ماله.

فلما كان في شهر رمضان سنة اثنتين وتسعين قدم من جهة الحاكم داع يقال له ختكين الملقب بالضيف إلى دمشق فبرز ابن فلاح وأقام بظاهر دمشق.

فأراد الضيف أن ينقص الجند من أرزاقهم فشغبوا وساروا يريدون ابن عبدون النصراني وكان على تدبير المال وعطاء الأرزاق فمنعهم الضيف وأغلظ في القول لهم وكان قليل المداراة فرجعوا إليه وقتلوه وانتهبوا دور الكتاب والكنائس.

وتحالف المغاربة والمشارقة من العسكر على أن يكونوا يداً واحدة في طلب الأرزاق وأنهم يمتنعون ممن يطالبهم بما فعلوه وحلف لهم علي بن جعفر بن فلاح أنه معهم على ما اجتمعوا عليه.

فبلغ ذلك الحاكم فقال: هذا قد عمى.

فبعث يعزله عن دمشق فسار عنها في يسير من أصحابه وذلك في شوال منها.

وتأخر العسكر بدمشق فقدم إليها تموصلت بن بكار من قبل الحاكم فلم يزل عليها إلى أن ولي مفلح اللحياني دمشق في ذي الحجة سنة ثلاث وتسعين.

وكان خادما وفي وجهه شعر فسار إليها.

سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائه

وفيها قتل أبو علي الحسن بن عسلوج في المحرم وأحرق.

وقتل علي بن عمر بن العداس في شعبان وأحرق.

وقتل الأستاذ أبو الفضل زيدان صاحب المظلة لعشر بقين من ذي الحجة ضرب عنقه.

وفيها استأذن عبد الأعلى بن الأمير هاشم بن المنصور أن يخرج إلى بعض ضياعه فأذن له الحاكم فخرج بجماعة من ندمائه فبعث الحاكم عينا يأتيه بخبرهم فصاروا إلى متنزههم فأكلوا وشربوا وجرى من حديثهم أن قال أحد أولاد المغازلي المنجم لابن هاشم: لا بد لك من الخلافة فأنت إمام العصر.

فلما عادوا ودخل ابن هاشم على الحاكم وجلس أخرج الحاكم من تحت فراشه سيفا مجردا وضربه به فحمل من داره وكتب يعتذر عن ذنبه إن كان قيل عنه ويحلف ويذكر أن ضربته سالمة ويسأل الإذن في طبيب يعالجه فأجيب إلى ذلك.

فلما أفاق استأذن في الدخول إلى الحمام فأذن له فبعث الحاكم إلى الحمام من ذبحه فيه وأتاه برأسه.

وبعث إلى من حضر المجلس فقتلوا وأحرقوا بالنار وفيهم أولاد المغازلي وابن خريطة وأولاد أبي الفضل بن الفرات وفتيان من كتامة.

وتتابع القتل في الناس من الجند والرعية بضروب مختلفة.

سنة أربع وتسعين وثلثمائة

في محرم خلع على مظفر الخادم الصقلبي وحمل على ثلاث بغلات بمراكبها ومعه ثياب كثيرة وندب لحمل المظلة.

وخلع على متولي الأسود وحمل لواؤه ببرقة.

وقبض على أبي داود بن المطيع.

وخلع على صاحب ديوان النفقات وضرب عنقه بسبب أنه سرق مائتي ألف دينار وقدم مفلح اللحياني إلى دمشق في المحرم فسار عنها تموصلت يريد مصر ونزل بداريا فمات بها في ثاني صفر.

فلما ورد خبر موته إلى الحاكم خلع على ولديه وحملهما.

وقدم الحاج في رابع عشريه.

وفي ربيع الأول ألزم الناس بوقود القناديل بالليل في سائر الشوارع والأزقة بمصر.

وخلع على أبي يعقوب بن نسطاس المتطبب وحمله على بغلتين ومعه ثياب كثيرة ومنحت لها دار بالقاهرة وفرشت وألزم بالخدمة وكان قد هلك منصور بن معشر الطبيب.

وهدمت كنيستان بجانب جامع راشدة.

وفي جمادى الآخرة حمل إلى الشريف أبي الحسن علي النرسي رسمه يجاري به العادة في كل سنة وهو من الثياب عشرون قطعة بنحو خمسمائة دينار.

وفي رجب قرئ سجلان أحدهما فيه إنكار الحاكم على من يخاطبه في المكاتبة بمولى الخلق أجمعين والآخر بمسير الحاج أول ذي القعدة.

وقبض على ثلاثة عشر رجلا ضربوا وشهروا على الجمال وحبسوا ثلاثة أيام بسبب أنهم صلوا صلاة الضحى وفي شعبان خرج الكتاميون إلى باب الفتوح فترجلوا وكشفوا رؤوسهم واستغاثوا بعفو أمير المؤمنين فأوصل إلى الحاكم جماعة منهم فوعدهم وكتب لهم سجل قرئ بالقصر والجوامع بالرضا عنهم وإعادتهم إلى رسومهم في التكرمة.

وأمر بهدم جامع عمرو بن العاص بالإسكندرية.

وصلى الحاكم بالناس في رمضان صلاة الجمعة مرتين وخطب.

وفي سادس عشره صرف الحسين بن النعمان عن القضاء.

وكان قد ضرب في الجامع فندب الحاكم جماعة من شيوخ الأضياف يركبون معه إلى كل مجلس فيه جماعة من الخاصة وأمر أصحاب سيوف الحلي بالمشي بين يديه في كل يوم.

فكان إذا حضر إلى الجامع العتيق وقام يصلي وقف جماعة الأضياف صفا خلفه يسترونه ولا يصلي أحد منهم حتى يفرغ من صلاته ويعود إلى مجلسه فإذا جلس في مجلسه كانوا قياما عن يمينه وشماله.

وهو أول قاض فعل ذلك معه وأول قاض كتب في سجلاته قاضي القضاة وعلت منزلته عند الحاكم وتخصص به.

وكان له عند الحاكم جماعة يمدحونه ويبالغون في الثناء عليه منهم ريحان اللحياني وزيدان ومصلح اللحياني فانبسطت يده وعظم شأنه ولا عن بين رجل وامرأته وتشدد على الناس فكان إذا أبطأ شاهد يوم جلوسه في الجامع عن الحضور إلى داره والركوب معه رسم عليه وأغرمه مالاً ليأخذه.

وألزم كتابه بملازمة داره دائما.

وكانت إليه الدعوة أيضا.

وكان قاضي القضاة وداعي فكانت مدة نظره في القضاء خمس سنين وستة أشهر وثلاثة وعشرين يوما.

ومولده لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين.

وهو أول قاض أحرق بعد قتله فإن الحاكم أحرقه بعد ما قتله في سادس محرم الآتي ذكره.

وفي سادس عشر رمضان قلد أبو القاسم عبد العزيز بن محمد بن النعمان القضاء إلى ما بيده من النظر في المظالم وخلع عليه وقلد سيفا محلى بذهب وحمل على بغلة وبين يديه سفط ثياب.

فنزل في موكب عظيم إلى الجامع العتيق فجلس تحت المنبر ورقى أبو علي أحمد بن عبد السميع وقرأ سجله.

وانصرف إلى داره فنزلها وحكم واستخلف على الحكم أبا الحسن مالك بن سعيد الفارقي مضافا إلى ما كان مستخلفاً عليه من الحكم في القاهرة.

واستكتب أبا يوسف منال لحضرته والتوقيعات عنه ثم كتب له سجل بأخذ الفطرة والنجوى وحضور المجلس بالقصر وأخذ الدعوة على الناس وقراءة ما يقرأ على من دخل الدعوة.

فحضر يوم الخميس الثاني عشر منه وقرأ ما جرى الرسم بقراءته في القصر وأخذ النجوى والفطرة وأوقف سائر الشهود الذين قبلهم حسين في أيامه وصرف عدة من المستخلفين بالأعمال واستكتب أبا طالب ابن السندي فوقع بين يديه واستكتب أبا القاسم علي ابن عمر الوراق وكتب السجلات وكتب القضايا والأحكام.

ولزم حسين داره وقد استبد خوفه وفيه قرئ سجل بالإنكار على الكتاب ومن يجري مجراهم في أخذ شيء من البراطيل ونحوها.

وركب الحاكم لصلاة العيد بالمصلى فصلى وخطب وحضر السماط بالقصر على رسمه في ذلك.

وبرزت قافلة الحاج في ثامن ذي القعدة بالكسوة والصلات على العادة.

وصلى الحاكم بالناس صلاة عيد النحر ونحر في الملعب.

وفيها قتل سهل بن يوسف أخو يعقوب بن يوسف بن كلس الوزير بسبب قوة طمعه وكثرة شرهه وعندما قدم للقتل سأل أن يدفع الساعة ثلثمائة ألف دينار عيناً يفدى بها نفسه فلم يجب.

وقتل أيضا القائد أبو عبد الله الحسين بن الحسن البازيار من أجل أنه كان إذا دخل من باب البحر تكون رجله على عنق دابته ويكون الحاكم في المنظرة التي على بابه فتصير رجله إلى وجه الحاكم وكان ابن البازيار قد اعتراه وجع النقرس فعد ذلك الحاكم عليه دينا قتله به في شوال لسوء التوفيق.

وفيها قدم من برقة عدة من بني قرة إلى الإسكندرية فقتلوا عن آخرهم.

وذلك أن يانس لما قتل وصل عسكره إلى طرابلس فنازلهم القائد جعفر بن حبيب فزحف إليه فلفول ابن خزرون ففر منه وخرج فتوح بن علي ومن معه من أصحاب يانس إلى فلفول وملكوه عليهم فقام بدعوة الحاكم وعقد الحاكم ليحيى بن علي بن حمدون الأندلسي على أطرابلس وكتب لبني قرة أن يسيروا معه فمضوا من برقة معه وخذلوه فعاد إلى القاهرة ورجع بنو قرة إلى برقة وأظهروا الخلاف فأمنهم الحاكم حتى قدموا وحدهم إلى إسكندرية فقتلوا.

واستقرت أطرابلس بيد فلفول وتداولها بنوه.

سنة خمس وتسعين وثلثمائة

في سابع محرم قرئ سجل في الجوامع يأمر اليهود والنصارى بشد الزنار ولبس الغيار وشعارهم بالسواد شعار الغاصبين العباسيين.

وفيه فحش كثير وقدح في حق الشيخين رضي الله عنهما.

وقرئ سجل في الأطعمة بالمنع من أكل الملوخية المحببة كانت لمعاوية بن أبي سفيان والبقلة المسماة بالجرجير المنسوبة إلى عائشة رضي الله عنها والمتوكلية المنسوبة إلى المتوكل.

وفيه المنع من عجن الخبز بالرجل والمنع من أكل الدلنيس والمنع من ذبح البقر التي لا عاقبة لها إلا في أيام الأضاحي وما سواها من الأيام لا يذبح منها إلا ما لا يصلح للحرث.

وقرئ سجل آخر بأن يؤذن لصلاة الظهر في أول الساعة السابعة ويؤذن لصلاة العصر في أول الساعة التاسعة.

وإصلاح المكاييل والموازين والنهي عن البخس فيهما والمنع من بيع الفقاع وعمله ألبتة لما يؤثر عن علي رضي الله عنه من كراهة شرب الفقاع.

وضرب في الطرقات بالأجراس ونودي ألا يدخل الحمام أحد إلا بمئزر وألا تكشف امرأة وجهها في طريق ولا خلف جنازة ولا تتبرج.

ولا يباع شيء من السمك بغير قشر ولا يصطاده أحد من الصيادين.

وتتبعت الحمامات وقبض على جماعة وجدوا بغير مئزر فضربوا وشهروا.

وفيه برزت العساكر لقتال بني قرة وسارت.

وكتب في صفر على سائر المساجد وعلى الجامع العتيق من ظاهره وباطنه في جميع جوانبه وعلى أبواب الحوانيت والحجر والمقابر والصحراء

بسب السلف ولعنهم ونقش ذلك ولون بالأصباغ والذهب وعمل كذلك على أبواب القياسر وأبواب الدور وأكره على عمل ذلك.

وأقبل الناس من النواحي والضياع فدخلوا في الدعوة وجعل لهم يوم وللنساء يوم فكثر الازدحام ومات في الزحمة عدة.

ولما دخل الحاج نالهم من العامة سب وبطش فإنهم طلبوا منهم سب السلف ولعنهم فامتنعوا.

ونودي في القاهرة: لا يخرج أحد بعد المغرب إلى الطريق ولا يظهر بها لبيع ولا شراء فامتثل الناس لذلك.

وفي ربيع الأول تتبعت الدور ومن يعرف بعمل المسكرات وكسر من أوعيتها شيء كثير.

وفيه أمر الحاكم بشونة تحت الجبل ملئت بالسنط والبوص والحلفاء فتخوف الناس كافة من يتعلق بخدمة الدولة من الأولياء والقواد والكتاب وسائر الرعية من العوام.

وقويت الشفاعات وكثر الاضطراب فاجتمع سائر الكتاب والمتصرفين من المسلمين والنصارى وخرجوا بأجمعهم في خامسة إلى الرياحين بالقاهرة وما زالوا يقبلون الأرض حتى وصلوا إلى القصر فوقفوا على بابه يدعون ويتضرعون ويضجون ويسألون العفو عنهم ومعهم رقعة قد كتبت عن الجميع.

ثم دخلوا باب القصر وهم يسألون أن يعفى عنهم ولا يسأل فيهم قول ساع يسعى فيهم.

وسلموا رقعتهم لقائد القواد فأوصلها إلى الحاكم فعفا عنهم وأمرهم على لسان قائد القواد بالانصراف والبكور لقراءة سجل بالعفو عنهم فانصرفوا بعد العصر.

وقرئ من الغد سجل كتب نسخة للمسلمين ونسخة للنصارى ونسخة لليهود بالأمان والعفو عنهم.

وفي ليلة التاسع منه ولد للحاكم ولد فجلس في صبيحتها للهناء وأمر بإحراق الشونة فأحرقت.

وكان سابع المولود فأخرج على يد خادم إلى قائد القواد فتسلمه حتى أعد المزين شعره وذبح عنه الشريف أبو الحسن النرسي العقيقة بيده وحمل

عثمان الحاجب الدم والعقيقة فأمر له بألف دينار وفرس ملجم وعدة ثياب من أجل حمل الدم والعقيقة ودفع إلى المزين مائتا دينار وفرس.

وسمى المولود بالحارث وكنى بأبي الأشبال.

وخرج قائد القواد إلى سائر الأتراك والديلم والعرفاء وقال: مولانا يقرأ عليكم السلام ويقول قد سميت مولاكم الأمير الحارث وكنيته أبا الأشبال.

فقبل الجميع الأرض وأكثروا الدعاء وانصرفوا.

وزينت البلد أربعة أيام.

وفيه رسم الحاكم لجماعة من الأحداث أن يتقافزوا من موضع عال في القصر ورسم لكل منهم بصلة فحضر جماعة وتقافزوا فمات منهم نحو ثلاثين إنسانا من أجل سقوطهم خارجاً عن الماء على صخر هناك ووضع لمن قفز ماله.

وفي ربيع الآخر اشتد خوف كافة الناس من الحاكم فكتب ما شاء الله من الأمانات للغلمان الأتراك الخاصة وزمامهم ومن معهم من الحمدانية والبكجورية والغلمان العرفاء والمماليك وصبيان الدار وأصحاب الإقطاعات والمرتزقة والغلمان الحاكمية القدم.

وكتب أمان لجماعة من خدم القصر الموسومين بخدمة الحضرة بعد ما تجمعوا وساروا إلى تربة العزيز وضجوا بالبكاء وكشفوا رؤوسهم.

وكتبت عدة سجلات بأمانات للديلم والخيل والغلمان الشرابية والغلمان المرتاحية والغلمان البشارية والغلمان المفرقة العجم وغيرهم والنقباء والروم المرتزقة.

وكتبت عدة أخرى بأمان الزويلين والمنادين والبطالين والبرقيين والعطوفية والجوانية والجودرية والمظفرية والصنهاجيين وعبيد الشراء بالحسينية والميمونية والفرجية.

وكتب أمان لمؤذني أبواب القصر وأمانات لسائر البيازرة والفهادين والحجالين وأمانات أخر لعدة أقوام كل ذلك بعد سؤالهم وتقربهم.

وفيه أمر بقتل الكلاب فقتل منها ما لا يحصى حتى لم يبق منها بالأزقة والشوارع شيء وطرحت بالصحراء وبشاطىء النيل وأمر بكنس الأزقة والشوارع وأبواب الدور في كل مكان ففعل ذلك.

وفي جمادى الآخرة فتحت دار الحكمة بالقاهرة وجلس الفقهاء فيها وحملت الكتب إليها ودخلها الناس للنسخ من كتبها وللقراءة.

وانتصب فيها الفقراء والقراء والنحاة وغيرهم من أرباب العلوم وفرشت وأقيم فيها خدام لخدمتها وأجريت الأرزاق على من بها من فقيه وغيره وجعل فيها ما يحتاج إليه من الحبر والأوراق والأقلام.

وفيه اشتد الطلب على الركابية المستخدمين في الركاب بعد أن قتل منهم في يومين أكثر من خمسين نفسا فتغيبوا وامتنع أحد من الناس أن يمشي بين يديه غلام أو شاكري فكانت القواد ومن جرى رسمه أن يكونوا بين يديه يسيرون وحدهم وإذا نزل أحدهم للسلام أمسك خادمه الدابة ثم عفى عنهم وكتب لهم أمان.

وكتب لعدة من الناس عدة أمانات.

وفيه منع كل أحد ممن يركب أن يدخل من باب القاهرة راكبا ومنع المكاريون أن يدخلوا بحميرهم ومنع الناس من الجلوس على باب الزهومة من التجار وغيرهم ومنع كل أحد أن يمشي ملاصق القصر من باب الزهومة إلى باب الزمرد.

ثم أذن للمكاريين في الدخول وكتب لهم أمان.

وتخوف الناس فخرج أهل الأسواق على طبقاتهم كل طائفة تسأل كتابة أمان فكتب ما ينيف عن المائة أمان لأهل الأسواق خاصة قرئت كلها في القصر ودفعت لأربابها وكلها على نسخة واحدة.

وهي بعد البسملة: هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبي علي الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين لأهل مشهد عبد الله إنكم من الآمنين بأمان الله الملك الحق المبين وأمان سيدنا محمد خاتم النبيين وأبينا علي خير الوصيين وذرية النبوة المهديين آبائنا صلى الله على الرسول ووصيه وعليهم أجمعين.

وأمان أمير المؤمنين على النفس والأهل والدم والمال.

لا خوف عليكم ولا تهديد بسوء إليكم إلا في حد يقام بواجبه وحق يوجد لمستوجبه.

فليوثق بذلك وليعول بأمان الله.

وكتب في جمادى الآخرة سنة خمسين وتسعين وثلثمائة.

والحمد لله وصلى الله على محمد سيد وفي يوم الأربعاء لعشر خلون من رمضان ولد للحاكم ولد ذكر فجلس الحاكم يوم الخميس للهناء.

وكان السابع يوم الثلاثاء فحمله شكر الخادم وحضر أبو الحسن علي ابن إبراهيم النرسي وعق عنه وحضر المزين فحلق شعره وتناول ماله من الرسم.

وسماه الحاكم عليا وكناه أبا الحسن وهو الذي ولي الخلافة وتلقب بالظاهر.

وفيه فرش جامع راشدة.

وركب الحاكم يوم عيد الفطر وعليه ثوب مصمت أصفر وعلى رأسه منديل منكر وهو محنك بذؤابة والجوهر بين عينيه.

وقيد بين يديه ستة أفراس بسروج مرصعة بالجوهر وست فيلة وخمس زرافات فصلى بالناس صلاة العيد وخطبهم فلعن في خطبته ظالمه حقه والمرجفين به وأصعد معه قائد القواد وقاضي القضاة عز الدين.

وفيه اضطرب السعر واختلف الناس في الدراهم والصرف فكانت المعاملة بالدراهم الزائدة والقطع واستقر سعرها على ستة وعشرين درهما بدينار.

وفي أول ذي القعدة برزت قافلة الحاج إلى مصلى القاهرة ثم رفعت إلى جب عميرة في سابعه وسارت ليلة العاشر منه بالكسوة للكعبة والرسوم على العادة.

وفيه كسر الخليج والماء على خمسة عشر ذراعا وسبعة أصابع وهو آخر يوم من مسرى.

وحضر الحاكم وعلى رأسه تاج مكلل بالجواهر.

ونودي في الناس بأن يلعبوا بالماء في النوروز ونزل الحاكم يوم النحر إلى المصلى فصلى بالناس وخطب ونحر بها ثلاث بدن وعاد إلى القصر فحضر السماط ثم نحر في الملعب إحدى وعشرين بدنة وواصل النحر أياماً.

وفيها قتل القاضي حسين بن النعمان ضربت رقبته ثم أحرق بالنار.

وذلك أن متظلما رفع رقعةً إلى الحاكم يذكر فيها أن أباه توفي وترك له عشرين ألف دينار.

وأنها في ديوان القاضي وقد أخذ منها رزق أوقاف معلومة وأن القاضي حسين بن النعمان عرفه أن ماله قد نجز.

فدعا به وأوقفه على الرقعة فقال كقوله للرجل من أنه قد استوفى ماله من أجرة.

وأمر بإحضار ديوان القاضي فأحضر من ساعته فوجد أن الذي وصل إلى الرجل أيسر ماله.

فعدد على القاضي حسين ما أقطعه وأجرى له وما أزاح من علله لئلا يتعرض إلى ما نهاه عنه من هذا وأمثاله.

فقال: العفو والتوبة فأمر به فضربت عنقه وأحرق.

وقتل عدة أناس يزيد عددهم على مائة نفس ضربت أعناقهم وصلبوا وقتل عبد الأعلى بن هاشم من القرابة لأنه كان يتحدث بأنه يلي الخلافة وأنه كان يجمع قوما ويعدهم بولاية الأعمال.

وقد تقدم خبره.

سنة ست وتسعين وثلثمائة

فيها ذكر المسبحي خبر أبي ركوة الوليد بن هشام بن عبد الملك بن عبد الرحمن الأموي ولد بالأندلس وقدم القيروان فانتصب يعلم الصبيان بها القرآن ثم دخل إلى مصر فأقام بها وبأريافها يعلم الصبيان مدة ثم خرج إلى الإسكندرية وقد أكثر الحاكم من الإيقاع ببني قرة وأكثر من قتلهم وتحريقهم بالنار فخلعوا طاعته.

وسبب ذلك أن بني قرة كان شيخهم مختار بن القاسم فلما بعث الحاكم يحيى بن علي الأندلسي يخرج فلفول بن سعيد بن خزرون بطرابلس على صنهاجة ساروا معه إلى طرابلس وجرت الهزيمة عليه ورجعوا إلى برقة.

فتنكر لهم الحاكم فامتنعوا عليه فبعث لهم بالأمان فقدم وفدهم إلى الإسكندرية فقتلهم عن آخرهم سنة أربع وتسعين.

وكان عندهم معلم القرآن واسمه الوليد بن هشام ينسب إلى المغيرة بن عبد الرحمن من بني أمية وكان يزعم أن له أثارة من علم ويخبر بأنه سيملك ما ملكه آباؤه وكان يقال له أبو ركوة.

فدعاهم إلى نفسه فبايعوه وتلقب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله.

ثم بعث إلى لواتة ومزانة وزناتة فاستجابوا له ورحل إلى برقة والناس يباركونه في كل يوم فيسلمون عليه بالخلافة ويقبلون له الأرض فيجلس في وسطهم ويقول: أنا واحد منكم وما أريد شيئا من هذه الدنيا: ولا أطلبها إلا لكم وليس معي مال أعطيكم وإنما لي عليكم طاعة وإن نصرتموني نصرتم أنفسكم وإن قاتلتم معي أخذتم حقكم بأيديكم فيقولون له: يا أمير

المؤمنين نحن فلم يزل معهم يطوف قرى برقة ويأخذ البيعة إلى أن عظم أمره وهو فيما بين الإسكندرية وبرقة.

فبعث إليه الحاكم جيشا عليه ينال الطويل التركي في نصف شعبان سنة خمس وتسعين فواقعه أبو ركوة وقتله ومعظم عسكره وظفر من الأموال والخيل والسلاح والنعم الجليلة بما قوى به واشتد بأسه.

وكان في ظهور أبي ركوة طلع كوكب الذؤابة فكان يضئ كالقمر وله بريق ولمعان ويقوى ويكثر نوره وأمر أبي ركوة يشتد ويعظم.

فأقام هذا الكوكب شهورا ثم اضمحل نوره وضعف لمعانه وأخذ أمر أبي ركوة ينقص ويضعف إلى أن أخذ أسيراً فغاب الكوكب ولم ير بعد ذلك فكان شأن هذا الكوكب في دلالته على أبي ركوة من أعجب العجب.

وابتدأ الحاكم في تجريد العساكر شيئا بعد شيء ونزل أبو ركوة بعد ظفره على برقة فحاصرها وصندل الحاكم أميرها يقاتله حتى اشتد الحصار ومنع أهل برقة من الميرة ففر صندل ومعه شيوخ البلد إلى الحاكم وحثه على بعث الجيوش وأعلمه بقوة أبي ركوة واستفحال أمره.

ودخل أبو ركوة إلى مدينة برقة واستخرج الأموال وأقطع بني قرة أعمال مصر مثل دمياط وتنيس والمحلة وغيرها وكتب خطه بذلك وأقطع دور القواد والأكابر التي بالقاهرة ومصر وجدد البيعة لنفسه.

فندب الحاكم لقتاله القائد أبا الفتوح فضل بن صالح في ربيع الأول سنة ست وتسعين وأتبعه بالعساكر فاجتمعت بالإسكندرية وسار بها فلقيه أبو ركوة بذات الحمام.

وكانت بينهما حروب آلت إلى هزيمة العسكر والاحتواء على ما فيه من مال وسلاح فعظم شأن أبي ركوة.

ووردت الجند على الحاكم بذلك للنصف من رمضان فكان من تدبير الحاكم أن دعا بوجوه رجاله وقواده فأمرهم أن يكاتبوا أبا ركوة ويعرفوه أنهم على مذهبه ورأيه وانه إن توجه إليهم وقرب منهم صاروا في جملته وقاتلوا معه وذكروا ما يقاسونه من قتل وجوههم وأكابرهم وأنهم لا يأمنون في ليلهم ولا نهارهم مع ما يسمعونه من انتقاص الشرف ونحو هذا.

فكتبوا بذلك وأنفذوا إليه عدة كتب من كل واحد منهم كتابا مع رسوله.

فلما تواتر ذلك عليه وثق به ولم يشك فيه وحشد جموعه ووعدهم بأموال مصر ونعمها وسار.

فخلع الحاكم على أبي الحسن علي بن فلاح وسيره إلى ضبط بركة الحبش في عسكر فأقام بها أياما ثم عدى إلى الجيزة وتلاحقت به العساكر براً وبحراً.

واضطربت الأسعار بمصر وعدم الخبز وبيع مبلولاً ستة أرطال بدرهم وكان يباع عشرة أرطال بدرهم وأنفق في العساكر المتوجهة لكل واحد أربعةً وعشرين دينارا.

وكوتب على بن صفوح بن دغفل بن الجراح الطائي فحضر في سابع عشر شوال وخلع عليه وتزايد سعر الدقيق والخبز وروايا الماء وازدحم الناس عليها.

وخلع على القائد فضل بن صالح ثوب ديباج مثقل طميم أحمر ومنديل ذهب وقلد بسيف وحمل على فرس بمركب ذهب وبين يديه تسعة من الخيل وثلاثون بندا مذهبة وأربعة عشر سفطا فيها أنواع الثياب.

وسار إلى الجيزة وأكمل لكل واحد من العساكر السائرة خمسون دينارا.

ونزلت إليه خزانة السلاح.

وورد الخبر بنهب الفيوم فجهزت إليها سرية فأوقعوا بأصحاب أبي ركوة وبعثوا إلى القاهرة بعدة رؤوس طيف بها.

وسار القائد فضل من الجيزة في رابع ذي القعدة والغلاء بالعسكر فبيعت الويبة من الشعير بخمسة دراهم والخبز ثلاثة أرطال بدرهم.

وأقام على بن فلاح في مضاربه بالجيزة وحمل إليه خيمة وخمسة أفراس بمراكبها وسيف وألفا دينار وثلاثون ثوبا فأنفق في أصحابه.

فلما كان في ثامن عشر ذي القعدة وقع في الناس خوف في الليل وضجيج فنزلت العساكر طائفة بعد طائفة والناس جلوس في الشوارع وعلى أبواب الدور ليلهم كله يبتهلون بالدعاء بالنصر فلحقت هذه العساكر بابن فلاح وهو بالجيزة فسير عسكراً إلى الفيوم وأقام على خوف ووجل.

فبلغ أبا ركوة إقامة علي بن فلاح بالجيزة فأسرع إليه وكبس عسكره ونهب سواده وأخذت خزائن السلاح ووقع القتال الشديد فقتل خلق كثير من أصحابه وجرح خلق لا يحصى.

ولما نزلت خزائن السلاح من عند الحاكم مع قائد القواد وعظم البكاء والضجيج على شاطىء النيل لكثرة القتلى في العسكر منع ابن فلاح من حمل الموتى إلى مصر وأمر بدفنهم في الجيزة.

وافتقد كثير من العسكر فلم يعلم لهم خبر ولم يسلم من العسكر إلا القليل فغلقت الأسواق وجلس الناس بالشوارع غما لما جرى على العسكر وتزايد البكاء من الناس على فقد آبائهم ومعارفهم.

وباتوا وأصبحوا يوم السبت العشرين منه فورد الخبر بدخول أبي ركوة في جموعه إلى الفيوم وسار فضل بن صالح لقتاله فالتقى معه في ثالث ذي الحجة وحاربه فكانت وقعة عظيمة قتل فيها ما لا يحصى كثرة.

وانهزم أبو ركوة واستأمن بنو كلاب وغيرهم من العرب.

فسارت العساكر في طلب أبي ركوة وحضرت الرؤوس من الفيوم ومعها الأسرى وهي تجاوز ستة آلاف ومائة أسير فطيف بها بالبلد وقتل الأسرى بالسيوف بع ما لحقهم أنواع البلاء بيد العامة يصفعون أقفيتهم وينتفون لحاهم ويضربونهم حتى تفتحت أكتاف كثير منهم فكان أمراً مهولاً.

وتواتر مجيء من أخذ من عسكر أبي ركوة فجيء بخلق كثير وعدة رؤوس.

ودخل ابن فلاح من الجيزة فخلع عليه.

واستمر القائد فضل في طلب أبي ركوة هو يبعث بمن قبض عليه من الرجال وبرؤوس من يقتلهم شيئاً بعد شيء.

وعاد علي بن الجراح من عند القائد فضل فخلع عليه.

وفي الثاني من جمادى الآخرة سنة سبع وتسعين ورد الخبر من القائد الفضل بن صالح بحصول أبي ركوة ووقوعه في يده فابتهج الناس لذلك وخلع على قائد القواد وعلى أولاده وعلى البدوي الذي خرج في طلب أبي ركوة حتى أدركه ببلد النوبة وعلى أبي القاسم علي بن القائد فضل وعلى ابنه.

وذلك أن أبا ركوة دخل بعد هزيمته إلى بلد النوبة فتبعه القائد فضل وبعث إلى ملك النوبة بالقبض على أبي ركوة وسير إليه عسكراً مع الكتاب.

فلما بلغوا أطراف النوبة وجدوا أبا ركوة قد اختفى بدير هناك وله فيه أربعة عشر يوماً فدلهم عليه رجل من العرب فقبضوا عليه في ربيع الأول منها وأتوا به إلى القائد فضل.

فسار به إلى مصر ونزل بركة الحبش يوم الجمعة للنصف من جمادى الآخرة فخرج إليه قائد القواد بسائر رجال الدولة وسلم عليه وأبو ركوة في مضرب ومعه القائد فضل فأقام هناك إلى بكرة يوم الأحد سابع عشره

فصار من بركة الحبش بعساكره وأبو ركوة على حمل فوق سرير وعليه ثوب مشهر وفوق رأسه طرطور طويل ومعه رجل يمسكه.

وذلك أنه لما ألبس الطرطور صاح: يا فضل يا أبا الفتوح ما كذا ضمنت لي.

فصفع صفعة منكرة وأمسك يديه هذا القائد خلفه وقد اجتمع الناس من كل جهة فكان جمعا لم ير مثله كثرة وأوجرت الدور والحوانيت بحمله وبات الناس على الطرقات حتى وصل به إلى القصر فأوقف ساعة على باب القصر وهو يشير بأصبعه ويطلب العفو والصفع في قفاه ويقال له قبل الأرض فيقبل ثم سير به إلى مسجد تبر.

فلما خرج من باب القاهرة أشار إلى الناس يرجمونه بالحجر والاجر ويصفعونه وينتفون لحيته حتى عاين الموت مرارا إلى أن بلغ مسجد تبر فضرب عنقه وصلب جسده وحل رأسه إلى الحاكم فخلع على القائد فضل وغيره من القواد والعرفاء الذين كانوا معه وخلع على قائد القواد.

فكان يوماً عظيما مهولاً لكثرة اجتماع الناس.

وأقاموا ليلتين في الحوانيت والشوارع وعلى أبواب الدور يظهرون المسرة والفرح.

وأظهر أبو ركوة في مواقف الألم صبرا وتجلدا وكان لا يخاطب القائد الفضل إلا باسمه أو بكنيته.

ولما أقام في بركة الحبش وخرج الناس ورأوه كان يسأل من يلقاه عن اسمه وكان يتلو القرآن ويترحم على السلف.

وكان شاباً أسمر تعلوه حمرة مستن الوجه طويل الجبهة أشهل بزرقة أقنى صغير اللحية أصهب إلى الشقرة ظاهر القلوب تبين فيه الجد لا يكاد يتجاوز ثلاثين سنة يوم قتل.

ويقال إنه ولد رجل من موالي بني أمية.

ولما قتل أبو ركوة نفذت الكتب إلى الأعمال كلها بخبر الفتح.

فلما كان في رجب ورد شيوخ كل ناحية وقضاتها وقضاة الشام وشيوخه لتهنئة الحاكم بالظفر وأخذ أبي ركوة.

وقدم أبو الفتوح حسن بن جعفر الحسني أمير مكة في شعبان لتهنئته فخلع عليه وأكرمه وأنزل بدار برجوان.

وفيه أرجف الناس بأن القائد فضل بن صالح ينظر في أمور الدولة وتدبيرها بدل قائد القواد حسين بن جوهر وكان بينهما في الباطن تباعد من جهة الرتبة والحسد عليها: وكان القائد فضل قد تفاقم وعظم تيهه وترفعه على قائد القواد في قوله وفعله: قال المسبحي: قال لي الحاكم بأمر الله وقد جرى حديث أبي ركوة: ما أردت قتله ولكن جرى في أمره ما لم يكن عن اختياري فقلت له: يا أمير المؤمنين ما قصر عبدك الفضل بن صالح في خدمته قال: وإيش تظن أن فضل أخذ قلت: نعم يا أمير المؤمنين هذا قول الناس.

فقال: والله العظيم ما أفلح فضل في حركته تلك ولا أنجح ميزاننا.

أنفقنا ألف ألف دينار ذهبا صناعا وإنما أخذه ملك النوبة وأنفذ به إلي.

فقلت صدقت يا أمير المؤمنين وعلمت أن هذا مما قرر قائد القواد الحسين بن جوهر في نفسه ليبطل فعل فضل وخدمته فاستقر.

وأما خبر القاهرة فإنه جرى الأمر في يوم عاشوراء على العادة من تعطيل الأسواق وخروج المنشدين والناحة إلى جامع القاهرة فتظاهروا فيه بسب السلف فقبض على رجل ونودي عليه: هذا جزاء من سب عائشة وزوجها وضربت عنقه.

وتقدم الأمر إلى أصحاب الشرطة ألا يتعرض أحد لسب السلف ومن فعل ذلك قبض عليه فانكف الرعاع عن السب والتعرض للحاج.

وللنصف من صفر وردت قافلة الحاج.

وفي نصف ربيع الأول جمع الحاكم نحو ألفي باقة نرجس وأتحف بها الأولياء.

واستهل رجب بيوم الأربعاء فخرج أمر الحاكم إلى أصحاب الدواوين بأن يؤرخوه بيوم الثلاثاء.

وفيه هبت ريح عاصفة ثم أرعدت ونزل المطر وفيه برد كهيئة الصفائح إذا سقط إلى الأرض تكسر فكان فيه ما يبلغ وزنه زيادة على أوقيتين وفيه ما هو قدر البيضة فغطى الأرض وأقام الناس أياما يتبعونه في الأسواق.

ولم يعهد مثل ذلك بمصر.

وجرى الرسم في شهر رمضان كل ليلة على العادة وصلى الحاكم فيه بالناس صلاة الجمعة وخطب ثلاث مرات.

وصلى يوم عيد الفطر بالناس وخطب بالمصلى على عادته.

وللنصف من ذي القعدة سارت قافلة الحاج بكسوة الكعبة وصلات الأشراف وغيرها على ما جرى به الرسم.

وفتح الخليج في السابع والعشرين من مسرى والماء على خمس عشرة ذراعاً وأصابع فلم يركب الحاكم لفتحه ولم يوف ست عشرة ذراعاً إلى ثامن توت فخلع على ابن أبي الرداد وحمل.

واجتمع الناس الذين جرت عادتهم بحضور القصر لسماع ما يقرأ من كتب مجالس الدعوة فضربوا بأجمعهم ولم يقرأ عليهم شيء.

وفيها رجل بنو قرة من البحيرة بأرض مصر إلى ناحية من عمل برقة مع كبيرهم مختار بن قاسم.

سنة سبع وتسعين وثلثمائة

في شهر ربيع الأول تزايد أمر الدراهم القطع المتزايدة فبلغت أربعة وثلاثين درهما بدينار ونزع السعر واضطربت أمور الناس.

فرفعت هذه الدراهم وأنزل من بيت المال بعشرين صندوقا فيها الدراهم الجدد لتفرق على الصيارفة.

وقرئ سجل يرفع تلك الدراهم والمنع من المعاملة بها وأنظر من في يده منها شيء ثلاثة أيام وأمر الناس بحمل ما كان مها إلى دار الضرب فقلق الناس وبلغ كل درهم من الجدد أربعة دراهم من القطع.

وبيع الخبز كل ثلاثة أرطال بدرهم فنودي أن يكون الخبز كل اثني عشر رطلا بدرهم جديد واللحم رطلين بدرهم وسعر أكثر الأشياء واستقر كل دينار بثمانين درهماً من الجدد.

وسكن أمر الناس بعد ما ضرب كثير من الباعة بالسياط وشهروا.

وقبض على جماعة من أصحاب الفقاع والسماكين وكبست الحمامات وضرب جماعة لمخالفتهم ما نهو عنه وشهروا.

وفي تاسع ربيع الآخر أمر الحاكم بمحو ما هو مكتوب على المساجد والأبواب وغيرها من سب السلف فمحي بأسره وطاف متولي الشرطة حتى أزال سائر ما كان منه.

وقرئ سجل بترك الخوض فيما لا يعنى واشتغال كل أحد بمعيشته عن الخوض في أعمال أمير المؤمنين وأوامره.

وجرى الأمر في الفطر على السماط ليالي رمضان وفي صلاة الحاكم بالناس يوم الجمعة على ما تقدم.

وركب الحاكم لفتح الخليج في ذي القعدة والماء على أربعة عشر ذراعا وأصابع وهو تاسع توت فانتهى بعد فتح الخليج ماء النيل إلى ستة عشر أصبعا من خمسة عشر ذراعا ثم نقص فتحرك السعر وازدحم الناس على شراء الغلال وابتدأت الشدة.

وفيها مات يعقوب بن نسطاس النصراني طبيب الحاكم سكران في بركة ماء فحمل إلى الكنيسة في تابوت وشق به البلد ثم أعيد إلى داره فدفن بها وسائر أهل الدولة في جنازته ومعه شموع كثيرة تتقد ومداخن عدة فيها بخور.

وكان طبيب وقته عارفا بالطب آية في الحفظ ما يغنى له قط صوت إلا حفظه.

ولو غناه مائة مغن في مجلس واحد لحفظ سائر ما غنوه به وتكلم على ألحانها وأشعارها.

وكانت له يد في الموسيقا وانفرد بخدمة الحاكم في الطب فأثرى وترك زيادة على عشرين ألف دينار عينا سوى الثياب وغيرها.

وتوفى الأمير منجوتكين لأربع خلون من ذي الحجة فصلى عليه الحاكم.

سنة ثمان وتسعين وثلثمائة

في المحرم ابتدأ نقص ماء النيل من ثامن عشر توت فاشتد الأمر وبيع الخبز مبلولا وضرب جماعة من الخبازين وشهروا لتعذر وجود الخبز بالعشايا.

ووصل الحاج لثمان بقين من صفر.

وفي ربيع الأول خلع على علي بن جعفر بن فلاح بولاية دمشق حربا وخراجا.

واشتد الغلاء.

فلما كان ليلة عيد الشعانين منع النصارى من تزيين كنائسهم على ما هي عادتهم وقبض على جماعة منهم في رجب وأمر باحضار ما هو معلق على الكنائس وإثباته في دواوين السلطان وكتب إلى سائر الأعمال بذلك.

وأحرق صلبان كثيرة على باب الجامع وفي وفي يوم الجمعة سادس عشر رجب ولي مالك بن سعيد الفارقي القضاء وخلع عليه في بيت المال قميص مصمت وعمامة مذهبة وطيلسان محشى مذهب وقلد بسيف.

وقرأ سجله أحمد بن عبد السميع وهو قائم فخرج وبين يديه سفط ثياب وحمل على بغلة وبين يديه بغلتان وكان مالك بن سعيد لما قرئ سجله قائماً على قدميه وكلما مر ذكر أمير المؤمنين قبل الأرض.

ثم سار من القصر إلى الجامع العتيق وكلما مر بباب من أبواب القصر نزل عن بغلته وقبل الباب.

فلما وصل إلى الجامع وقف خلف المنبر قائما حتى انتهت قراءة السجل وقبل الأرض كلما ذكر أمير المؤمنين.

ثم عاد إلى داره بالقاهرة وتسلم كتب الدعوة التي تقرأ بالقصر على الأولياء.

وفي يوم الجمعة سابع شعبان اجتمع أهل الدولة في القصر بعد ما طلبوا لذلك وأمروا ألا يقام لأحد فخرج خادم وأسر إلى صاحب الستر كلاما فصاح: صالح بن علي فقام صالح بن علي الروزباري فأخذ بيده ولا يعلم أحد ما يراد به.

فأدخل إلى بيت المال ثم خرج وعليه دراعة مصمتة وعمامة مذهبة ومعه مسعود صاحب الستر فجلس بحضرة قائد القواد وأخرج سجلا قرأه ابن عبد السميع فإذا فيه رد سائر الأمور التي ينظر فيها قائد القواد حسين بن جوهر إليه.

فعندما سمع في السجل صالح ذكر قام وقبل الأرض.

ولما انتهى ابن عبد السميع من القراءة قام قائد القواد وقبل خد صالح وهنأه وانصرف.

فخرج صالح وبين يديه عدة أسفاط وثلاث بغلات بسروجها ولجمها.

قال المسبحي: قال لي الحاكم بأمر الله أحضرت ابن سورين وحلفته على الإنجيل أن يكتب سجل صالح بن علي ولا يطلع عليه أحدا من ابن جوهر ولا غيره وقلت له إنك تعرف ما أجازي به من يخالف أمري فكن منه على يقين.

فوالله ما اطلع عليه أحد غيري وغيره حتى كان.

وجلس صالح في مجلس قائد القواد من القصر ووقع عن الحاكم: ورفع إليه الأولياء وسائر المتصرفين قصصهم وأحوالهم ونفذ أوامر الحاكم وطالع بما تجب مطالعته به.

وقلد ديوان الشام الذي كان يتولاه لأبي عبد الله الموصلي الكاتب.

وخلع علي الشريف أبي الحسن علي بن إبراهيم النرسي لنقابة الطالبيين وحمل على فرسين وقرئ سجله في القصر والجامع.

وخلع على صقر اليهودي وحمل على بغلة وقيد إليه ثلاث بغلات بسروج ولجم ثقال وحمل معه عشرون سفط ثياب وأنزل في دار فرشت وزينت وعلق على أبوابها وحجرها الستور وأعطى فيها جميع ما يحتاج إليه وقيل له هذه دارك فحصل له في ساعة واحدة ما قيمته عشرة آلاف دينار.

واستقر طبيب الحاكم عوضا عن ابن نسطاس.

وورد الخبر بأن ابن الجراح فر بعد قتل جماعة من أصحابه.

وخلع على ياروخ وسار إلى دمشق وتبعه عسكر كثير.

واستهل رمضان فحضر الأسماط مع الحاكم القائد صالح قائد القواد والقاضي مالك بن سعيد وجلس فوق القاضي عبد العزيز بن النعمان.

وقد صلى الحاكم بالناس صلاة الجمعة في جامع راشدة وصلى صلاة عيد الفطر وخطب على ما جرت عادته به وأصعد معه المنبر وقت الخطبة قائد القواد صالح بن علي ومالك بن سعيد القاضي والشريف النرسي وجماعة.

وفي ثالث شوال أمر الحاكم قائد القواد السابق حسين بن جوهر والقاضي عبد العزيز بن النعمان بأن يلزما داريهما ومنعا من الركوب وسائر أولادهما فلبسوا الصوف وامتنع الداخل إليهم وجلسوا على الحصر.

وفي ذي القعدة ولي غالب بن مالك الشرطتين والحسبة والنظر في البلد وقرئ سجله بالجامع العتيق وجامع ابن طولون وصرف خود ومسعود.

وفي ثالث عشرة سارت قافلة الحاج.

وفي تاسع عشره عفا الحاكم عن قائد القواد والقاضي عبد العزيز وأذن لهما في الركوب فركبا إلى القصر بزيهما من غير حلق شعر ولا تغيير حال.

وتوقفت زيادة النيل فاستسقى الناس وخرجوا معهم النساء والصبيان مرتين.

وقرئ سجل بإبطال المكوس والمؤن التي تؤخذ من المسافرين عن الغلال والأرز.

وبيع الخبز ثلاثة أرطال بدرهم.

وتعذر وجوده.

وجرى الرسم في عيد الغدير على عادته.

واشتد تكالب الناس على الخبز فاجتمعوا وضجوا من قلته وسواده ورفعوا للحاكم قصة مع رغيفة وكانت الحملة الدقيق قد بلغت ستة دنانير.

وفتح الخليج في رابع توت والماء على خمسة عشر ذراعا فبلغ التليس أربعة دنانير والويبة من الأرز بدينار واللحم كل رطلين بدرهم ولحم البقر رطلين ونصفا بدرهم والبصل عشرة أرطال بدرهم والخبز ثمان أواق بدرهم وزيت الوقود الرطل بدرهم.

وفيها خرج النصارى من مصر إلى القدس لحضور الفصح بقمامة على عادتهم في كل سنة بتجمل عظيم كما يخرج المسلمون إلى الحج فسأل الحاكم ختكين الضيف العضدي أحد قواده عن ذلك لمعرفته بأمر قمامة فقال هذه بيعة تعظمها النصارى ويحج إليها من جميع البلاد وتأتيها الملوك وتحمل إليها الأموال العظيمة والثياب والستور والفرش والقناديل والصلبان المصوغة من الذهب والفضة والأواني من ذلك وبها من ذلك شيء عظيم.

فإذا كان يوم الفصح واجتمع النصارى بقمامة ونصبت الصلبان وعلقت القناديل في المذبح تحيلوا في إيصال النار إليه بدهن البيلسان مع دهن الزئبق فيحدث له ضياء ساطع يظن من يراه أنها نار نزلت من السماء.

فأنكر الحاكم ذلك وتقدم إلى بشر بن سورين كاتب الإنشاء فكتب إلى أحمد بن يعقوب الداعي أن يقصد القدس ويهدم قمامة وينهبها الناس حتى يعفى أثرها ففعل ذلك.

ثم أمر بهدم ما في أعمال مملكته من البيع والكنائس فخوف أن تهدم النصارى ما في بلادها من مساجد المسلمين فأمسك عن ذلك.

سنة تسع وتسعين وثلثمائة

في ثالث المحرم نظر أبو نصر بن عبدون الكاتب النصراني في ديوان الخراج بانفراده من غير شريك.

وفي تاسعه وهو نصف توت أشيع وفاء النيل وخلع على ابن أبي الرداد فابتدأ في النقص قبل أن يوفى ستة عشر ذراعا من تاسع عشر توت فأمر

الناس كافةً بألا يتظاهر أحد منهم على شاطىء النيل بشيء من الغناء ولا يسمع في دار ولا يشرب في المراكب.

وكبست عدة دور وقبض على جماعة.

وقدم الحاج في حادي عشري صفر.

ونودي ألا يدخل أحد الحمام إلا بمئزر ولا يمشي اليهود والنصارى إلا بالغيار وضربوا على ترك ذلك.

وكسبت الحمامات وأخذ منها جماعة وشهروا من أجل أنهم وجدوا بغير مئزر.

ومنع أن يدخل أحد إلى سوق الرقيق إلا أن يكون بائعا أو مشتريا وأفرد الجواري من الغلمان وجعل لكل منهم يوم.

ومنع من نصب الشراعات التي كانت النساء تنصبها في المقابر أيام الزيارة.

وأشيع بين الناس بأن النبيذ يمنع من بيعه فازدحموا على شرائه وبيع منه شيء كثير فعز حتى بيع كل عشر جرار بدينار ولم يوجد لكثرة طلابه.

ومنع كل أحد من الناس أن يخرج من منزله قبل صلاة الصبح وبعد صلاة العشاء واشتد الأمر في هذا واعتقل جماعة خالفوا ما أمر به.

وقرئ سجل بترك الخوض فيما لا عيني والاشتغال بالصلوات في أوقاتها والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وألا يخوض أحد في أحوال السلطان وأوامره وأسرار الملك.

وقرئ سجل في ربيع الأول بالمنع من حمل النبيذ والموز وحذر من التظاهر بشيء منه أو من الفقاع والدلينس والسمك الذي لا قشر له والترمس المعفن.

وقرئ آخر في سائر الجوامع بتسكين قلوب الناس وتطمينهم لكثرة ما اشتهر عندهم وداخلهم من الخوف بما يجري من أوامر الحضرة في البلد.

وفي حادي عشر جمادى الآخرة قبض على عبد العزيز بن النعمان وطلب حسين بن جوهر ففر هو وابناه وجماعة.

وكثر الصياح في دار عبد العزيز وغلقت حوانيت القاهرة وأسواقها.

فأفرج عن عبد العزيز ونودي في القاهرة بألا يغلق أحد.

ثم رد حسين بعد ثلاثة أيام بابنيه وصاروا إلى الحاكم فأمرهم بالانصراف إلى دورهم وخلع عليه وعلى عبد العزيز وعلى أولادهما وكتب لهما أمانان.

وفي رجب كثرت الأمراض في الناس وفشا الموت.

وتخوف الناس من الحاكم فكتب عدة أمانات لأناس شتى.

وأقطع مالك بن سعيد ناحية برنشت.

وفي شعبان تراخت الأسعار.

وفي رمضان قرئ سجل فيه يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون ولا يعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ويفطرون وصلاة الخمسين للذين بما جاءهم فيها يصلون وصلاة الضحى وصلاة التراويح لا مانع لهم منها ولاهم عنها يدفعون ويخمس في التكبير على الجنائز المخمسون ولا يمنع من التربيع عليها المربعون يؤذن بحي على خير العمل المؤذنون ولا يؤذى من بها لا يؤذنون لا يسب أحد من السلف ولا يحتسب على الواصف فيهم بما يصف والحالف منهم بما حلف لكل مسلم مجتهد في دينه اجتهاد.

وفيه ركب سائر العرائف والأولياء وأكثر أهل البلد إلى القصر وقد عظمت الزحمة واصطفت العساكر حول القصر بالسلاح ولم يعرف أحد ما هذا الاجتماع فخرج صالح ابن علي بالخلع على فرس بسرج ولجام ذهب وبين يديه فرسان وسفط ثياب وسجل يتضمن أنه لقب بثقة ثقات السيف والقلم.

وأعيد عبد العزيز بن النعمان إلى النظر في المظالم.

وتزايدت الأمراض وكثر موت الناس وعزت الأدوية فبلغ السكر أربعة دراهم للرطل وبذر الرمان كل أوقية بدرهم ودهن البنفسج كل أوقية بدينار والعناب والإجاص كل أوقيتين بدرهم وباقة لينوفر بدينار والبطيخة بثلاثة دنانير.

ولم يركب الحاكم لصلاة عيد الفطر وصلى القاضي مالك بن سعيد بالناس في المصلى وخطب.

وفي ذي القعدة أعيدت المكوس التي كانت رفعت.

وسارت قافلة الحاج في النصف منه.

وحمل سماط عيد النحر يوم التاسع من ذي الحجة على عادته غير أنه أبطل منه الملاهي والخيال واللعب الذي كان يعمل في كل سنة.

وصلى القاضي بالناس صلاة عيد النحر وخطب.

وفي يوم عيد الغدير منع الناس من عمله.

ودرست كنائس كانت بطريق المكس وكنيسة بحارة الروم من القاهرة ونهب ما فيها.

وقتل في هذه الليلة كثير من الخدم والصقالبة والكتاب بعد أن قطعت أيديهم بالساطور على خشبة من وسط الذراع.

وفيها مات أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس المنجم لثلاث خلون من جمادى الأولى وقتل القائد فضل بن صالح ضربت رقبته لتسع بقين من ذي القعدة.

وقتل أبو أسامة جنادة أسامة بن محمد اللغوي لثلاث عشرة خلت من ذي الحجة ومعه الحسن بن سليمان الأنطاكي النحوي واستتر عبد الغني بن سعيد وكان ذلك بسبب اجتماعهم بدار العلم وجلوسهم فيها.

وقتل رجاء بن أبي الحسين من أجل أنه صلى صلاة التراويح في شهر رمضان.

وقتل أصحاب الأخبار عن آخرهم لكثرة أذيتهم الناس بالكذب عليهم وأخذهم الأموال من الناس.

وفيها قتل أبو علي بن ثمال الخفاجي متولي الرحبة من قبل الحاكم وملكها بعده صالح بن مرداس الكلابي متملك حلب.

في حادي عشر صفر صرف أبو الفضل صالح بن علي الروزباري ثقة ثقات السيف والقلم وقرر مكانه أبو نصر بن عبدون الكاتب النصراني فوقع من الحاكم فيما كان يوقع فيه صالح ونظر فيما كان ينظر فيه وأذن لصالح في الركوب إلى القصر.

وسار ابن عبدون في الموكب مع الشيوخ في المنتهى وقال مثلي لا يساير أمير المؤمنين بأعلى من ذلك.

وكتب من إنشاء ابن سورين لخدم قمامة بالقدس.

وأحدث الحاكم ديوانا سماه الديوان المفرد برسم من يقبض ماله من المقتولين وغيرهم.

ووصل الحاج في حادي عشر منه.

وفي ربيع الأول كثرت الأمراض والموت وعزت الأدوية المطلوبة للمرضى.

وشهر جماعة وجد عندهم فقاع وملوخية وترمس ودلينس بعد ضربهم.

وهدم دير القصير ونهب.

ولقب ابن عبدون بالقاضي وكتب له سجل بذلك وحمل على بغلتين.

واشتد الأمر على اليهود والنصارى في إلزامهم لبس الغيار.

ورد إقطاع حسين بن جوهر إليه وإلى أولاده وصهره عبد العزيز بن النعمان وقرئ لهم بذلك وصلى القاضي بالناس صلاة عيد الفطر على الرسم.

وقرئ سجل بإبطال ما كان يؤخذ على أيدي القضاة من الخمس والفطرة والنجوى.

في تاسع ذي القعدة فر حسين بن جوهر وأولاده وصهره عبد العزيز بن النعمان وأولاده بجماعة منهم في أموال وسلاح وخرجوا ليلاً فلما أصبحوا سير الحاكم خيلا في طلبهم نحو وجرة فلم يدركوهم.

وأحيط بدورهم فأخذت للديون المفرد.

وفر أبو القاسم الحسين بن المغربي في زي حمال إلى حسان بن علي بن مفرج بن دغفل بن الجراح.

وفيه قرىء عدة أمانات بالقصر للكتاميين من جند إفريقية والأتراك والقضاة والشهود وسائر الأولياء والأمناء والرعية والكتاب والأطباء والخدام السود والخدام الصقالبة لكل طائفة أمان.

وحمل سائر ما في دور حسين بن جوهر وعبد العزيز بن النعمان إلى القصر بعد أن احصاه القاضي ملك بن سعيد وضبطه.

وقرئ سجل بقطع مجالس الحكمة التي كانت تقرأ على الأولياء في يومي الخميس والجمعة.

وقرئ سجل في الجامع العتيق بإقبال الناس على شأنهم وتركهم الخوض فيما لا يعنيهم وسجل آخر برد التثويب في الأذان والإذن للناس في صلاة الضحى وصلاة القنوت.

ثم جمع في سائر الجوامع وقرئ عليهم سجل بأن يتركوا الأذان بحي على خير العمل ويزاد في أذان الفجر: الصلاة خير من النوم وأن يكون ذلك من

مؤذني القصر عند قولهم: السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله فامتثل الناس وعمل.

وسار محمد بن نزال بعسكر إلى الشام.

وقرئ سجل مندد فيه بشرب النبيذ وجميع أنواع المسكر.

وصلى الحاكم بالناس في المصلى صلاة عيد النحر وخطب ونحر وحضر السماط على رسمه.

وقرئت عدة أمانات بالقصر.

وفيه سارت العساكر بعدة مواضع تطلب قائد القواد حسين بن جوهر وصهره عبد العزيز وشاع الخبر بأنه عند بني قرة.

وقرئ سجل في الجوامع بالرخصة فيما كان يشدد فيه في الجمعة الماضية من أمر النبيذ.

وقتل في هذه السنة عدة كثيرة من الخدام والفراشين والكتاب وغيرهم.

ومات أبو منصور بشر بن عبيد الله بن سورين كاتب السجلات في صفر.

وتوفي صقر اليهودي طبيب الحاكم في ربيع الآخر.

وتوفي أبو عبد الله اليمنى المؤرخ وله تاريخ النحاة وسيرة جوهر القائد.

وقتل أبو الفضل صالح بن علي الروزباري ليلة الثاني عشر من شوال.

وقتل غالب بن هلال متولي الشرطتين والحسبة في شوال.

سنة احدى وأربعمائة

في رابع المحرم صرف ابن عبدون النصراني وخلع على أحمد بن محمد القشوري الكاتب وقرئ سجله في القصر بأنه تقلد الوساطة والسفارة بين أولياء أمير المؤمنين الحاكم وبينه وأمر الرعايا وفوضت له الأمور وعول عليه فيها.

وكان سبب صرف ابن عبدون عن الوساطة والسفارة أن كتب الحاكم تكررت إلى قائد القواد حسين بن جوهر وإلى صهره عبد العزيز بن النعمان بأمانهم وعودهم فأبى ابن جوهر أن يدخل وابن عبدون واسطة وقال: أنا أحسنت إليه نظري فسعى فيّ إلى أمير المؤمنين ونال مني كل منال لا أعود أبدا وهو وزير.

فصرف لذلك وحضر حسين وعبد العزيز ومن خرج معهما فنزل سائر أهل الدولة إلى لقائه وتلقته الخلع وأفيضت عليه وعلى أولاده وصهره عبد العزيز وقيد بين أيديهم الدواب.

فعندما وصلوا إلى باب القاهرة ترجلوا ومشوا ومشى معهم سائر الناس إلى القصر فمثلوا بحضرة الحاكم ثم خرجوا وقد عفى عنهم.

وأذن للحسين أن يكاتب بقائد القواد ويكون اسمه تالياً للقبه وأن يخاطب بذلك فانصرف إلى داره فكان يوما عظيما.

وحمل إليه جميع ما قبض له من مال وغيره وأنعم عليه.

وواصل هو وعبد العزيز الركوب إلى القصر.

وكتب لابن عبدون أمان خطه الحاكم بيده وكان يقول عنه: ما خدمني أحد ولا بلغ في خدمته ما بلغه ابن عبدون.

ولقد جمع لي من الأموال ما هو خارج في أموال الدواوين ثلثمائة ألف دينار.

وأقام ابن القشوري على رسمه ينظر عشرة أيام إلى ثالث عشره فبينا هو يوقع إذ قبض عليه وضربت رقبته من أجل أنه بلغ الحاكم عنه أنه يبالغ في تعظيم حسين بن جوهر وأكثر من السؤال في حوائجه.

وفي يومه أجلس أبو الخير بن زرعة بن عيسى بن نسطورس الكاتب النصراني في مكان ابن القشوري وأمر أن يوقع عن الحاكم في أوامره فجلس ونظر في الوساطة والسفارة بغير خلع.

ومنع من الركوب في المراكب بالخليج وسدت أبواب القاهرة التي مما يلي الخليج وأبواب الدور والطاقات المطلة عليه والخوخ.

وخلع على قاضي القضاة مالك وقلد النظر في المظالم مع القضاء وقرئ سجله بالجامع.

وكتب سجل بإعادة مجالس الحكمة.

وأخذ النحوي.

وشدد على النصارى في لبس الغيار بالعمائم الشديدة السواد دون ما عداها من الألوان.

وفيه قبض على حسين بن جوهر وعبد العزيز بن النعمان واعتقلا ثلاثة أيام ثم حلفا أنهما لا يغيبان عن الحضرة وأشهدا على أنفسهما بذلك وأفرج عنهما وحلف لهما الحاكم في أمان كتبه لهما.

واعتقل ابن عبدون وأمر بعمل حسابه ثم ضربت عنقه وقبض ماله.

وفي سابع عشر صفر وصل الحاج من غير زيارة المدينة النبوية فأمر أن يكون مسير الحاج للنصف من شوال وأن يبدءوا بزيارة المدينة وكتب بذلك إلى سائر الأعمال.

وفي سابع ربيع الآخر خلع على زرعة بن عيسى بن نسطورس وحمل وقرئ له سجل في القصر لقب فيه بالشافي.

وخلع على أبي القاسم علي بن أحمد الزيدي وقرئ له سجل بنقابة الطالبيين.

وقرئ سجل في سائر الجوامع فيه النهي عن معارضة الإمام فيما يفعله وترك الخوض فيما لا يعنى وأن يؤذن بحي على خير العمل ويترك من أذان الصبح قول: الصلاة خير من النوم والمنع من صلاة الضحى وصلاة التراويح وإعادة الدعوة والمجلس على الرسم.

فكان بين المنع من ذلك وضرب جماعة وشهروا لبيعهم الملوخية والسمك الذي لا قشر له.

وقبض على جماعة بسبب بيع النبيذ واعتقلوا وكبست مواضع ذلك.

ومنع النصارى من الغطاس فلم يتظاهروا على شاطىء البحر بما جرت عادتهم به.

وفي ثاني عشر جمادى الآخرة ركب حسين بن جوهر وعبد العزيز بن النعمان على رسمهما إلى القصر فلما خرج المتسلم قيل لحسين وعبد العزيز وأبي علي أخي الفضل أطيعوا لأمر تريده الحضرة منكم.

فجلس الثلاثة وانصرف الناس فقبض على ثلاثتهم وقتلوا في وقت واحد وأحيط بأموالهم وضياعهم ودورهم فوجد لحسين بن جوهر في جملة ما وجد سبعة آلاف مبطنة حريرا من سائر أنواع الديباج والعتابي وغيره وتسع متارد صيني مملؤة حب كافور قنصوري وزن الحبة الواحدة ثلاثة مثاقيل.

وأخذت الأمانات والسجلات التي كتبت لهم.

واستدعي أولاد حسين وأولاد عبد العزيز ووعدوا بالجميل وخلع عليهم وحملوا على دواب.

وفيه ذبحت نعجة فوجد في بطنها حمل وجهه كوجه إنسان.

وفي شعبان وقع قاضي القضاة مالك إلى سائر الشهود بخروج الأمر العالي المعظم أن يكون الصوم يوم الجمعة والعيد يوم الأحد.

واشتد الأمر في منع المسكرات وتتبع مواضعها.

وأبطلت عدة جهات من جهات المكوس والرسوم.

ومنع الغناء واللهو وأمر الاتباع مغنية وألا يجتمع الناس في الصحراء ومنع النساء من الحمام.

وأن يكون الخروج للحج في سابع شوال.

وركب الحاكم لصلاة العيد على رسمه.

وفي ثاني شوال سار على بن جعفر بن فلاح بالعساكر لقتال حسان بن علي بن مفرج بن دغفل بن الجراح عند هزيمته ياروخ وقبضه عليه وعلى أصحابه بالرملة فقاتلهم في ثالث عشره وقتل منهم وظهر عليهم وخلع طاعة الحاكم وأقام الدعوة لأبي الفتوح حسين بن جعفر بن محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الحسني أمير مكة.

وقتل ياروخ.

وفيه تأخر الحاج إلى نصف ذي القعدة فخرجوا في سابع عشره ورجعوا في ثالث عشريه من القلزم فلم يحج أحد من مصر في هذه السنة.

وصلى مالك بن سعيد بالناس صلاة عيد النحر وخطب ونحر في المصلى والملعب مدة أيام النحر.

ولم يركب الحاكم ولا نحر.

وفيها مات أبو الحسن علي بن ابراهيم النرسي نقيب الطالبيين في رابع ربيع الآخر وقد أناف على السبعين.

وفيها خطب قرواش بن المقلد بن المسيب أمير بني عقيل للحاكم بالموصل والأنبار والمدائن والكوفة وغيرها فكان أول الخطبة: الحمد لله الذي انجلت بنوره غمرات الغضب وانهدت بعظمته أركان النصب وأطلع بقدرته شمس الحق من المغرب.

ثم بطلت الخطبة بعد شهر وأعيدت لبني العباس.

سنة اثنتين وأربعمائة

في المحرم قلدت الشرطتان لمحمد بن نزال وأمر بتتبع المنكرات والمنع منها وألا يباع زبيب أكثر من خمسة أرطال ولا تباع الجرار.

ومنع النصارى من الاجتماع في عيد الصليب وأن يظهروا في المضي إلى الكنائس.

وأوفى النيل ستة عشر ذراعا في رابع عشر صفر وهو سادس عشر توت.

وفي تاسع ربيع الآخر خلع على غين الخادم وقلد بسيف وقرئ سجله بأنه لقب بقائد القواد فليكاتب بذلك ويكاتب به وقيد معه عشرة أفراس بسروجها ولجمها.

وهدمت اللؤلؤة.

وفي جمادى الآخرة منع بيع قليل الزبيب وكثيره وكوتب بالمنع من حمله وألقى في النيل منه شيء كثير.

وفي رجب قطع الرسم الجاري من الخبز والحلوى الذي كان يقام في الثلاثة أشهر لمن يبيت بجامع القاهرة في ليالي الجمع والأنصاف.

وحضر القاضي مالك إلى جامع القاهرة في ليلة النصف من رجب.

واجتمع الناس بالقرافة على عادتهم في كثرة اللعب والمزاح.

وقرئ سجل في القصر بأن أحداً لا يلتمس من أمير المؤمنين زيادة رزق ولا صلة ولا إقطاع ولا غير ذلك من المنافع.

واستهل شعبان يوم الاثنين فأمر أن يجعل أوله يوم الثلاثاء وأخذ جميع ما عند التجار من السلاح بثمنه للخزانة.

ومنع النساء من الخروج بعد العشاء الآخرة.

وفي ليلة النصف من شعبان كثر إيقاد القناديل في المساجد وتنافس الناس في ذلك.

وصلى مالك بن سعيد بالناس صلاة العيد.

وتشدد الأمر في الإنكار على بيع الفقاع والملوخية والسمك الذي لا قشر له.

ومنع الناس من الاجتماع في المآتم ومن اتباع الجنائز.

وأحرق زبيب كثير كان في محارق التجار.

وجمع الشطرنج من أماكن متعددة وأحرق.

وجمع الصيادون وحلفوا أنهم لا يصطادون سمكا بغير قشر ومن فعل ذلك ضربت رقبته وتوالى إحراق الزبيب عدة أيام بحضرة الشهود وتولى مؤنة الإنفاق على حمله وإحراقه متولى ديوان النفقات فأحرق منه ألفان وثمانمائة وأربعون قطعة بلغت مؤنة الإنفاق وقرئ سجل بمنع الناس من السفر إلى مكة في البر والبحر ومن حمل الأمتعة والأقوات إليها فرد قوم خرجوا إلى الحج من الطريق.

ومرض غين الخادم فركب الحاكم لعيادته وسير إليه خمسة آلاف دينار وخمسة وعشرين فرسا مسرجة ملجمة وقلد الشرطة والحسبة بمصر والقاهرة والجزيرة والنظر في جميع الأموال والأحوال.

ونزل إلى الجامع العتيق ومعه سائر العسكر بخلعه وقرئ سجله وفيه تشدده في المسكرات والمنع من بيع الفقاع والملوخية والسمك الذي لا قشر له والمنع من الملاهي ومن اجتماع الناس في المآتم واتباع الجنائز والمنع من بيع العسل إلا أن يكون ثلاثة أرطال فما دونها.

وفي ذي الحجة وردت هدية تنيس على العادة في كل سنة.

ولم يركب الحاكم لصلاة عيد النحر فصلى بالناس مالك بن سعيد وخطب.

ولم يخرج من النساء إلى الصحراء فلم تر امرأة على قبر.

ومنع من الاجتماع على شاطىء النيل ومن ركوب النساء المراكب مع الرجال وخروجهن إلى مواضع الحرج مع الرجال.

وفيه عمل عيد الغدير على رسمه وفرقت فيه دراهم كثيرة.

ومنع من بيع العنب وألا يتجاوز في بيعة أربعة أرطال ومنع من اعتصاره فبيع كل ثمانية أرطال بدرهم وطرح كثير منه في الطرقات وأمر بدوسه ومنع من بيعه ألبتة وغرق ما حمل منه في النيل.

وبعث شاهدين إلى الجيزة فأخذ جميع ما على الكروم من الأعناب وطرحت تحت أرجل البقر لدوسه وبعث بذلك إلى عدة جهات.

وتتبع من يبيع العنب واشتد الأمر فيه بحيث لم يستطع أحد بيعه فاتفق أن شيخا حمل خمرا له على حمار وهرب فصدفه الحاكم عند قائلة النهار على جسر ضيق فقال له: من أين أقبلت قال من أرض الله الضيقة.

فقال: يا شيخ أرض الله ضيقة فقال: لو لم تكن ضيقة ما جمعتني وإياك على هذا الجسر.

فضحك منه وتركه.

وفيها أخذ بنو قرجه هدية باديس بن المنصور صاحب إفريقية وزحفوا إلى برقة ففر عاملها في البحر وفتحوها.

وفيه نزع السعر.

وفيها مات أبو القاسم ولى الدولة ابن خيران الكاتب في شهر رمضان.

وانتهى ماء النيل في زيادته إلى ستة عشر ذراعا ونصف ذراع.

سنة ثلاث وأربعمائة

في محرم ختم على مخازن العسل وجميع ما عند التجار والباعة منه ورفعت مكوس الساحل.

ومنع الناس من عمل حزن عاشوراء.

وغرق في أربعة أيام خمسة آلاف وواحد وخمسون زيراً من أزيال العسل.

ونزع السعر وكثر الازدحام على الخبز ففرق الحاكم مالاً على الفقراء.

وكثر ابتياع الناس للسيوف والسكاكين والسلاح وحمله من لم يحمله قط من العوام والصناع وكثر الكلام فيه فقرئ سجل على منابر الجوامع بتطمين الناس وإعراضهم عن سماع أقوال المرجفين.

وفي ثاني ربيع الأول خلع على أبي الحسن علي بن جعفر بن فلاح ولقب قطب الدولة وقرئ له سجل بالتقدم على سائر الكتاميين والنظر في أحوالهم والسفارة بينهم وبين أمير المؤمنين.

وحمل على فرس وبين يديه ثياب.

وهلك زرعة بن عيسى بن نسطورس من علته في ثاني عشره فكانت مدة نظره في الوساطة سنتين وشهرا فتأسف الحاكم على فقده من غير قتل وقال ما أسفت على شيء قط أسفي على خلاص ابن نسطورس من سيفي وكنت أود ضرب عنقه لأنه أفسد دولتي وخانني ونافق علي وكتب إلى حسان بن الجراح في المداجاة علي وأنه يبعث من يهرب به إليه.

وخلع على إخوته الثلاثة وأقروا على ما بأيديهم من الدواوين.

وأمر النصارى إلا الحبابرة بلبس العمائم السود والطيالسة السود وأن يعلق النصارى في أعناقهم صلبان الخشب ويكون ركب سروجهم من خشب ولا يركب أحد منهم خيلا وأنهم يركبون البغال والحمير وألا يركبوا السروج واللجم محلاةً وأن تكون سروجهم ولجمهم بسيور سود وأنهم يشدون الزنانير على أوساطهم ولا يستعملون مسلما ولا يشترون عبدا ولا أمة وأذن للناس في البحث عنهم وتتبع آثارهم في ذلك فأسلم عدة من النصارى الكتاب وغيرهم.

وشدد الأمر عليهم ومنع المكاريون من تركيبهم وأخذوا بتسوية السروج والخفاف ومنعوا من ركوب النيل مع نواتية مسلمين.

واستدعى الحاكم حسين بن طاهر الوزان وكان منقطعا إلى غين الخادم الأسود وعرض عليه الوساطة فأجاب بشريطة أن يكون لكل قبيل من طوائف العسكر زمام عليهم يرجعون إليه ويكون نظره على الأزمة فيجعل لكل طائفة يوما ينظر في أمورهم وخاصة زمامهم فقط ففعل ذلك وخلع عليه.

وفوض في الوساطة والتوقيع وقرئ سجله بالقصر في تاسع عشر ربيع الأول.

وأمر الحاكم فنقش على خاتمه: بنصر الله العظيم الولي ينتصر الإمام أبو علي.

وفيه أمر النصارى بعمل ركب السروج من خشب الجميز.

وقبض على جماعة بسبب اللعب بالشطرنج وضربوا وحبسوا.

وألزم النصارى أن يكون الصليب الذي في أعناقهم طوله ذراع في مثله وكثرت إهاناتهم وضيق عليهم وأمروا أن تكون زنة الصليب خمسة أرطال وأن يكون فوق الثياب مكشوفا ففعلوا ذلك.

ولما اشتدت عليهم الأمور تظاهر كثير منهم بالإسلام فوقع الأمر بهدم الكنائس وأقطعت بجميع مبانيها وبمالها من رباع وأراض لجماعة وعملت مساجد وأذن في بعضها وبيعت أوانيها.

ووجد في المعلقة بمصر وفي كنيسة بو شنوده مال جزيل من مصاغ وثياب وغيره.

وتتابع هدم الكنائس وكتب إلى الأعمال بهدمها فهدمت.

وأشيع سير أبي الفتوح أمير مكة من الرملة إلى الحجاز وكان قد قدم إليها فبايعه ابن الجراح ولقبه بالراشد بالله أمير المؤمنين ودعا له بالرملة.

وفي جمادى الأولى لقب الحسين بن طاهر الوزان بأمين الأمناء وكتب له سجل بذلك.

وظهر لحسين بن جوهر مال عظيم فأنعم به الحاكم على ورثته ولم يعرض لشيء منه.

وفي ذلك الحين كان وصول أبي الفتوح إلى مكة إقامته الدعوة للحاكم بها وضربت السكة باسمه.

وابتدأ مالك بن سعيد بعمل رصد فلم يتم.

وفي جمادى الآخرة اشتد الإنكار بسبب الفقاع والزبيب والسمك.

وقبض على جماعة فاعتقلوا وأمر بضرب أعناقهم ثم أطلقوا.

وتشدد في منع ذبح الأبقار السالمة من العيب ومنع النساء من الغناء والنشيد.

وأقطعت الكنائس والديارات بنواحي بمصر لكل من التمسها.

وفي رجب قرئ سجل بمنع الناس من تقبيل الأرض للحاكم وبمنعهم من تقبيل ركابه ويده عند السلام عليه في المواكب والانتهاء عن التخلق بأخلاق أهل الشرك من الانحناء إلى الأرض فإنه صنيع الروم وأمروا أن يكون للسلام عليه: السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

ونهوا عن الصلاة عليه في المكاتبة والمخاطبة وأن تكون مكاتبتهم في رقاعهم ومراسلاتهم بإنهاء الحال ويقتصر في الدعاء على سلام الله وتحياته وتوالى بركاته على أمير المؤمنين ويدعى له بما سبق من الدعاء لا غير.

فلما كان يوم الجمعة لم يقل الخطيب سوى: اللهم صل على محمد المصطفى وسلم على أمير المؤمنين علي المرتضى اللهم وسلم على أمراء المؤمنين آباء أمير المؤمنين اللهم اجعل أفضل سلامك على سرك وخليفتك.

وأنزل من القصر سبع صناديق فيها ألف ومائتان وتسعون مصحفا إلى الجامع العتيق ليقرأ فيها الناس.

وأحصيت المساجد التي لا غلة لها فكانت ثمانمائة مسجد ونيف فأطلق لها في كل شهر تسعة آلاف ومائتا درهم وعشرون درهما لكل مسجد اثنا عشر درهما.

ومنع من ضرب الطبول والأبواق التي كانت تضرب حول القصر في الليل فصاروا يطوفون بغير طبل ولا بوق.

وأنزل إلى جامع ابن طولون ثمانمائة مصحف وأربعة عشر مصحفا.

وأبطلت مكوس الحسبة وأذن للناس بالتأهب للحج في البر والبحر.

وفي رمضان صلى الحاكم بالناس مرة في جامعه براشدة ومرة بجامعه خارج باب الفتوح وفيه ظهر جراد كثير حتى أبيع في الأسواق.

وصلى بالجامع العتيق بمصر جمعة وهو أول من صلى فيه من الخلفاء الفاطميين.

ومنع النساء من الجلوس في الطرقات للنظر إليه.

وأخذ القصص بيده ووقف لأهلها وسمع كلامهم وخالطه العوام وحالوا بينه وبين موكبه.

واستماحه قوم فوصلهم بصلات كثيرة وأهدى إليه قوم مصاحف فقبلها وأجازهم عليها.

ووقف عليه اثنان من تربة عمرو بن العاص وشكوا أن حبسهما قبض عليه للديوان من أيام العزيز فخلع عليهما ووصلهما بألف دينار.

وكثرت في هذا الشهر إنعاماته فتوقف أمين الأمناء حسين بن طاهر الوزان في ذلك فكتب إليه الحاكم بخطه بعد البسملة: الحمد لله كما هو أهله.

أصبحت لا أرجو ولا أتقي سوى إلهي وله الفضل جدّي نبيّي وإمامي أبي وديني الإخلاص والعدل المال مال الله عز وجل والخلق عباد الله ونحن أمناؤه في الأرض.

أطلق أرزاق الناس ولا تقطعها والسلام.

وركب في يوم الفطر إلى المصلى بغير شيء مما كان يظهر في هذا اليوم من الزينة والجنائب ونحوها فكان في عشرة أفراس جياد بين يديه بسروج ولجم محلاةً بالفضة البيضاء الخفيفة ومظلة بيضاء بغير ذهب وعليه بياض بغير طرز ولا ذهب ولا جوهر في عمامته ولم يفرش المنبر.

وولد لعبد الرحيم بن إلياس ابن عم الحاكم مولود فبعث إليه ثلاثة أفراس مسرجة ملجمة ومائة قطعة من الثياب وخمسة آلاف دينار عينا وسائر ما كان لأبيه أبي الأشبال المتوفي وكان شيخا جليلا.

ومنع الناس من سب السلف وضرب في ذلك رجل وشهر ونودي عليه: هذا جزاء من سب أبا بكر وعمر وتبرأ الناس.

فشق هذا على كثير من الناس وتجمعوا يستغيثون وهم يستغيثون في الطرقات.

فقرئ سجل بالقصر فيه الترحم على السلف من الصحابة والنهي عن الخوض في مثل ذلك.

ورأى في طريقه وقد ركب لوحاً فيه سب على السلف فأنكره ووقف حتى قلع.

وتتبع الألواح التي فيها شيء من ذلك فقلعت كلها ومحى ما كان على الحيطان منها حتى لم يبق لها أثر.

وشدد في الإنكار على من خالف ذلك ووعد عليه بالعقوبة.

وسارت قافلة الحاج في رابع عشر ذي القعدة إلى بركة الجب ثم رجعوا من ليلتهم.

وخلع على قطب الدولة أبي الحسن على بن فلاح وسار في عسكر لقتال ابن الجراح.

وأملك ابنا عبد الرحيم بن إلياس بزوجتي حسين بن جوهر وقرئ كتابهما في القصر وقد كتبا في ثوب مصمت وفي رأس كل منهما بخط الحاكم: يعقد هذا النكاح بمشيئة الله وعونه والحمد لله رب العالمين وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وخلع على ابني عبد الرحيم وحمل عنهما المهر وهو ألفا وصلى الحاكم بالناس صلاة عيد النحر كهيئته في عيد الفطر ونحر عنه عبد الرحيم والمؤذنون يكبرون خلفه كما يفعلون بين يدي الحاكم والقاضي مالك إلى جنبه ومعه الرمح وكلما رمى الرمح لينحر به قبله قبل أن ينحر به فعل ذلك ثمانية أيام فعبث إليه الحاكم ثياباً جليلة وجواهر ثمينة وحمله على فرس بسرج مرصع بالجوهر.

وواصل الحاكم الركوب إلى الصحراء بحذاء في رجله وعلى رأسه فوطة.

وكان يركب كل ليلة بعد المغرب.

ووقف إليه خراساني يذكر أنه أخذ منه متاع برسم الخزانة ولم يدفع إليه ثمنه فدفع إليه جميع ما كان له وهو نحو خمسة آلاف دينار فشق به البلد وكثر الدعاء للحاكم.

وحمل إلى عبد الرحيم عشرة ألاف دينار في أكياس مكتوب عليها: لابن عمنا وأعز الخلق علينا عبد الرحيم بن إلياس بن أحمد بن المهدي بالله سلمه الله وبلغنا فيه ما نؤمله.

وبعث إلى ملك الروم هدية مبلغ سبعة آلاف دينار.

وفيها وصلت هدية الحاكم إلى نصير الدولة أبي مناد مع عبد العزيز بن أبي كدينة لثلاث عشرة خلت من المحرم ومعه سجل بإضافة برقة وأعمالها إليه فخرج إلى لقائه ومعه القضاة والأعيان فكان يوماً مشهودا.

وفي أواخر رجب فلج أبو الفتوح يوسف بن عبد الله بن أبي الحسين أمير صقلية فتعطل جانبه الأيسر فقام بالأمر ابنه أبو محمد جعفر بن يوسف وكان بيده سجل الحاكم بولايته بعد أبيه ثم وصل إليه سجل لقب فيه تاج الدولة وسيف الملك.

ثم أنفذ إليه تشريف وعقد له لواء وزيد في لقبه الملك.

وفي ذي القعدة مات مفرج بن دغفل بن الجراح برملة لد من فلسطين.

سنة أربع وأربعمائة

في محرم أمر ألا يدخل يهودي ولا نصراني الحمام إلا ويكون مع اليهودي جرس ومع النصارى صليب.

ونهى عن الكلام في النجوم فتغيب عدة من المنجمين وبقي منهم جماعة وطردوا وحذر الناس أن يخفوا أحداً منهم فأظهر جماعة منهم التوبة فعفى عنهم وحلفوا ألا ينظروا في النجوم.

وأمر بغلق سائر الدواوين وجميع الأماكن التي تباع فيها الغلال والفواكه وغيرها ثلاثة أيام من آخر حزن عاشوراء فلما كان يوم عاشوراء أغلقت سائر حوانيت مصر والقاهرة بأسرها إلا حوانيت الخبازين.

ونزل الذين عادتهم النزول في يوم عاشوراء إلى القاهرة من المنشدين وغيرهم أفراداً غير مجتمعين ولا متكلمين فما اجتمع اثنان في موضع.

وخرج الحاكم في أمره وبذيله وأكثر الحاكم في هذا الشهر من الصدقات وإعطاء الأموال الكثيرة جدا.

وأعتق سائر مماليكه وجواريه.

وفتح فيه الخليج يوم السابع عشر من مسرى والماء على أربعة عشر ذراعا وثمانية أصابع.

وفي أول صفر صرف القائد غين عن الشرطتين والحسبة وتقلدها مظفر الصقلبي حامل المظلة.

وأذن لليهود والنصارى في مسيرهم إلى حيث ساروا من بلاد الروم.

وورد الخبر بوصول عساكر مصر ودمشق إلى الرملة وخروج العرب منها.

وأمر ببناء جامع الإسكندرية وأطلق مالا كثيرا للصدقة والتفرقة.

وفيه جمع سائر الناس على اختلافهم بالقصر وقرئ عليهم سجل بأن أبا القاسم عبد الرحيم بن إلياس بن أبي علي بن المهدي بالله أبي محمد عبيد الله قد جعله الحاكم بأمر الله ولي عهد المسلمين في حياته والخليفة بعد وفاته وأمر الناس بالسلام عليه وأن يقولوا له في سلامهم عليه: السلام على ابن عم أمير المؤمنين وولي عهد المسلمين وتعين له محل يجلس فيه من القصر.

ثم قرئ السجل على منابر البلد وبالإسكندرية وبعث بذلك سجلاً إلى إفريقية فقرئ بجامع القيروان وغيره وأثبت اسمه مع اسم الحاكم في البنود والسكة والطراز.

فعظم ذلك على نصير الدولة أبي مناد باديس وقال: لولا أن الإمام لا يعترض عليه في تدبير لكاتبته ألا يصرف هذا الأمر وخلع على عبد الغني بن سعيد ودفع له ألف وخمسمائة دينار وخمس عشرة قطعة ثياب وحمل على بغلة ولرفيقه مثل ذاك.

وسير مع رسول متملك الروم بهدية عظيمة.

وبلغ الحاكم أن أبا القاسم علي بن أحمد الزيدي النقيب عليه عشرون ألف دينار فوقع له بها مما عليه من الخراج وبعث له بثلاثة آلاف دينار أخرى.

وكثر ركوب الحاكم وهو بدراعة صوف وبيضاء وعمامة فوطة وفي رجله حذاء عربي بقبالين فأقبل الناس إليه بالرقاع ما بين متظلم أو مستمنح فأجزل في الصلات والعطايا ما بين دور ودراهم وثياب فلم يرد أحد خائبا.

ورد ما كان في الديوان من الضياع والأملاك المأخوذة لأربابها وأقطع كثيرا من الناس عدة آدر.

وفي ربيع الأول بسط الحاكم يده بالعطاء.

وفي ثامن عشر ربيع الآخر أمر الحاكم بقطع يدي أبي القاسم أحمد بن علي الجرجرائي فقطعتا جميعاً وهو يومئذ كاتب قائد القواد غين.

وسبب ذلك أنه كان في خدمة ست الملك أخت الحاكم فانفصل عنها وهي غير راضية عنه وخدم عند غين ثم بعث إليها رقعة يستعطفها فارتابت منه وسيرتها في طي درجها إلى الحاكم فأمر بقطع يديه وقد اشتد غيظه.

ويقال بل كان عقيل صاحب الخبر يحمل الرقاع بالخبر إلى القائد غين ليوصلها إلى الحاكم وهي مختومة فجاءه في يوم بالرقاع على عادته فدفعها غين إلى كاتبه أبي القاسم الجرجرائي حتى يجد فراغا فيحملها إلى الحاكم ففك الجرجرائي الختم وقرأها فإذا في بعضها طعن على غين وذكره بسوء فقطع ذلك الموضع من الرقعة وحكه وأصلحه وأعاد الختم.

فبلغ ذلك عقيلا فأوصله إلى الحاكم فأمر بقطع يديه.

وفي ثالث جمادى الأولى قطعت يد غين بعد قطع يد كاتبه الجرجرائي بخمسة عشر يوماً وكانت يده الأخرى قد قطعت قبل ذلك بثلاث سنين وشهر فصار مقطوع اليدين.

ثم إن الحاكم بعث إليه بآلاف من الذهب وعدة أسفاط من الثياب وأمر بمداواته.

وأبطل عدة مكوس من جهات كثيرة.

فلما كان في ثالث عشره أمر بقطع لسان غين فقطع.

وفي رجب أمر برفع ما يؤخذ من الشرطتين وقتل الكلاب فقتلت بأجمعها وأبطل مكس الرطب ومكس دار الصابون ومبلغه ستة عشر ألف دينار وأطلق أموالا جزيلة للصدقة.

وأكثر من الركوب في الليل.

ونزل ليلة النصف من شعبان إلى القرافة ومشى فيها وتصدق بشيء كثير وأبطل عدة جهات من جهات المكس.

ومنع النساء أن يخرجن إلى الطرقات في ليل أو نهار سواء أكانت المرأة شابةً أم عجوزاً فاحتبسن في بيوتهن ولم تر امرأة في طريق وأغلقت حماماتهن وامتنع الأساكفة من عمل خفاف النساء وتعطلت حوانيتهم.

وفي سادس عشره وقع في الناس خوف وفزع من شناعة القول وكثرة إشاعته بأن السيف قد وقع في الناس فتهارب الناس وغلقت الحوانيت فلم يكن سوى القلب.

وضرب قوم خالفوا النهي عن بيع الملوخية والسمك الذي لا قشر له وشهروا.

وضرب كثير من النساء من أجل خروجهن من البيوت وحبسن.

وقرئ سجل بالمنع من تفتيش المسافرين في البحر والبر وانهي عن التعرض.

وفي رمضان صلى بالناس في الجوامع الأربعة: جامع القاهرة والجامع خارج باب الفتوح وجامع عمرو وجامع راشدة وتصدق بأموال كثيرة ودعا فوق المنابر بنفسه لعبد الرحيم بن إلياس فقال: اللهم استجب منى في ابن عمي وولي عهدي والخليفة من بعدي عبد الرحيم بن إلياس بن أحمد بن المهدي بالله أمير المؤمنين كما استجبت من موسى في أخيه هرون.

وفيه ركب قائد القواد غين إلى القصر في موكب عظيم فخلع عليه.

وضرب على السكة اسم عبد الرحيم ولي عهد المسلمين.

ومنع من عادته الطواف في الأعياد بالأسواق لأخذ الهبات من الرجالة والبواقين.

واجتمع الأولياء وغيرهم بالقصر في يوم الخميس ثامن عشريه لسماع ما يقرؤه القاضي من كتب مجالس الحكم فمنعوا من ذلك.

وركب لصلاة الجمعة بجامع القاهرة فازدحم الناس عليه بعد ركوبه من الجامع إلى القصر فوقف لهم وأخذ رقاعهم وحادثهم وضاحكهم فلم يرجع إلى القصر من كثرة وقوفه ومحادثته العوام إلى غروب الشمس ووقع صلات كثيرة.

وركب لصلاة العيد بغير زي الخلافة ومظلته بيضاء وعبد الرحيم يسايره وهو حامل الرمح الذي من عادة الخليفة حمله وأصعده معه المنبر ودعا له.

ولم يعمل في القصر سماط ولا رؤيت امرأة ولا أبيع شيء مما عادته يباع في الأعياد من اللعب والتماثيل.

واشتد الأمر في منع النساء من الخروج وحبس عدة عجائز وخدم وجدن في الطرقات.

وواصل الركوب في الليل.

وأطلق لخليج الإسكندرية خمسة عشر ألف دينار.

وقرئ سجل بأن كل من كانت له مظلمة فليرفعها إلى ولي العهد فجلس عبد الرحيم ورفعت إليه الرقاع فوقع عليها.

وللنصف من ذي القعدة سار الحاج.

وفي يوم النحر ركب عبد الرحيم بالعساكر إلى المصلى فصلى بالناس وخطب ونحر بالمصلى وبالملعب ولم يعمل سماط بالقصر.

وواصل الحاكم الركوب في العشايا.

واصطنع خادما وكاتبا أسود كناه بأبي الرضا سعد وأعطاه من الجواهر والأموال ما يجل وصفها وأقطعه إقطاعات كثيرة فقصده الناس لحوائجهم ولزموا بابه لمهماتهم فتكلم لهم مع الحاكم فلم يرد سؤاله في شيء.

وكان مما يسأل فيه إقطاعات للناس تتجاوز خمسين ألف دينار.

وفيه بعث أبو مناد باديس أمير إفريقية حميد بن تموصلت على عسكر إلى برقة فخرج منها سنة خمس وأربعمائة في المحرم تزايد وقوع النار وكثر الحرق في الأماكن فأمر الناس باتخاذ القناديل على الحوانيت وعلى أريافها وطرحت السقائف والرواشن وأمر بقتل الكلاب فقتل منها كثير.

وعظم الحريق ووقعت في أمره شناعات من القول فقرئ سجل في الجوامع بزجر السفهاء والكف عن أحوال تفعل وأن يدخل الناس إلى دورهم من بعد صلاة العشاء.

فأغلقت الدور والحوانيت والدروب من بعد صلاة المغرب وكثر الكلام وعظم الترحم في الليل.

وفيه وصل علي بن جعفر بن فلاح من الشام.

ووصلت قافلة الحاج في تاسع صفر من غير زيارة المدينة وقد أصابهم خوف شديد وهلك منهم خلق كثير من الجوع والعطش.

وفيه ركب الحاكم مرتين فرفعت إليه الرقاع فأمر برافعيها فحبسوا.

وحبس عدة قياسر وأملاك مع سبع ضياع بإطفيح وطوخ على القراء والمؤذنين بالجوامع وعلى ملء المصانع والمارستان وثمن الأكفان.

وفي ربيع الأول واصل الركوب وأخذ الرقاع ووقف مع الناس طويلا ثم امتنع من أخذ الرقاع وأمر أن ترفع إلى عبد الرحيم وإلى القاضي مالك وإلى أمين الأمناء فتناولوا الرقاع.

وأكثر من فلما كان يوم السبت سادس عشري ربيع الآخر ركب في الليل على رسمه إلى الجب وتلاحق به الناس وفيهم قاضي القضاة مالك بن سعيد فلما أقبل على الحاكم أعرض عنه فتأخر وإذا بصقلبي يقال له غادى يتولى الستر والحجية أخذه وسار به إلى القصور وألقاه مطروحا بالأرض فمر به الحاكم وأمر بمواراته فدفن هناك بثيابه وخفيه.

وكانت مدة نظره في الأحكام عشرين سنة منها ست سنين وتسعة أشهر قاضي القضاة وباقيها خلافة لبني النعمان.

وكان ينظر في القضاء والمظالم والأحباس والدعوة ودار الضرب ودار العيار وأمر الأضياف فعلت منزلته وقصده الناس في حوائجهم لكثرة اختصاصه بالحاكم وتزايد إقطاعاته من الدور بفرشها والضياع العديدة ومواصلة الركوب مع ليلا ونهارا ومشاورته في أمور الدولة ونظره في أمور الدواوين كلها.

وكان سخياً جواداً فصيحا بليغاً لم يضبط عليه قط صياح ولا حدة ولا سمعت منه في خطاباته أبداً كلمة فيها فحش ولا قذع ولا قبح.

وكان سبب قتله أنه اتهم بموالاة سيدة الملك ومراعاتها وكان الحاكم قد انفلق منها فلما قتل استدعى الحاكم أولاده وخاطبهم ولم يتعرض لشيء من تركة أبيهم وأمر ابنه أبا الفرج أن يركب في الموكب وأقره على إقطاعه ومبلغه في السنة خمسة عشر ألف دينار.

وفي جمادى الأولى رد الحاكم على بني عمرو بن العاص حبس جدهم عمرو بن العاص ومبلغه وتزايد ركوب الحاكم حتى كان يركب في اليوم الواحد عدة مرات وعظمت هباته وعطياته.

ثم أمر بابتياع الحمير وصار يركبها من تحت السرداب إلى باب البستان إلى المقس ويغلق الأبواب التي يتوصل منها إلى المقس وقت ركوبه ومنع الناس من الخروج إلى هذه المواضع.

وفي جمادى الآخرة قدم رسول ملك الروم فاصطفت العساكر من باب القصر إلى سقاية ريدان بعددها وأسلحتها وركب الحاكم بصوف أبيض وعمامة مفوطة بمظلة مثلها وولي العهد يسايره وعليه ثوب مثقل ومعهم الجواهر.

وأحضر الرسول ومعه عبد الغني بن سعيد بهدية إلي القصر فخلع على عبد الغني وأنزل الرسول في دار بالقاهرة وبلغ الحاكم أن ثلاثة من الركابية أخذوا هبة من الرسول فأمر بقتلهم فقتلوا من أجل ذلك.

وفي جمادى الآخرة ركب الحاكم ومعه أمين الأمناء الحسين بن طاهر الوزان على رسمه فلما انتهى إلى حارة كتامة خارج باب القاهرة أمر فضربت رقبة ابن الوزان ودفن مكانه.

فكانت مدة نظره في الوساطة سنتين وشهرين وعشرين يوما وكان توقيعه عن الحاكم: الحمد لله وعليه توكلي.

وتقدم الأمر لسائر أرباب الدواوين بلزوم دواوينهم.

واعتل الحاكم أياما فركب على حمار بشاشية مكشوفة وأكثر من الحركة في العشيات إلى المقس والتعدية إلى الجيزة وهو على الحمار.

وأكثر من الركوب في النيل.

وفي حادي عشر شعبان أمر أصحاب الدواوين بأن يمتثلوا ما يرسم به عبد الرحيم بن أبي السيد الكاتب متولي ديوان النفقات وأخوه أبو عبد الله الحسين وجعلا في الوساطة والسفارة ثم قرئ لهما سجل بذلك وخلع عليهما وحملا فوقعا وكان توقيعهما: الحمد لله حمدا يرضاه.

وفي حادي عشريه خلع على أبي العباس أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي العوام وأعطى سجلاً بتقليده قضاء القضاة وحمل على بغلة بسرج ولجام مصفح بالذهب وقيد بين يديه بغلة أخرى ونزل إلى الجامع فقرئ سجله على المنبر وفيه: فقلدك أمير المؤمنين القضاة والصلاة والخطابة بحضرته والحكم فيها وراء حجابه من القاهرة المعزية ومصر وأعمالها والإسكندرية والحرمين وبرقة والمغرب وصقلية مع الإشراف على دور الضرب بهذه الأعمال والنظر في أحباس الجوامع والمساجد وأرزاق المرتزقة ووجوه البر وتستخلف على الحكم.

ونقل ديوان الحكم من بيت مالك بن سعيد إلى بيت المال بالجامع العتيق وهو أول من فعل ذلك من القضاة.

وكانت دواوين الحكام في دورهم فجعلها بالجامع وجعل جلوسه بالجامع العتيق يومي الاثنين والخميس وبالقاهرة يوم الثلاثاء ولحضور القصر يوم السبت.

وفي يوم الجمعة رابع رمضان ركب ولي العهد فصلى بالجامع الأنور الجديد بباب الفتوح في موكب الخلافة ثم صلى جمعة أخرى بجامع القاهرة ثم جمعتين بالجامع الجديد.

وفيه كثرت صلات الحاكم ومواهبه وإقطاعاته للناس حتى خرج في ذلك عن الحد.

وركب ولي العهد يوم الفطر في موكب الخلافة وصلى بالناس في المصلى وخطب.

وخرج الحاكم عن المعهود في العطاء والإقطاعات حتى أقطع النواتية الذين يجدفون به في العشاري وأقطع المشاعلية وكثيرا من الوجوه والأقارب وبني قرة فكان مما أقطع الإسكندرية والبحيرة ونواحيها.

وفي نصفه قتل ابنا أبي السيد حسين وعبد الرحيم ضربت أعناقهما بالقصر فكانت مدة نظرهما اثنين وتسعين يوما.

وواصل الركوب في كل غداة وهو على الحمار.

وقرئ سجل بأن يكون ما يرفعه الناس من حوائجهم في ثلاثة أيام يوم السبت للكتاميين والمغاربة ويوم الاثنين للمشارقة ويوم الخميس لسائر الناس كافة وأن يتجنبوا لقاء أمير المؤمنين ليلاً ونهاراً بالرقاع فما يتعلق بالمظالم فإلى ولي العهد وما يتعلق بالدعاوى فإلى قاضي القضاة وما استصعب من ذلك ينتهي إلى أمير المؤمنين.

وفي سابع عشره تقلد أبو العباس فضل بن جعفر بن الفرات الوساطة ولم يخلع عليه فجلس ووقع ثم قتل في اليوم الخامس من جلوسه.

وتشدد الأمر في منع النساء من الخروج في الطرقات ومن التطلع في الطيقان بأسرهن شبابهن وعجائزهن.

ومنع مؤذنو القصر وجامع القاهرة من قولهم بعد الأذان: السلام على أمير المؤمنين وأن يقولوا بعد الأذان: السلام من الله.

وفيه غلب بنو قرة على الإسكندرية وأعمالهما.

وأقطع القاضي ابن أبي العوام ناحية تلبانة عدي.

وأكثر الحاكم فيه من الركوب فركب في يوم واحد ست مرات تارة على فرس وأخرى على حمار ومرة في محفة تحمل على الأعناق ومرة في عشارى في النيل بشاشية لا عمامة عليها.

وأكثر من إقطاع الإقطاعات للجند وعبيد الشراء.

واستمر على مواصلة الركوب إلى ليلة النحر قرب العشاء وشق البلد والطرادون يفرقون الناس عنه.

وصلى ولي العهد صلاة عيد النحر ولم يضح بشيء ونهى الناس عن ذبح البقر.

وفيه قلد ذو الرياستين قطب الدولة أبو الحسن علي بن جعفر بن فلاح الوساطة والسفارة.

وفيها بعث نصير الدولة أبو مناد باديس من إفريقية هدية عظيمة إلى الغاية للحاكم بأمر الله فوصلت إلى مدينة برقة لأربع عشرة بقيت من رجب وسارت منها في سابع رمضان حتى ولت لك فأخذها بنو قرة عن آخرها.

وكانوا قد انتجعوا مع كبيرهم مختار بن قاسم من البحيرة ومعهم مواشيهم وقصدوا مدينة برقة ففر منها حميد بن تموصلت إلى إفريقية فملك برقة مختار بن قاسم.

وفيها بعث الحاكم عبد العزيز بن أبي كدينة ومعه أبو القاسم بن حسن إلى إفريقية بخلع وسيول وتشريف لمنصور بن نصير الدولة أبي مناد باديس لولاية ما يتولاه أبوه في حياته وبعد وفاته ولقبه عزيز الدولة.

سنة ست وأربعمائة

فيها عرض الاستيمار على الحاكم بأسماء الفقهاء والقراء والمؤذنين بالقاهرة ومصر فكانت جملته في كل سنة واحداً وسبعين ألفا وسبعمائة وثلاثة وثلاثين دينارا وثلثي وربع دينار فأمضى جميع ذلك.

وفيها زاد ماء النيل وغرق الضياع وغلت الأسعار وهلكت البساتين وامتلأ كل مكان من المدينة وغرق المقياس وانتهت الزيادة إلى ثلاث أصابع من إحدى وعشرين ذراعا وبلغ الماء إلى نصف النخل مما يلي بركة الحبش وغرق المعتوق!.

ولم يبق طريق يسلك إلى القاهرة إلا من الشارع والصحراء.

سنة ثمان وأربعمائة

قدم مصر داع عجمي اسمه محمد بن اسماعيل الدرزي واتصل بالحاكم فأنعم عليه.

ودعا الناس إلى القول بإلهية الحاكم فأنكر الناس عليه ذلك ووثب به أحد الأتراك ومحمد في موكب الحاكم فقتله وثارت الفتنة فنهبت داره وغلقت أبواب القاهرة.

واستمرت الفتنة ثلاثة أيام قتل فيها جماعة من الدرزية وقبض على التركي قاتل الدرزي وحبس ثم قتل.

ثم ظهر داع آخر اسمه حمزة بن أحمد وتلقب بالهادي وأقام بمسجد تبر خارج القاهرة ودعا إلى مقالة الدرزي وبث دعاته في أعمال مصر والشام وترخص في أعمال الشريعة وأباح الأمهات والبنات ونحوهن وأسقط جميع التكاليف في الصلاة والصوم ونحو ذلك.

فاستجاب له خلق كثير فظهر من حينئذ مذهب الدرزية ببلاد صيدا وبيروت وساحل الشام سنة تسع وأربعمائة

في آخر شوال ركب الوزير علي بن جعفر بن فلاح إلى البرك التي قبل الخليج خارج القاهرة فثار عليه فارسان فأخذه أحدهما فألقاه وفرا فلم يعرف خبرهما وحمل إلى داره فمات من الأخذ.

وولى الوزارة بعده الظهير صاعد بن عيسى بن نسطورس فأقام إلى رابع ذي الحجة.

وقيل تولى بعده شمس الملك مسعود بن طاهر الوزان.

وفيها عزل الحاكم سديد الدولة عن دمشق ووليها عبد الرحيم بن إلياس وسار إليها لعشرين من جمادى الآخرة فبينما هو قصره إذ هجم عليه قوم ملثمون فقتلوا جماعةً من غلمانه ثم أخذوه ووضعوه في صندوق وحملوه إلى مصر.

فلم يكن بها أكثر من شهرين ثم أعيد إلى دمشق فأقام بها ليلة العيد.

وورد من مصر رجل يقال له أبو الداود المغربي ومعه جماعة وأخرجوا عبد الرحيم وضربوا وجهه وأصبح الناس يوم العيد وليس لهم من يصلي بهم.

وعجب الناس من هذه الأمور.

وفيها سومح ضامن الصعيد الأعلى بما عليه وهو أربعة وستون ألف دينار وسبعمائة وخمسة وستون دينارا.

سنة عشر وأربعمائة

فيها اشتد الغلاء بديار مصر حتى أبيع الدقيق رطلا بدرهم واللحم أربع أواق بدرهم ومات كثير من الناس بالجوع.

وبلغت عدة من مات في مدة رمضان وشوال وذي القعدة مائتي ألف وسبعين ألفا سوى الغرباء وهم أكثر من ذلك وفي سنة عشر وأربعمائة سير الحاكم بأمر الله أبا القاسم بن اليزيد إلى شرف الدولة الحاكمية أبي تميم المعز بن نصير الدولة أبي مناد باديس ومعه سيف مكلل بنفيس الجوهر وخلعة من سنة إحدى عشرة وأربعمائة فقدم المنصورية لست بقين من صفر سنة إحدى عشرة.

وتلقاه شرف الدولة ونزل إليه فقرأ عليه سجلاً عظيما فكانت أيام فرح.

ثم ورد بعده محمد بن عبد العزيز بن أبي كدينة بسجل آخر ومعه خمسة عشر علما منسوجة بالذهب فخلع على أبي القاسم ومحمد وحملا وطيف بهما في القيروان والأعلام المذكورة بين أيديهما.

مقتل الحاكم

ولليلتين بقيتا من شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة فقد الحاكم.

وسبب فقده أن أخته ست الكل سلطانة كانت امرأة حازمة وكانت أسن منه فدار بينها وبينه يوما كلام فرماها بالفجور وقال لها: أنت حامل.

فراسلت سيف الدين حسين بن علي بن دواس من مقدمي كتامة وكان قد تخوف من الحاكم وتواعدا على قتل الحاكم وتحالفا عليه.

فأحضرت ست الكل عبدين وحلفتهما على كتمان الأمر ودفعت إليهما ألف دينار ليقتلا الحاكم.

فأصعد إلى الجبل في الليل وكان الحاكم قد رأى أن عليه قطعا فلما كان في الليلة التي فيها قال لأمه: علي قطع في هذه الليلة وعلامة ذلك ظهور كوكب الذنابة ودفع إليهما خمسمائة ألف دينار ذخيرة لها فمنعته من الركوب ونام.

ثم انتبه آخر الليل وقام ليركب فتعلقت به فامتنع ومضى وركب الحمار إلى باب القاهرة ففتح له أبو عروس صاحب الشرطة الباب وأغلقه خلفه وخرج متبعا له.

قال: فسمعته يقول: ظهر والله الكوكب ولم يكن معه سوى ركابي وصبي يحمل دواته.

فعارضه وسط الجبل سبع فوارس من بني قرة فخدموه وسألوه الأمان وأن يسعفهم بما يصلح شأنهم فأمنهم وأمر الركابي أن يحملهم إلى الخازن يدفع إليهم عشرة آلاف درهم.

ودخل الشعب الذي كان يدخله وقد وقف العبدان له فضرباه حتى مات وطرحاه وشقا جوفه ولفاه في كساء وقتلا الصبي وغرقا حماره وحملا الحاكم في كساء إلى أخته فدفنته.

وأقامت مدة وأحضرت الوزير خطير الملك وعرفته الحال وأمرته أن يكاتب عبد الرحيم بن إلياس يستدعيه من دمشق.

فكتب إليه على لسان الحاكم يأمره بالمبادرة واستدعت ألف ألف دينار فرقتها في الأولياء وبعثت قائد السواحل.

فلما قدم عبد الرحيم عدل به إلى تنيس فقتل بها.

واضطرب الناس لغيبة الحاكم فأرسلت إليهم: إنه أخبرني أنه يغيب سبعة أيام وإنه يواصلني بأوامره.

ورتبت رسلا يمضون عنها إلى الحاكم ويجيئون منه إليها.

ففي أثناء ذلك اشتدت شوكتها وكف الناس عن الاستقصاء في المسألة.

وأحضرت ابن دواس وواطأته على أخذ البيعة للظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم وأظهرته وعلى رأسه تاج جده العزيز.

وقام ابن دواس فقال لمن حضر من أهل الدولة تقول لكم مولاتنا هذا مولاكم فسلموا عليه.

وقبل ابن دواس الأرض فبايع الناس إلا غلاما تركيا كان عمل ليلا بين يدي الحاكم فإنه قال: لا أبايع حتى أعرف خبر مولاي.

فقتل وقام ابن دواس بتدبير الأمر.

ثم إن ست الملك دست عليه وقتلته وقتلت جميع من اطلع على سرها وقتلت جماعة خافتهم.

ثم لم تطل أيامها وماتت بعد أيام.

قال ابن أبي طي لما ذكر هذا الخبر في كيفية قتل الحاكم: وكان الحاكم شديد السطوة عظيم الهيبة جريئا على سفك الدماء.

خطب له على منابر مصر والشام وإفريقية.

وكان يتشبه بالمأمون ويقصد مقاصده واشتغل بعلوم الأوائل واعتد بعلوم النجوم وعمل له رصدا ووقف الكواكب واتخذ بيتا بالمقطم فيه عن الناس ويخلو لمخاطبة الكواكب.

وكان يركب الحمار وعليه ثياب الرهبان ووراءه غلام اسمه مفلح يحمل الدواة والسيف والورق في كيس معلق في كتفه وهو يمشي وراءه فإذا مر بسوق انهزم الناس واستتروا عنه ويطرق أبواب الحوانيت فلا ينظرون إليه إلا أن يكون لأحد منهم حاجة فإنه يقف عليه ويكتب العبد بين يديه ما يأمره به في رقعة إلى الوزير.

وكان لا يحضره الجيش إلا في الأعياد فيركب في ذلك اليوم بثيابه على الفرس.

وكان مهاباً عند أهل مملكته وكان لا يحضر مجالس الجدل ويحتجب أياما كثيرة مشتغلا بما هو فيه وكان له سعي في إظهار كلمته فبعث دعاته إلى خراسان وأقام فيها مذهب الشيعة واستجاب له عالم وكان أبو عبد الله أنوشتكين النجري الدرزي أول رجل تكلم بدعوته وأمر برفع ما جاء به السرع وسير مذهبه إلى بلاد الشام والساحل ولهم مذهب في كتمان السر لا يطلعون عليه من ليس منهم.

وكان الدرزي يبيح البنات والأمهات والأخوات.

فقام الناس عليه بمصر وقتلوه فقتل الحاكم به سبعين رجلا.

وأنفذ الدرزي إلى الحجر الأسود برجل ضربه وكسره وادعى الربوبية.

وقدم رجل يقال له يحيى اللباد ويعرف بالزوزني الأخرم فساعده على ذلك ونشط جماعة على الخروج عن الشريعة.

وركب يوما من القاهرة في خمسين رجلا من أصحابه إلى مصر ودخل الجامع بدابته وأصحابه كذلك فسلم إلى القاضي رقعة فيها: باسم الحاكم الرحمن الرحيم فأنكر القاضي ذلك وثار الناس بهم وقتلوهم وشاع هذا في الناس فلعنوه.

ويقال إنه خرج يوما وعليه قباء أطلس وفي وسطه سيف فخلع القباء وقال: هذا الظاهر قد خلعته ثم جرد السيف وقال: هذا الباطن قد سللته.

قال: وفي السنة التي قتل فيها الحاكم أشاع أنه يريد أن ينزل في أول رمضان إلى الجامع ومعه الطعام فمن أبى الأكل قتله.

وكان دعاته إذا ركب يقولون: السلام عليك يا واحد يا أحد ويغلون فيه الغلو المفرط.

وادعى أنه حصل له كتاب الجفر.

ولما غلب على الحرمين وعد العلويين أهل المدينة إذا هم مكنوه من فتح دار جعفر بن محمد الصادق بوعود كثيرة ففتحها وكانت مغلقة فإذا فيها قعب خشب ومصحف وسرير سعف وقدره ولم تكن فتحت قبل ذلك فرأى بالسرير وأخذ أعداءه وهدم بيعة ثمامة في سنة ثمان وثمانين وثلثمائة وخرج رسمه إلى الوزير على لسان خادم أن يتب: أمرت حضرة الإمامة بهدم قمامة وأن يجعل علوها خفضا وسماؤها أرضا.

وبلغه أن المغاربة تلعنه فقرب الفقهاء المالكية وأمرهم بتدريس مذهب مالك بن أنس في الجامع.

وكان يحب العلماء ويقدم ما يرد فيه وإذا رأى رأيا عزم عليه وأمضاه.

وكتب إليه رجل: إن فلانا مات وخلف مالا فوقع بخطه على ظهر الرقعة: السعاية قبيحة إن كانت صحيحة.

وكتب إليه آخر: إن فلانا مات وخلف بنتا وقد أخذت جميع مال أبيها فوقع على ظهر الرقعة: المال مال الله واليتيم جبره الله والساعي لعنه الله وعلى مذهبنا يجوز أن ترث البنت جميع مال أبيها.

ومنع النساء الخروج من البيوت فقيل إن فيهن من لا تجد من يقوم بشأنها فتموت جوعا فأمر الباعة بالتطواف في السكك وأن يبيعوهن من خلف الأبواب ويناولوهن بمغارف طوال السواعد.

وكان أمر ألا يكشف مغطى فسكر رجل ونام في قارعة الطريق وغطى نفسه بمنديل فصار الناس يمرون به ولا يقدر أحد أن يكشف عنه.

فمر به الحاكم وهو كذلك فوقف عليه وقال له: ما أنت فقال: أنا مغطى وقد أمر أمير المؤمنين ألا يكشف مغطى.

فضحك وطرح عنده مالا وقال: استعن بهذا على ستر أمرك.

وقرر الحاكم بعد ابن الفرات ذا الرياستين قطب الدولة أبا الحسن علي بن جعفر بن فلاح واستمر إلى أن قتل الحاكم.

انتهى ما ذكره ابن أبي طي وفيه تحامل شعر به واحد من مؤرخي مصر ذكره.

وقال الروحي على ما حكاه عنه ابن سعيد: ولم يزل الحاكم خليفة إلى سنة إحدى عشرة وأربعمائة فخرج ليلة الاثنين السابع والعشرين من شوال فطاف ليلته كلها على رسمه وأصبح عند قبر الفقاعي ثم توجه إلى شرقي حلوان وتبعه ركابيان فأعادهما.

وبقي الناس على رسومهم يخرجون يلتمسون رجوعه إلى يوم الخميس سلخ الشهر المذكور ثم خرج خواص من بطانته فبلغوا دير القصير ثم أمعنوا في الدخول في الجبل فبينما هم كذلك إذ بصروا بالحمار الذي كان راكبه على قنة الجبل وقد ضربت يداه بسيف فأثر فيهما وعليه سرجه ولجامه.

وتتبع الأثر فقاد إلى أثر الحمار في الأرض وأثر راجل خلفه وراجل قدامه فلم يزالوا يقصون هذا القص حتى انتهوا إلى البركة التي في شرقي حلوان فنزل فيها رجل فوجد فيها ثيابه وهي سبع جباب ووجدت مزررة فيها آثار السكاكين فلم يشك في قتله.

فكانت مدته ستا وثلاثين سنة وسبعة أشهر وكانت ولايته خمسا وعشرين سنة وشهرا.

وكسفت الشمس يوم موته.

وكان جوادا بالمال سفاكا للدماء قتل عددا كثيرا من أماثل دولته وغيرهم صبرا وكانت سيرته من أعجب السير.

قال: ومنع النساء من الخروج إلى الطرقات ليلا ونهارا ومنع الأساكفة من عمل الخفاف المنجة لهن فأقمن على ذلك سبع سنين وسبعة أشهر إلى خلافة الظاهر.

قال أحمد بن الحسين بن أحمد الروذباري في كتاب الأدباء على ما نقله ابن سعيد: وقتل الحاكم ركابيا له بحربة في يده على باب جامع عمرو بن العاص وشق بطنه بيده.

وعم بالقتل بين وزير وكاتب وقاض وطبيب وشاعر ونحوي ومغن ومختار وصاحب ستر وحمامي وطباخ وابن عم وصاحب حرب وصاحب خبر ويهودي ونصراني وقطع حتى أيدي الجواري في قصره.

وكان في مدته القتل والغيلة حتى على الوزراء وأعيان الدولة يخرج عليهم من يقتلهم ويجرحهم.

وخطفت العمائم جهاراً بالنهار وكان لعبيد الشراء في مدته مصائب وخطوب في الناس.

وكان المقتول ربما جر في الأسواق فأوقع ذلك فتنة عظيمة.

قال: كان الحاكم يركب حمارا يسمى القمر ويعبر به على الناس.

وكان له صوفية يرقصون بين يديه ولهم عليه جار مستمر.

ووقف رجل للحاكم فصاح عليه فمات لوقته.

وكانت غيبته إلى يوم جلوس ولده الظاهر ثلاثة وأربعين يوما.

قال ابن سعيد عن مجموع وقف عليه: وواصل الحاكم في ركوبه الوقوف على المعروف بابن الأرزق الشواء ومحادثته بدار فرح وخلع عليه وأجازه.

وفي يوم استدعى الحاكم أحد الركابية السودان المصطنعة ليحضر إلى حانوت ابن الأزرق الشواء فوقفه بين اثنين ورماه برمح ثم أضجعه واستدعى سكينا فذبحه بيده ثم استدعى شاطورا ففرق بين رأسه وجسده ثم استدعى ماء فغسل يده بأشنان ثم ركب.

وحمل المقتول إلى الشرطة فأقام ليلة ثم دفن بالصحراء.

ثم بعث المؤتمن بعد ثلاثة أيام فنبشه وغسله وأنفذ إليه أكفانا كفن بها ثم أمر قاضي القضاة بالصلاة عليه وأمر ألا يتخلف أحد فحضر الشهود وأهل السوق وصلى عليه قاضي القضاة ودفن بالقرافة وواراه قاضي القضاة وجعل التراب تحت خده وأمر ببناء قبره وتبيضه في وقته ففعل ذلك.

وتظلم إليه رجل في ركوبه إلى مصر في ناصح الركابي فوقف عليه وسأل ناصحا عن دعواه فظهر أنها صحيحة فأمر أن يدفع ماله إليه فلم يجد معه في الوقت ذلك القدر فألزمه ببيع فرسه الذي كان راكبا عليه فباعه ووفى الرجل ما كان له عليه كل ذلك بحضرته وهو واقف على ظهر دابته ثم سار.

وقال الفوطي: كان الحاكم أجود الخلفاء بماله وبه تفشت حاله فيما سفكه من الدماء التي لا يحصيها إلا الله.

وكان الأمر في مدة العزيز فيه انحلال وعفو كبير عن الناس وظنوا أن ذلك يجوز في مدة الحاكم وجروا على رسمهم فتجرد له منهم مطلع على جميع أمورهم غير مطرح لعقوبة فهلك الجم الغفير منهم.

وكان في مدة أبيه العزيز بالله قد تكشف على أقوام ممن يطعن في الدولة ويسىء المقالة فيها فلما صارت له الخلافة انتقم منهم أشد انتقام وعمهم بالعقوبة.

قال: ومن حكايته المشهورة في العدل أن رجلا عربيا ورد على مصر من سجلماسة يريد الحج فأودع ماله عند رجل في السوق فلما عاد من الحج طلب ماله فأبى أن يدفعه إليه.

فتوصل إلى أن أطلع الحاكم على أمره فقال له اجلس في دكان مقابلا لدكانه فإذا جزت في ذلك السوق فاعمل كأنك تعرفني وكأني أعرفك.

فلما مر الحاكم وقف على الرجل وسأل عن حاله وأكثر معه الوقوف وانصرف فجاء الرجل الذي عنده الوديعة إلى الرجل وأكب عليه وسأله الصفح عما سلف منه وأحضر إليه جميع ماله.

فعرف الحاكم بذلك فأصبح الذي أنكر الوديعة مقتولا معلقا برجله.

وكان نقش خاتمه: بنصر الولي العلي ينتصر الإمام أبو علي.

وخطب له معتمد الدولة أبو المنيع قرواش بن المقلد بالموصل والأنبار وقصر ابن هبيرة والمدائن.

ومن خط ابن الصيرفي يروي أن الإمام الحاكم بأمر الله قال لبعض الأعيان الذين شرفهم بمجالسته وميزهم بمحاورته فقال: أكلت حتى شبعت وشربت حتى رويت والشبع والري غايتا الأكل والشرب فإذا قلت ونمت فنقول: حتى إذا أي شيء جعلته غاية النوم فلم يحر جوابا ورغب إلى كرمه في الإفادة فقال نمت حتى ريثت والروث غاية النوم وأنشد:

فأما تميم بن مرّ فألفاهم القوم روثاً نياما

الظاهر لإعزاز دين الله

أبو الحسن علي ابن الحاكم بأمر الله أبي علي منصور أمه أم ولد تدعى رقية ويقال اسمها آمنة بنت الأمير عبد الله بن المعز وإن ست الملك سلطانة أخت الحاكم كانت تعادي آمنة هذه.

ومولده بالقصر من القاهرة على مضي ثلاث ساعات من ليلة الأربعاء عاشر شهر رمضان سنة خمس وتسعين وثلمثائة وبويع بالخلافة في يوم عيد الأضحى سنة إحدى عشرة وأربعمائة وله من العمر ست عشرة سنة وثلاثة أشهر واتفق في هذا اليوم أن صلى للحاكم في خطبة العيد ثم بويع الظاهر بعد عودة القاضي من المصلى فكان بين الدعاء في الخطبة للحاكم وبين أخذ البيعة للظاهر ثلاث ساعات ولم يتفق مثل ذلك.

وتوفي ببستان الدكة خارج القاهرة في ليلة الأحد النصف من شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة وعمره إحدى وثلاثون سنة وأحد عشر شهرا وخمسة أيام.

ومدة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وخمسة أيام كانت فيها قصص وأنباء.

ذلك أنه لما فقد الحاكم استدعت السيدة ست الملك سيف الدولة حسين بن علي بن دواس الكتامي إلى حيث كانت جالسة وقالت له: المعول في قيام هذه الدعوة عليك وهذا الصبي ولدك وينبغي أن تتولى الخدمة إلى غاية وسعك وتبذل فيها كل ما عندك.

فقبل الأرض وشكر ودعا ووعد بالإخلاص في الطاعة وبلوغ ما في القدرة والاستطاعة.

فأخرجت علي بن الحاكم بأمر الله ولقبته الظاهر لإعزاز دين الله وألبسته تاج المعز جد أبيه وهو تاج مرصع بالجواهر الفاخرة وجعلت على رأسه مظلة مرصعة.

وأركبته فرسا رائعا بمركب ذهب مرصع وأخرجت بين يديه الأمير الوزير رئيس الرؤساء خطير الملك أبا الحسن عمار بن محمد ونسيماً صاحب السيف في عدة من الأستاذين تخدم.

فلما برز وشوهد تقدم الوزير وصاح: يا عبيد الدولة مولاتنا تقول لكم هذا مولاكم أمير المؤمنين فسلموا عليه فقبل ابن دواس الأرض ومرغ خديه بين يديه وفعل ما يتلوه من سائر طبقات العسكر مثل ذلك وضربت البوقات والطبول وعلا الصياح بالتكبير والتهليل والظاهر يسلم على الناس يمينا وشمالا.

وفتحت أبواب القصر وأدخل الناس على العموم حتى سلموا ومدحوا ولم يزل واقفاً لهم إلى الظهر.

ثم صرفوا وجمعوا من غد وأخذت البيعة عليهم ووضع العطاء وأطلق مال الفضل للجند كافة ولم يجر خلاف من أحد إلا أن غلاما تركيا كان يحمل الرمح بين يدي الحاكم قال لا أبايع حتى أعرف خبر مولاي فأخذ وسحب على وجهه وغرق في النيل وقامت الهيبة.

وكتب إلى بلاد الشام والمغرب بوفاة الحاكم وقيام الظاهر ورسم لهم أخذ البيعة على نفوسهم ومن عندهم من سائر طبقات الناس.

وأقيمت المآتم على الحاكم في القصور والقاهرة ثلاثة أيام.

وجمعت السيدة عامة أهل مصر وخاطبتهم بالجميل والملاطفة ووعدتهم حسن السيرة والمعاملة وأمرتهم بذكر حوائجهم ومصالحهم في كل وقت والمطالعة بحيف إن لحقهم من عامل أو ناظر ليفعل في ذلك ما توجبه السياسة العادلة.

وأطلقت للنساء الخروج من منازلهن والتصرف في أمورهن.

وارتجعت جواهر كان الحاكم وهبها وحلت إقطاعا أقطعها ورتبت الأمور ترتيبا أصلحها وهذبها.

وزارت ابن دواس في منزله وجعلت مصادر التدبير على يده.

فلما أحكمت ما أحكمته وأكدت ما أكدته أحضرت ابن دواس وقالت له: قد علمت ما بيني وبينك من المواثيق والعهود وأنا امرأة وإنما أريد هذا الملك لهذا الصبي وقد أحسن الله المعونة وأجرى الأمور على المحبة وأنت زعيم الدولة فيها والمنظور إليه منها وقد رأيت أن أنجز وعدك وأظهره وأرد إليك أمر السيادتين مضافا إلى الشرطتين وأجعل أمرك في الأمور والخزائن نافذا ورأيك في التقريرات والتدبيرات معتمدا إذ كنت المولى المخلص والشريك المخالط وأشرفك بخلع وحملان يظهر للخاص والعام بها موضعك ومحلك وتخصصك وتحققك.

فادخل الخزائن واختر كل ما تريد لفخامته ولجلالته واطلب يوماً تختار لتفاض فيه عليك الخلع ويقرأ العهد بتقليدك.

فلما سمع من ذلك ما سمع سر به وقبل الأرض شكرا عليه.

وشاع هذا الحديث فركب الناس إليه وهنئوه بالنعم المتجردة له.

وأحضرت السيدة بعد ذلك كاتب ابن دواس وقالت له: قد تقدمنا إلى سيف الدولة بما عرفته وبما اعتمد التخفيف فيما أطعمه أو وقف فيه دون الغاية التي نريدها وينبغي لك أن تعمل أنت تذكرة بجميع ما يستوفي فيه شروط المنزلة التي قدمناه إليها والحال التي أهلناه لها وتستظهر له لا عليه في ذلك وتحضرها لنقف عليها وننجز ما فيها.

فقبل الأرض وقال: السمع والطاعة.

فقالت له واكتب أيضا رقعةً واذكر فيها مبلغ جاريك لنوقع بإضعافه وقد أمرنا عاجلاً باعطائك ألف دينار وعشرين قطعةً ثياباً وبغلين بمركبين.

فأعاد الشكر والدعاء وصار إلى ابن دواس فأعلمه ما خوطب به وعومل به من حسن الاعتقاد فيه فتضاعف سروره بذلك ووافقه على ما كتب به

التذكرة من الثياب والسيوف المحلاة والمناطق المرصعة والدواب والمراكب الذهب الثقيلة وغير ذلك من أسباب التشريفات الزائدة وعاد الكاتب بها فعرضها وتقدم باعداد جميع ما فيها وكتب له العهد.

وأحضر ابن دواس وبنو عمه وكاتبه وامتلأ القصر بالخاصة والعامة وخرج معضاد الخادم وكان قريبا من السيدة وهو أستاذ الظاهر فحمل ابن دواس إلى الخزانة حتى يشاهد ما أعد له وكان عظيما جليلا وقال له: السيدة تقول لك إن أردت مزيدا فاطلبه فقبل الأرض ودعا وعاد فجلس في صفة على باب الستر ووجوه الدولة بين يديه وكل منهم يتطأطأ له ويعطيه من نفسه كل ما يتقرب إليه به.

فلما تعالى النهار خرج نسيم الصقلبي صاحب الستر والسيف وبين يديه مائة رجل تعرف بالسعدية يختصون بركاب السلطان ويحملون سيوفا محلاة بين يديه ويعرفون لأجلها بأصحاب سيوف الحلي وقد جرت عادتهم في أيام الحاكم بأن يتولوا قتل من يؤمر بقتله.

وقال لابن دواس: أمير المؤمنين يسلم عليك.

فقام وقبل الأرض وفعل الناس مثل ما فعله وقال: قد جعل هؤلاء القوم يعني أصحاب السيوف برسمك إكراما لك وتنويها بك.

فقبل الأرض ثلاثا ومرغ خديه ودعا هو والحاضرون للظاهر بما يدعى لمثله به ووقف القوم قياما بين يديه.

فعاد نسيم فألقى ما جرى فرسمت له السيدة أن يخرج ويضبط أبواب القصر بالخدم والصقالبة ففعل.

وقالت له بعد ذلك اخرج وقف بين يدي ابن دواس وقل: يا عبيد مولانا أمير المؤمنين يقول لكم هذا قاتل مولانا الحاكم.

واعله بالسيف وأمر العبيد السعدية بأن يقتلوه.

فخرج نسيم ومعه جماعة من الصقالبة وفعل ما أمر به وأخذ رأس ابن دواس ودخل به إلى حضرة السيدة فوضعه بين يديها.

فأمرته بإيفاد الصقالبة إلى دوره والتوكيل به والقبض على جميع أسبابه وقتل كاتبه وإخراج جثته ورميها على باب القصر ففعل جميع ذلك.

ولم يعترض فيه معترض وتفرق الناس.

وأحضر موجود ابن دواس فوجدت في بعض صناديقه السكين التي كان يحملها الحاكم في كمه أخذت عند قتله.

وأقامت جثة ابن دواس ثلاثة أيام ومناد ينادي عليها: هذا جزاء من غدر بمواليه ثم دفع إلى عبيده فدفنوه.

وقبضت السيدة بعد هذا على خطير الملك عمار بن محمد.

وكان يتولى ديوان الإنشاء وإليه زم المشارقة والأتراك وهو الواسطة بين الحضرة وبين هذه الطوائف ثم خلع عليه في جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة وأربعمائة ووقع عن حضرة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله على ما يوقع عليه الحاكم فجعل توقيعه: الحمد لله رب العالمين ثم قام بعد الحاكم بالبيعة لأمير المؤمنين الظاهر كما تقدم.

فيها خلع عليه للوساطة وكتب سجله بذلك وزال أمره في ذي القعدة من السنة المذكورة فكانت مدة سبعة أشهر وأياما وقتل في الحج.

وولى بعده بدر الدولة أبو الفتوح موسى بن الحسن وكان يتولى الشرطة السفلى ثم خلع عليه أولا بالصعيد في جمادى الآخرة سنة اثنتي عشرة ثم ولى ديوان الإنشاء عوضا عن ابن خيران وخلع عليه للوساطة في محرم سنة ثلاث عشرة عوضا عن خطير الملك.

سنة ثلاث عشرة وأربعمائة

ثم قبض عليه في العشرين من شوال منها في القصر فاعتقل وزال أمره وكانت مدة وساطته تسعة أشهر.

ثم أخرج في يومه مسحوبا وسجن ثم أخرج من الغد وقتل في الفج فوجد له من العين ستمائة وعشرون ألف دينار.

وقتلت السيدة جماعة ممن كان اطلع على سرها في قتل الحاكم وعظمت هيبتها في نفوس الأباعد والأقارب.

وفي سنة ثمان عشرة شرب الظاهر الخمر وترخص فيه للناس وفي سماع الغناء وشرب الفقاع وأكل الملوخية وسائر أصناف السمك فأقبل الناس على اللهو.

وكان قد ولى حلب غلام يعرف بأمير الأمراء عزيز الدولة أبي شجاع فاتك الوحيدي غلام منجوتكين في شهر رمضان سنة سبع وأربعمائة وكان أرمنيا دينا عاقلاً فولاه الحاكم بأمر الله حلب وأعمالها ولقبه أمير الأمراء وعزيز الدولة تاج الملة.

ودخل حلب يوم الأحد ثاني شهر رمضان منها وتمكن من البلد واستفحل أمره وعظم شأنه فعصى الحاكم ودعا لنفسه على المنبر وضرب السكة باسمه.

فمات الحاكم عقب ذلك.

فلاطفته السيدة وآنسته وواصلته بما مال إليه من حمل الخلع والخيول بالمراكب في سنة اثنتي عشرة حتى استمالت قلبه.

ولم تزل تعمل الحيلة حتى أفسدت عليه غلاماً له يعرف ببدر كان يملك أمره وغلمانه تحت يده وبذلت له العطاء الجزيل على الفتك به ووعدته أن تقيمه مقامه في موضعه.

وكان لعزيز الدولة غلام هندي يهواه ويحبه حبا شديدا فاستغواه بدر وقال له: قد عرفت من مولاك ملالاً لك وتغيراً منه فيك واطلعت منه على عزمة في قتلك ودفعته دفعات عنك لأنني لا أشتهي أن يتم مكروه عليك.

وتركه مدة ووهب له دنانير وثيابا وأظهر له المحبة وتوصل إلى أن خلابه ثم قال له: إن علم نبأ التعير عزيز الدولة قتلنا وما إشفاقي على نفسي وإنما إشفاقي عليك.

فقال له الصبي: فأي شيء أعمل يا مولاي قال: قد عرفت محبتي لك وإن ساعدتني اصطنعتك وأعطيتك وعشنا جميعا في خفض وأمن.

قال له: فارسم ما شئت حتى أفعله قال: تحلف لي حتى أقول لك فاستحلفه وخدعه ووافقه على قتل عزيز الدولة.

فقال له الصبي كيف أقتله قال: الليلة يشرب وسأزيد في سقيه حتى أسكره فإذا استدعاك على الرسم لغمزه ونام فقم كأنك تهريق ماء فخذ سيفه واضربه حتى تفرغ منه.

فقبل الصبي وصيته.

وكان عزيز الدولة في الصيد فلما عاد دخل الحمام وخرج منه فأكل ثم انتقل إلى مجلس الشراب وحضر من جرت العادة بحضوره من ندمائه ثم قام في آخر وقت وقد تبين فيه السكر والصبي بين يديه يحمل سيفه حتى وافى إلى مرقده واستلقى على فراشه وأمر الغلام أن يغمزه.

فلما مضى هزيل من الليل وثقل عزيز الدولة في النوم وتحقق الصبي ذلك سل السيف وضربه به وكان سيفا ماضيا ففلق رأسه وأتبع الضربة بأخرى فقتله.

ودخل بدر وشاهده ميتا فصاح واستدعى غلمان الدولة وأمرهم بقتل الصبي فقتلوه وحوط الخزائن والقلعة.

وشاع قتل عزيز الدولة وكان ذلك في ليلة السبت الرابع من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة.

وكتب بدر إلى السيدة بقتله فأجابته وأظهرت الوجد على عزيز الدولة وشكرت بدراً على ما كان منه في ضبط الأمر وحراسة الخزائن ولقبته وفي الدولة وقلدته موضع مولاه ووهبت له جميع ما حازه.

وكان سديد الدولة علي بن أحمد الضيف ناظرا بالشام فتلطف ببدر غلام عزيز الدولة حتى تسلم البلد منه والقلعة وولاها أصحاب الظاهر.

وسبب ذلك أن كتابا وصل إليه من الظاهر بخطه يطيب نفسه وأظهر هذا الكتاب في حلب في أيام الملك رضوان أخذه من بعض أهلها وكان في ورق إبريسم أسم عريض فيه ثلاثون سطرا بخط وسط.

وكان صدر الكتاب: عرض بحضرتنا يا بدر سلمك الله ما كتبت على يد كاتبك ابن مدبر وعرفنا ما قصدته ولم نسىء ظناً بك لقول فيك ولا شناعة ذكر.

وقد بعثنا بأحد ثقاتنا إليك وهو علي بن أحمد الضيف ليجدد الأخذ عليك.

فلما دخل ابن الضيف على بدر بالكتاب استرسل إليه وطرح القيد في رجليه فقبض عليه وأنزله من القلعة.

وأقام بحلب سنة.

وسلمها موصوف الخادم إلى أصحاب الظاهر وثقاته.

وفي سنة ثمان عشرة وأربعمائة في ذي الحجة والناس يطوفون بالكعبة قصد رجل ديلمي من الباطنية الحجر الأسود فضربه بدبوس فكسره وقتل في الحال وقتل معه جماعة ذكر أنهم كانوا معه وعلى اعتقاده الخبيث.

سنة أربع عشرة وأربعمائة

ولما تسلم بدر مدينة حلب من عزيز الدولة فاتك بقي بها سنتين ثم ملكها موصوف الخادم.

واستدعى منتخب الدولة أنوشتكين الدزبري من قيسارية فلما كان في الرملة خرج إليه توقيع بولاية فلسطين فدخلها في المحرم سنة أربع عشرة

فخافه حسان بن مفرج بن دغفل بن الجراح وجرت له معه وقائع وحروب انتصر فيها الدزبري على حسان وعظم أمره.

فسعى إلى به الوزير فقبض عليه بعسقلان.

وكان قد ولى الوزارة الأمير شمس الملك المكين الأمين أبو الفتح مسعود بن طاهر الوزان بعد قتل بدر الدولة أبي الفتوح موسى بن الحسن في المحرم سنة أربع عشرة ورد إليه النظر في الرجال والأموال.

فجرى له معه نجيب الدولة على رسمه فيما يتولاه من ديوان تنيس ودمياط والجيش الحاكمي ودواوين السيدة ست الملك ولا يكون لشمس الملك في ذلك نظر.

وبعث الظاهر رسولا إلى بلاد إفريقية فقدم مدينة المنصورية لأربع بقين من جمادى الأولى ومعه تشريف جليل لشريف الدولة أبي تميم المعز بن باديس وثلاثة أفراس بسروج ثقيلة وخلعة ومنجوقان قد نسجا بالذهب على قصب من الفضة وعشرون بندا مذهبة وسجل لقب فيه بشرف الدولة وعضدها.

فتلقاه شرف الدولة وقرئ السجل بجامع القيروان.

وأهل جمادى الآخرة سنة أربع عشرة وأربعمائة بيوم الثلاثاء ففيه خلع على أبي الفرج بن مالك بن سعيد ثوب وعمامة مذهبان ورداء محشى مذهب وحمل على بغلة بسرج ولجام محلى وقلد قضاء تنيس وسار إليها.

وخلع على أحد أولاد ابن جراح ثوب مثقف مذهب وعمامة طائرة وحمل على فرسين بسرجين ولجامين مذهبين.

وفي غده ركب الظاهر إلى نواحي القصور وعاد.

وفي ثالثه وصلت نحو المائة رأس من جهة ابن البازيار وشهرت.

وهلك محمد بن عبد الله بن المدبر بأخذ الخطير عمار في القصر.

وفي رابعه وكل بدكاكين الرواسين في جميع الأسواق وأخذ ما فيها من الرؤوس وكان قد طلب خمسمائة رأس وألف رطل رقاقا.

وفي سادسه جلس الظاهر للسلام ودخل الناس على رسومهم وانصرفوا.

وفي ثامنه جمع الناس كافةً إلى صحن الإيوان بالقصر وخرج رفق الخادم ومعه منشور وسجل فسلم المنشور إلى أبي طالب علي بن عبد السميع العباسي الخطيب فرقى المنبر وقرأه على الكافة.

فتضمن أن جماعة من أوغاد الأرياف يرتكبون الجرائم ويحتمون بأهل الدولة من الولاة.

فنهوا عن حمايتهم.

فلما فرغ من قراءته استدعى أبو عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم النرسي نقيب الطالبيين إلى الخزانة الخاصة فخلع عليه ثوب دبيقي مذهب مصفف بأطواق ومن تحته ثوب مصمت مذهب وغلالة مذهبة وعلى رأسه عمامة شرب مذهبة.

وخرج وفي يده سجل وفي تاسعه ركب الظاهر في عساكره إلى عين شمس وعاد.

وفي يوم الجمعة حادي عشره كان نوروز القبط وانتهت زيادة النيل فيه إلى أربعة عشر ذراعا وأصبع واحد.

وفيه خطب بجامع راشدة على منبره خطبتان في وقت واحد.

وذلك أن أبا طالب علي ابن عبد السميع خطب بهذا الجامع بعد سفر العفيف البخاري إلى الشام بأمر قاضي القضاة فسعى ابن عصفورة ببعض الخدام حتى خرج له الأمر بأن يخطب فخطبا معاً أحدهما دون الآخر.

ثم استقر أبو طالب في الخطاب وأن يخلفه ابن عصفورة.

وفي ثالث عشره ركب الظاهر لفتح الخليج وسد البلد إلى الصناعة فطرح بين يديه عشارى.

ثم سار على شارع الحمر إلى سد الخليج ففتح بين يديه ولعبت العشاريات فيه وكان يوما حسنا.

وكان عليه وقت نزوله إلى مصر قميص طميم مذهب وعلى رأسه شاشية مرصعة وعاد وعليه ثياب بيض دبيقية مذهبة وعمامة شرب مسكى مذهبة.

وفي ثاني عشريه وصلت هدية من المحدث بأسوان وهي عشرون فرسا وثمانون بختيا وعدة عبيد وإماء سودان وفهد وغنم نوبية وطيور ونسانس وأنياب فيلة.

وفي ثلاثة أيام آخرها سلخه انصرف ماء النيل انصرافاً فاحشا ولم ترو منه الضياع وكثر ضجيج الناس واستغاثتهم وخرج أكثرهم بالمصاحف منشورةً إلى الجبل يدعون الله فلم يغاثوا.

وتعذر وجود الخبز وازدحم الناس على شراء الغلال ووقف سعر التليس على دينار إلا أنه لا يوجد إذا طلب وأبيع سراً التليس القمح بدينارين والحملة الدقيق بدينارين وربع والخبز أربعة أرطال بدرهم وثمن الحمل الدقيق بعشرين درهماً وأهل شهر رجب بيوم الأربعاء.

وفي ثالثه توجه أبو القاسم بن رزق البغدادي في الرسالة إلى الحجاز.

وفي خامسه خلع على داوود بن يعقوب الكتامي ثوب مثقل وعمامة وقلد الحسبة والأسواق والسواحل فنزل في موكب عظيم وبين يديه اثنتا عشرة نجيبة تحيط به إلى مجلس الحسبة بمصر فنظر في الأسعار عوضا عن ابن غرة فاستقامت الأحوال.

وقلد ذو القرنين أبو المطاع بن الحسن بن حمدان الإسكندرية وأعمالها غربا وأمر ولده فاضل ولقب عظيم الدولة واستقر عوضه والي البلد.

وفيه قرىء بالإشراق سجل برفع المناكر وترك التظاهر بشيء منها وألا يخرج النساء من بعد العصر إلى الطرقات بالقرافة وأن تنزه هذه الأشهر الشريفة عن المناكير وألا يجتمع الناس كما كانوا يجتمعون بالجزيرة والجيزة وبالقرافة على شيء منها ومن المحظورات وأن يمنع الغناء ظاهرا إلا بالقضيب فإنه مباح.

وفي ثامن قلد محمد بن عبد الله بن مدبر ديوان الخراج شركةً.

وركب الظاهر إلى مسجد تبر وعاد.

وفي غده تعذر وجود الخبز وأمر ببله في الماء في القصارى قيل وبيع ثلاثة أرطال بدرهم ثم وجد.

وفتحت مخازن جماعة من أهل الدولة.

سنة خمس عشرة وأربعمائة أهل المحرم بيوم السبت.

وفي تاسعه أخذ رجل يقال له أبو زكريا كان نصرانيا فأسلم وكتب الحديث وقرأ القرآن وحج ثم ارتد إلى النصرانية وقال: ما عمل فيّ سحر نبيكم فضرب عنقه بعد ما ثبت عليه هذا.

وفي ثالث عشره أخذ كتابي يعرف بأحمد بن طاطوا وعليه أثر السفر فزعم أنه ورد من الكوفة وأنه كان مع الحاكم بأمر الله أرسله إلى الناس لينتهوا عما هم عليه فضرب عنقه.

ولسبع عشرة بقيت منه سار أبو القاسم بن رزق البغدادي إلى صقلية بسجل وهدية فيها مغنيات من القصر.

وفيه ركب الظاهر إلى نواحي عين شمس وعليه ثوب بنكي أحمر معلم مذهب على رأسه عمامة شرب بنكي مذهب وعاد.

ولعشر بقين منه امتنع شمس الملك الأمين المكين أبو الفتح مسعود بن طاهر الوزان من النظر في الوساطة حنقا من الشريفين العجميين.

لأنهما يتوليان الأمر دونه ومكاتبة أعمال الشام وغيره وقراءة التخريج وعرض كتب البريد وكتب المطلقات وأقام في داره ثلاثة أيام.

فاستدعاه الظاهر وأمره بالعود إلى خدمته فعاد إلى النظر وجلس على رسمه على باب الذهب يأمر وينهي.

ولخمس بقين منه كان ثالث فصح النصارى فاجتمع بقنطرة المقس من النصارى والمسلمين في الخيام المنصوبة وغيرها خلق كثير طول نهارهم في لهو وتهتك قبيح واختلط الرجال بالنساء وهم يعاقرون الخمر حتى حملت النساء في قفاف الحمالين من شدة السكر فكان المنكر شديدا في هذا اليوم.

وركب الظاهر في موكب إلى المقس بعمامة شرب مفوطة بسواد وثوب دبيقي مدير بسواد فدار هناك طويلا وعاد.

ولثلاث بقين منه ورد من أهل الريف زيادة على خمسة آلاف رجل فارين من عدة الدولة وعمادها رفق الخادم متولى السيارة بأسفل الأرض لعسفه.

وقدم الخبر باجتماع العرب الهلاليين والكلابيين وبني قرة وجهينة على الخارجي بالصعيد وبعث حيدرة بن نقيايان متولى الصعيد يطلب عسكرا فسير إليه خلق من العبيد والباطلية والبرقية وغيرهم.

وأهل صفر وأوله الاثنين.

في ثلاث قدم الحاج وفيه خلائق من أهل خراسان معهم أمتعة ورسول صاحب خراسان بهدية إلى الظاهر فأكرم وأنزل.

وكان من خبرهم أن حاج خراسان تأخر عن الحج في سنتي عشرة وإحدى عشرة فاستغاث الناس بالسلطان يمين الدولة أبي القاسم محمود بن سبكتكين فتقدم إلى قاضي مملكته أبي محمد الناصحي في الحج ونادى بذلك في أعمال خراسان وأطلق للعريان ثلاثين ألف دينار سوى ما سيره للصدقات فساروا وحجوا وعادوا سالمين.

ثم حجوا بعد ذلك في سنة أربع عشرة ومنهم أبو علي الحسن بن محمد المعروف بحسنك صاحب عين الدولة والخصيص به وفي مهمته ما يدفع

إلى العرب في طريق مكة وغيرها من رسومهم فدفع كل من استضعفه ووعد من قوي جانبه وخيفت أذيته بإزاحة علتهم عند مرجعه واحتج عليهم بالوقت وضيقه وخيفة الفوت فأخروا مطالبته.

فلما قضي الحج وعاد ممن معه إلى المدينة النبوية اجتمع هو وأبو الحسن محمد بن الحسن الأقساسي العلوي أمير الحاج البغدادي وعدة من وجوه الناس للنظر في أمر العرب فاستقر رأيهم على السير إلى الرملة من وادي القرى والمضي على الشام إلى بغداد.

فساروا إلى الرملة وقدم الخبر بقدومهم إليها على الظاهر في ثاني عشر صفر وقالوا إنهم في ستين ألف جمل ومائتي ألف إنسان بكتاب بعث به إليه الأقساسي يستأذنه فيه على عبور بلاد الشام.

فسر بذلك وكتب إلى جميع ولاة الشام بتلقيهم وإنزالهم وإكرام مقدمهم وعمارة البلاد لهم بالطعام والعلف وإطلاق الصلات للفقهاء والقراء وإقامة الأنزال الكثيرة لحسنك صاحب عين الدولة والتناهي في إكرامه.

وتقدم إلى مقدمي عساكر الشام بحفظهم والمسير في صحبتهم وأن يتسلمهم صالح بن مرداس من دمشق ويوصلهم الرحبة ويدفع إلى الأقساسي ألف دينار وعدةً كثيرة من الثياب وإلى حسنك مثل ذلك وقيد إليه فرس بمركب ذهب.

فساروا من الرملة موقورين مجبورين شاكرين حتى وصلوا إلى بغداد وعرج حسنك عنها خوفا من الإنكار عليه.

فاشتد ما فعله الظاهر على الخليفة القادر بالله وأنكر عودتهم على الشام وصرف الأقساسي عما كان إليه وقبضه وأنكر على حسنك وكتب فيه إلى عين الدولة واستدعى منه الفرس والقماش والخلع الواصلة إلى حسنك لتحرق ببغداد فبعث بها في جمادى الآخرة سنة ست عشرة فأحرقت بمحضر من الناس وسبك الذهب وفرق على الفقراء وغنم الظاهر حسن الثناء عليه من حاج خراسان وما وراء النهر لما كان من إحسانه إليهم وزيارتهم بيت المقدس.

وفي ثاني عشره وافى عماد الدولة رفق من السيارة بعدة عظيمة وثلاثمائة رأس من الخيل والبغال فإنه أخذ كل فرس وجده وبين يديه سبعون بنداً مذهبة وعشرون منجوقاً فتلقاه جميع أهل الدولة.

وكانت عدة من قتله في هذه السفرة وهي خمسة وثلاثون يوما مائتين وثلاثة أنفس.

وقدم زين الملك إبراهيم بن علي بن مسعود مصروفا عن مدينة منور فتلقى وأكرم.

وفي سادس عشره ركب الظاهر إلى ناحية عين شمس وعاد.

وقدم الخبر من حسن بن جعفر الحسني أنه أقام الدعوة للظاهر بعرفات وغيرها ومنع أهل خراسان من الدعوة لصاحبهم.

ولثلاث عشرة بقيت منه ركب الظاهر إلى المشتهى ودخل حمام نجاح الطولوني ثم ركب العشاريات في النيل إلى المعتوق بالكوم الأحمر وقطع له الجسر حتى عبره ثم عاد إلى القصر.

وفي يوم الجمعة لإحدى عشرة بقيت منه جمع الناس كافة إلى الإيوان بالقصر فلما اجتمع الناس في صحن الإيوان خرج القائد أبو الفوارس معضاد الخادم الأسود وعليه ثوب طميم حسن وعلى رأسه عمامة شرب طائرة كثيرا بالذهب محرق اللون ومعه سجل قرىء على العامة والخاصة بتلقيبه بالقائد عز الدولة وسنانها أبي الفوارس معضاد الظاهري وأن أمير المؤمنين لقبه وكناه وهو سجل بليغ.

ثم حمل بعد قراءته على أربعة من الخيل بسروج مصفحة ثقال وعليه سيف ذهب تقلد به وخرج جميع المصطنعة وسائر القواد والناس معه إلى داره فكان يوما حسنا.

وفيه ورد الخبر بأن الثائر الذي قام بالصعيد الأعلى أنزل حيدرة بن نقيايان حتى حصل في يده وكان شريفاً حسنيا فأقر أنه قتل الحاكم بأمر الله في جملة أربعة أنفس تفرقوا في البلاد فمنهم من مضى إلى برقة ومنهم من مضى إلى العراق وأنه أظهر له قطعة من جلد رأسه وقطعة من الفوطة التي كانت عليه.

فقال له حيدرة ولم قتلته فقال: غرت لله وللإسلام فقال: وكيف قتلته فأخرج سكينا فضرب بها فؤاد نفسه فمات بعدما قال هكذا قتلته.

فقطع حيدرة رأسه وأنفذه إلى الحضرة مع ما وجده معه.

وقدم الخبر بوقوع الحرب بين بني قرة ببرقة.

ولعشر بقين منه جلس الظاهر في قصر الذهب بعد أن زين وبسط وعلقت فيه الستائر الديباج والستور المذهبة وعلق جميع السقائف كلها بالستور وفرشت بالفروش.

وحضر أمراء الأتراك وقد لبسوا أفخر ثياب من المثقل والطميم وحضر جميع الكتامیین وسائر الجند ودخل الناس أجمعون ووقف شمس الملك مسعود بن طاهر الوزان على يمين السرير وبقية الناس وكافة عبيد الدولة قيام فلم يجلس أحد.

وجي بالرسول الوارد من خراسان ومعه ابن له صغير فقبل التراب للظاهر ثم أمر أن يطوف به القصر كله فطاف جميع القصور المعمورة وقام الظاهر وانصرف الناس.

ولثمان بقين منه أهدى هذا الرسول إلى الحضرة المطهرة نحو خمس عشرة ناقة محملة ورقاً طلحا وإهليلجا وغير ذلك فقبل منه.

ولسبع بقين منه تسلم ديوان الكتامیین من الأمير شمس الملك مسعود بن طاهر الوزان ورد النظر فيه إلى القائد عز الدولة معضاد فاستخدم في تدبير أمواله أبا اليسر اصطخر بن مينا الأسيوطي شركةً بينه وبين صدقة بن يوسف الفلاحي اليهودي الوافد ونظر هو في أمر رجاله وفي التوقيع في أيامهم.

ثم بعد أيام أخذ من شمس الملك بعض إقطاعه وقبض منه ورد إلى يمين الدولة سعادة وبقيت في يده بقية الأعمال.

وفي هذا الشهر سار ذو القرنين ابن حمدان إلى دمشق.

شهر ربيع الأول أوله الثلاثاء.

في خامسه وصلت هدية والي الفيوم وهي مائة وخمسون فرسا بأجلة.

وفي سادسه خرج الأمر لابن خالد الغرابيلي متولى ديوان البريد بأن يسلم إلى صاحب ديوان الشام جميع ما يرد من حساب الشام ورفعت يد شمس الملك عنه.

ورسم أن يكون الشيخ العميد محسن بن بدواس زماماً على أبي عبد الله محمد بن أحمد الجرجرائي في ديوان الشام مفرداً عن نظر شمس الملك كما أفرد ديوان الكتامیین عن نظره.

فصارت هذه العصبة منفردة بمعضاد في التدبير والتقرير وهم الشريفان العجميان والجرجرائيان عصب الدولة أبو القاسم علي بن أحمد وأخوه أبو عبد الله محمد بن أحمد ومحسن بن بدواس وابن خيران.

وفي رابع عشره خلع على جناح بن يزيد الكتامي وحمل على فرسين وقلد طبرية.

وفي سابع عشره ركب الظاهر وعاد.

وفي هذا الشهر اشتد غلاء القمح وبيع التليس بثلاثة دنانير والشعير بأربع ويبات بدينار والخبز رطلين ونصفا بدرهم.

وعز وجود التبن فأبيع الحمل بدينار وغلت أصناف الحبوب وعامة ما يؤكل.

ولم ير النيل فيما تقدم من السنين أقل نقصانا منه في هذه السنة.

وفي ثالث عشريه ركب الظاهر إلى مسجد تبر وعاد.

وفيه نزل القائد الأجل معضاد والشيخ العميد أبو القاسم الجرجرائي ومحسن بن بدواس صاحب بيت المال إلى مصر فأثبتوا تركة بنت أبي عبد الله بن نصر امرأة أبي جعفر بن قائد القواد الحسين بن جوهر فوجد فيها وبرادات مكللة بالجوهر وأمر جليل من المال والجوهر لأن للسلطان منها الثلث.

وفي هذا الشهر أمر ببناء حظير دائر على مقياس النيل بالجزيرة ووكل به الشريف أبو طالب محمد بن العجمي متولى الصناعة فبناه بالحجر الأبيض وأنفق عليه مالا كثيرا.

ونقل إليه الحجر من حظير كبير كان مبنيا على الشاطىء بناحية طرا.

وفيه دخل كلب إلى الجامع العتيق بمصر فطاف بالجامع بأسره فقام إليه الناس وقتلوه في الصحن فجرى دمه على الحصر فغسلت بعد إخراجه من الجامع.

وقد وصلت هدية من بلد النوبة فيها عبيد وإماء وخشب أبنوس وفيلة وزرافات شهر ربيع الآخر أوله الخميس.

في رابعه ورد الخبر بأن عبد الله ابن إدريس الجعفري ومعه أحد بني جراح طرق أيلة ونهبها وأخذ منها نحو الثلاثة آلاف دينار وغلالا وسبى النساء والأطفال.

وسبب ذلك أنه سأل حسان بن جراح أن يرد إلى ولايته على وادي القرى ورغب أن يتوسط له مع الظاهر فلم يجبه ففعل ما فعل.

فخرجت سرية من القاهرة لحربه.

وفيه نزل الظاهر إلى البيمارستان متنكرا في عبيده فطافه وأطلق لكل من المجانين خمسين درهما وللقيم عليهم خمسمائة درهم ورسم بعمارته

وإجراء الماء إليه على رسمه وأن يطبخ للمجانين كل يوم ما يأكلونه بعد أدويتهم.

وفي ثامنه قدم الخبر بنهب عبد الله بن إدريس بلد العريش وإحراقه وأخذ جميع ما كان فيه بمعاونة بعض أولاد ابن جراح.

وفيه اجتمع في قافلة المغرب خلق من التجار ومعهم من الأموال قريب من مائتي ألف دينار بالجيزة فأنذروا بطائفة من العبيد والجوالة والقيصرية قد تجمعوا لنهبهم فبعث معهم نحو ثلثمائة فارس وأربعمائة راجل وساروا إلى المغرب.

وفي ثامن عشره جلس الظاهر للناس في المجلس الذي كان يجلس فيه أبوه بقصر الذهب ودخل الناس إليه من باب العيد على طبقاتهم.

ودخل ناصر الدولة حسين بن الحسن ابن حمدان متولى طرابلس وقد صرف عنها فتلقى بالبنود وعدتها أربعون بنداً ملونة وخمس بنود مذهبة وعدة من الطبول فقبل التراب ثم قبل يد الظاهر هو والشريف الحسني ابن موسى المقيم بدمشق ووقفا فأمرا بالجلوس على يسار القائد معضاد فجلسا.

ثم انقضى السلام وانصرف الناس.

فلما كان وسط النهار نزلت طائفة من جواري القصر في طائفة من الخدم إلى دار الجوهر ودار الصرف ودار الأنماط فابتاعوا ما أحبوا وعادوا.

ولسبع بقين منه ركب الظاهر بغير مظلة في عساكره ومراكبه إلى مسجد تبر وعاد ثم نزل عقب ذلك مختفيا إلى الجزيرة والبساتين.

وركب من الغد في العشاريات إلى الجيزة وما والاها وعاد.

وفي عشية السبت لست بقين منه غرق حدث في النيل فطرده الماء إلى الشط وأراد أهله حمله فمنعهم أصحاب الشريف أبي طالب العجمي متولى الصناعة من ذلك وطالبوهم عنه بدينارين وقيراطين واجب الصناعة من حق من غرق في النيل فدفع إليهم ذلك وحمل الرجل حتى غسل ودفن في يوم الأربعاء.

ولليلتين بقيتا منه جلس الظاهر في قصر أبيه بباب الذهب على سريره المصقول المذهب وعليه ثوب دبيقي معلم وعمامة شرب مثقل مذهبة وتحته فرش دبيقي مذهب ودخل الناس من باب العيد فسلموا وجلس من عادته الجلوس ساعة ثم انصرفوا.

وفي هذا الشهر ارتفع السعر من أجل أن المراكب الواصلة بالقمح أخذت كلها ورفعت إلى القصر من المقس.

وفيه طاف العامة والسوقة أسواق مصر بالطبول والأبواق يجمعون من التجار والباعة ما ينفقونه في مضيهم إلى سجن يوسف فقيل لهم شغلنا بعدم الأقوات يمنعنا عن هذا.

فأنهوا حالهم إلى الظاهر فرسم لشافي الدولة أبي طاهر بن كافي متولي الشرطة السفلى بتقرير الرسم على التجار حتى يدفعوا إلى العامة ما جرت به رسومهم وأذن لهم في الخروج إلى سجن يوسف ووعدوا أن يطلق لهم الظاهر ضعف ما أطلق لهم في السنة الماضية من الهبة فخرجوا.

شهر جمادى الأولى أوله الجمعة.

فيه ركب الظاهر مبكرا مع حرمه وخدمه إلى المشتهى فأقام يومه.

وفي ثالثه ركب بعساكره إلى عين شمس وعاد.

وكان الشريف أبو طالب بن العجمي صاحب الصناعة قد تنكر على ابن أبي الرداد وأهانه وتقابحا في الخطاب فضربه الشريف واعتقله.

فأقام قاضي القضاة أبو العباس أحمد بن أبي العوام مشارفين على ابن أبي الرداد لسؤاله القاضي في ذلك وهما أبو الحسن سليمان بن رستم والخليل بن أحمد بن خليل لينهيا إليه ما يصح من أمر المقياس فوجدا مجاري الماء مسددة ووجدا ابن الرداد يتناول في كل سنة خمسين ديناراً لكنس المجاري ووجدا الماء قد انتهى إلى حد فلما فتحت المجاري طلع الماء إلى حد أكثر من الحد الذي كان عليه وفي رابعه نزل صقلبي من صقالبة القصر بمنشور معظم إلى قاضي القضاة وهو بالجامع العتيق فأمره بقراءته على المنبر فأراد أبو طالب علي بن عبد السميع العباسي أن يتولى قراءته دون أخيه أبي جعفر وهو الأكبر وقد صرف عن قراءة السجلات وليس له إلا خطابة الجامع العتيق.

فقال له أبو جعفر: ويحك: ما تحتشم مني لسني ولأنني أخوك الأكبر ولأنني هرعت لمولانا الحاكم بأمر الله قدس الله روحه وقدهم بضرب عنقك حتى خلصتك من القتل وضمنت له عنك التوبة والإنابة!! فدفع القاضي السجل إلى أبي جعفر فقرأه فوق المنبر على كافة الناس.

ومضمونه أنه انتهى إلى أمير المؤمنين أن المستخدمين في الصناعة يعتمدون تعويق من ينزل البحر من الناس ويمنعون القوارب من إنقاذ من يلتمس الخلاص منهم ليأخذوا على ذلك واجباً قد أقامه متولى الصناعة

محمد الحسيني العجمي على كل غريق دينارين ونصفا وأن ذلك لما أنهى إلى حضرة أمير المؤمنين أنكره وأكبره ومنع من أخذ درهم واحد فما فوقه عما هذا سببه والمنع منه.

فكثر الدعاء للظاهر.

وفي ثامنه ركب الظاهر في خاصته وخدمه إلى الرميلة بظاهر المقس فطاف طويلا ثم عاد.

وفي تاسعه ركب القائد الأجل عز الدولة ومصطفاها معضاد الخادم الأسود في جميع الأتراك ووجوه القواد وشق مدينة مصر إلى الصناعة ثم خرج منها وعدى بمن معه إلى الجيزة حتى رتب للظاهر عسكرا يقيم معه هناك وأخذ في يوم الاثنين حادي عشره أربع عشاريات وأربعة عشر بغلا من بغال النقل ومعه خاصته وحرمه إلى سجن يوسف.

وعاد منه يوم الأربعاء وأقام أهل الأسواق نحو الأسبوعين يطوفون الشوارع بالخيال والسماجات والتماثيل ويطلعون إلى القاهرة بذلك يرسم أمير المؤمنين ويعودون ومعهم سجل قد كتب لهم بألا يعارض أحد منهم في ذهابه وعودته.

ولم يزالوا على ذلك إلى أن تكامل جميعهم.

وكان دخولهم من سجن يوسف في سادس عشره فشقوا الشارع بالخيال والسماجات والتماثيل وتعطل الناس في ذلك اليوم عن أشغالهم ومعايشهم واجتمع خلق لنظرهم.

وظل الناس أكثر هذا اليوم على ذلك وأطلق لهم ثمانية آلاف درهم وكانوا في اثني عشر سوقا.

وفي عشريه قتل طائفة من القيصرية غلاما من الأتراك فركب الأتراك بالسلاح وقاتلوا القيصرية فتكافوا ولم يجسر أحد منهم على الإيقاع بصاحبه.

وفي ثاني عشريه ركب الظاهر النيل ومضى إلى بستان السيدة العمة ثم إلى خيمة وردان لأنهم مقيمون في الجزيرة للتنزه هناك.

ولم تزل العشاريات تلعب في البحر الليل كله والمسرة متصلة بينهم فقدم في آخر النهار مركب يحمل حطبا من الصعيد فقلب نوتيته وقطع الجسر وغرق مركبان منه وقطع ثلاث قطع وغرق عشاريان بمن فيهما.

وفي هذا الشهر كوتب أبو الحارث نقيان بن محمد بن نقيان الخيملي متولى حرب تنيس ودمياط بالمسير إلى حلب ليتسلمها عوضا عن محمد سند الدولة أبي محمد الحسن ابن محمد بن نقيان الكتامي عند وصول هديته إلى الحضرة فسار.

وكان من خبر مدينة حلب أن عزيز الدولة فاتكا لما قتل وأقيم من بعده غلامه بدر مكانه ثم قبض عليه علي بن الضيف وأقام بحلب سنة وولى سند الدولة أبو محمد الحسن بن نقيان فنزل صالح بن مرداس الكلابي على حلب ونازلها وقد كره الناس ابن نقيان وموصوفاً الخادم لسوء سيرتهما فسلموا البلد إلى صالح.

والتجأ ابن نقيان وموصوف إلى القلعة وتحصنا بها فاستخلف صالح على مدينة حلب أبا منصور سليمان بن طوق ومضى إلى بعلبك فملك قلعتها بعد حرب وقتل جماعة من أصحاب الظاهر.

واجتمع هو وحسان بن جراح وإخوته وسنان ابن عليان على فلسطين وتحالفوا على اجتماع كلمتهم ومحاربة الظاهر وتقاسموا البلاد كما سيأتي ذكره إن شاء الله.

وأما ابن طوق فإنه حصر قلعة حلب حتى أخذها بمباطنة من أهلها وأمسك ابن نقيان وموصوفا فقتل ابن نقيان في يوم الخميس لثمان بقين من ربيع الآخر من هذه السنة واعتقل موصوفا.

فركب أبو الحارث بن نقيان البحر من تنيس إلى طرابلس ودخل حلب يوم الأحد سابع عشري جمادى الأولى هذا وملكها وسمى سابق الدولة أبو طاهر بن كافي متولي الشرطة السفلى بمصر من قبل بدر الدولة بأخذ تنيس ودمياط واستخلف أخاه جلال الدين على الشرطتين العليا والسفلى من قبل بدر الدولة.

وفي رابع عشريه ركب الظاهر إلى طرف الخندق وعاد ثم ركب من الغد إلى مسجد تبر وعاد.

شهر جمادى الآخرة أوله الأحد.

فيه جلس الظاهر للناس للسلام عليه فدخلوا على رسومهم فسلموا وانصرفوا.

وفي رابعه ركب إلى مسجد تبر في عساكره وعاد فطلب الببغاء من الطيور فحمل إليهم منها شيء كثير فابتاع ما أحب بأوفر الأثمان.

وفي ثامنه جلس للسلام فدخل الناس فسلموا وانصرفوا ثم ركب إلى المشتهى.

وركب في ثاني عشره إلى مسجد تبر في مواكبه فلقيه عند سقاية ريدان خادم أسود يقال له عنبر كان مقربا للحاكم بأمر الله كثر كلامه فطردته السيدة فقال: يا أمير المؤمنين خذ لنفسك فوحق ما في هذا المصحف وأخرج مصحفا إن أباك باق وبعد قليل يجيء إلى قصره وقد نصحتك.

فقبض عليه واعتقل وقيل إنه اختل عقله.

وفيه قرر الشريف الكبير أبو طالب الحسني العجمي القزويني والشيخ نجيب الدولة أبو القاسم علي بن أحمد الجرجرائي والشيخ العميد محسن بن بدواس مع القائد الأجل معضاد أن يكون دخولهم على الظاهر الأخير في كل خلوة وأنهم يكفونه أمر الاهتمام بالدولة ليتوفر على لذاته وينفردوا بالتدبير.

واستقر أمر الثلاثة على الدخول في كل يوم على الانفراد وألا يستدعي معهم أحد.

وصار شمس الملك مسعود بن طاهر الوزان ومظفر صاحب المظلة وولى الدولة ابن خيران وداعي الدعاة ونقيب نقباء الطالبيين وقاضي القضاة ربما دخلوا في كل عشرين يوما مرة وهؤلاء الثلاثة الذين يقضون ويمضون ويشيرون ويفعلون في أمر الدولة ما يرونه مع اجتماعهم بمعضاد دون كل أحد.

وفي سابع عشره ركب الظاهر في العساكر ورجال الدولة بأحسن زي وأكمل عدة وركب عبيد الدولة بالآلات والسلاح والطريقة الحسنة والعدة الكاملة.

وشق شارع مصر إلى صناعة الجسر وعليه ثوب طميم مثقل وعمامة مذهبة طميم وعلى رأسه مظلة حمراء مثقلة مذهبة فغير ولبس ثوبا دبيقيا أبيض مذهبا وعمامة شرب بيضاء مذهبة وركب فرساً كميتاً وقف عند الصناعة ووجد الجد في طرح مركب حربي جديد فتعذر طرحه فتركه وسار لفتح الخليج.

فورد الخبر بأن سيار الضيف متولى سد الخليج أمر بتخفيضه ليقرب أمره عند حضور أمير المؤمنين لفتحه فغلبه الماء وانكسر السد.

فلما وصل الظاهر إلى السد وقف بجانبه الشرقي وعبرت العشاريات مزينةً على العادة ولعبت ثم عاد إلى قصره فكان من الأيام المشهودة.

وفي تاسع عشره نودي في مدينة مصر بألا يتعرض أحد لذبح شيء من الأبقار بوجه ولا سبب فإن من تعرض لذلك حل دمه وماله لأن الناس عدموا العوامل في هذه السنة وكانوا على عادتهم في ابتياع الفواكه والخمور والحيوانات إلا أن أمرهم في ذلك كان أقل للغلاء وتعذر الأصناف.

وضرب فيه بالأجراس في آخر النهار ألا يلعب أحد بالماء ببلد مصر في يوم النوروز ولا في القاهرة.

فطلع الجزارون يستغيثون في منعهم من ذبح الأبقار وأن عندهم منها ما ابتاعوه وأنفقوا عليه في علفه حمل الدنانير وليس هو ما يعمل ولا يصلح للزراعة فإن الرأس من البقر يقوم عليهم بمائة دينار وأكثر.

وسألوا الإذن في ذبح ما عندهم فأجيبوا إلى ذلك.

وذبحوا في هذه الثلاثة الأيام ما لا يحصى كثرة وبيع بطن البقر ولحمه رطلا بدرهم وازدحم الناس في طلبه.

فلما كان آخر نهار الثلاثاء رابع عشريه وهو رابع النوروز أحضر المحتسب الجزارين والهراسين ومنعهم من ذبح الأبقار فانقطع بيع لحمها من الأسواق.

وفي خامس عشريه ركب الظاهر إلى مسجد تبر في عساكره وعاد.

شهر رجب أوله الاثنين.

في ثانيه ركب الظاهر إلى نواحي القصور وعليه عمامة ياقوتية مذهبة وثوب دبيقي بياض مذهب بغير مظلة وعاد.

وفيه قدم الخبر بأن منتخب الدولة أنوشتكين الدزبري متولى حرب فلسطين أنفذ إلى بيت جبرين إقطاع حسان بن جراح من قبض على أمواله فبعث إلى أعوان الدزبري وأخذهم وضرب أعناقهم.

فلما بلغ ذلك الدزبري قبض بالرملة على أبي الغول الحسن بن فيروز صاحب حسان وعلى كاتبه وسجنهما في حصن يافا مقيدين.

وفي رابعه زين العامة أسواق البلد وخلقوا وجوه الصبيان ونادوا بوفاء النيل ستة عشرة ذراعا فخلع على ابن أبي الرداد خلعا دبيقية مذهبة ورداءً محشواً مذهبا وعمامة شرب مذهبة وحمل على بغلين بسرجين ولجامين مذهبين أحد السرجين مصفح وأعطى ست عشرة قطعة ثياب وثلاثة آلاف درهم.

وبلغ الماء اصبعين من سبعة عشر ذراعا فكان يوما حسنا كثر فيه سرور الناس.

وفيه خلع على بقي الخادم الأسود غلام بدر الدولة نافذ ثوب مثقل طميم وعمامة قاضي مذهبة وسيف ذهب وقلد الشرطتين بمصر وحمل على فرس بسرج ولجام مذهب عوضا عن جلال الدولة ابن كافي.

ونزل إلى الشرطة السفلى في جمع كثير فنظر في الحسبة مضافا إلى الشرطتين وأمر أن يباع الخبز الجشكار كل خمسة أرطال بدرهم والحواري أربعة أرطال بدرهم.

فغلقت الطواحين والحوانيت جميعها وأصبح البلد يوم الجمعة خامسه على حال صعبة من تعذر الأخبار وعدم الدقيق.

فلما كان غداةً يوم السبت سادسه أعيد دواس بن يعقوب الكتامي للحسبة وصرف بقي عن الحسبة والشرطة فأقام يوما واحدا وانصرف.

ونودي أن يكون الخبز الذي يباع في الأفران خمسة أرطال بدرهم وتباع بقية الأخباز بغير تسعير فظهرت الأخباز بالأسواق وبيع الخبز السميد رطلين ونصفاً بدرهم وما دونه ثلاثة أرطال بدرهم.

وفي عاشره ركب الظاهر إلى نواحي القصور بغير مظلة وعاد.

وكانت ليلة النصف من رجب ليلةً مشهودة حضرها الظاهر والسيدات وخدم الخاصة والمصطنعة وغيرهم وسائر العوام والرعايا وكان مجمعا لم يشهد مثله من أيام العزيز بالله.

وأوقدت المساجد كلها أحسن وقيد.

وفيه ورد الخبر بأن حسان بن جراح خرج عن الطاعة.

وكان سبب ذلك أنه فسد ما بينه وبين الدزبري واستوحش كل واحد من الآخر فكتب الدزبري إلى الظاهر يذكر له تغير حسان في خدمته وفساد نيته في طاعته ويستأذنه في حربه فكان ما تقدم ذكره.

ثم اتفق أن اعتل حسان علة أشفى منها وكثر الإرجاف به فيها وكتب أصحاب الأخبار بذكرها إلى الظاهر فكاتب الدزبري بقصده وانتهاز الفرصة في أمره فسار إليه وهو بناحية نابلس.

فبلغ حسان عن سيره وقد أبل من مرضه فاستنهض أهله وأصحابه وجمع نحواً من ثلاثة آلاف فارس وتلقى الدزبري فعاد إلى الرملة وحسان في

إثره فحصره واستدعى رجاله من الجبال والشراة إليه فصار إليه منهم عدد كثير.

وقاتله الدزبري على باب الرملة ثلاثة أيام بلياليها بعد ما كبس حسان طبرية ونهبها وقتل من بها وفر منها متوليها مجد الدولة فتاح بن بويه الكتامي إلى عكا.

فبلغ حسان عن أخيه ثابت أنه انتهى إلى الدزبري فبعث جريدة كبست حلة ثابت ونهبتها.

وفيه أفرد صدقة بن يوسف الفلاحي بالنظر في ديوان الكتاميين.

وأقام الظاهر أياما لم يركب ولم يدخل إليه أحد.

وفي حادي عشريه ورد الخبر بأن حسان بن جراح اجتمع مع سنان بن عليان بن البنا وانضم إليه سائر إخوته وساروا جميعا بظاهر فلسطين فقابلهم الدزبري كما تقدم إلى أن فارقه ثابت بن جراح ولحق بأخيه حسان.

وقدمت نجدة من صالح بن مرداس لحسان فبعث الدزبري يطلب من الظاهر نجدةً بألف فارس وألف راجل فجردت جماعة يسيرة ودفع إلى كل فارس أربعون دينارا فاشتملت الجريدة على ألفي فارس وراجل تولى النفقة فيهم معضاد الخادم والشريف العجمي ونجيب الدولة الجرجرائي.

فلم يخرج من الجريدة إلا طائفة يسيرة مضوا إلى العريش وبطل أمر من تجرد بعد ذلك.

وسعي بمحسن بن بدواس بأنه كاتب حسان بن جراح يحرضه على الفتنة وكاتب ملك الروم وفي ثاني عشريه ورد الخبر بأن الدزبري غلب عن مقاومة حسان ففر من الرملة آخر الليل في عشرة من الغلمان الأتراك وسار في ليلته إلى قيسارية.

وذلك أن حسانا هجم برجاله على بعض حوانيت الرملة وطرح النار ووضع السيف ثم دخل بجموعه بعد فرار الدزبري إلى المدينة فنهبوا الأموال واستباحوا الحرم وقتلوا القتل الذريع.

وعندما دخل حسان إلى المدينة ترجل من باب البلد وقبل التراب من باب المدينة إلى دار الإمارة ثم أحضر القاضي وشيوخ فلسطين وأشهدهم أنه عبد الدولة وخادمها وصنيعتها وداخل تحت طاعتها وأنه لا يبدأ أحداً من أهل البلد بسوء وإنما كره مقام الدزبري في الرملة وذكر سوء ما عامله به وأن

ذلك أوجب قتاله وأن البلد لأمير المؤمنين يولي فيه من رغب فيه من عبيده فيسمع له ويطيع ويخدمه طاعة لله ولمولانا صلوات الله عليه.

وأقام نصر الدين نزال واليا على الرملة وقال هذا عبد أمير المؤمنين وابن عبده يضبط البلد إلى أن يصل أمر أمير المؤمنين.

فخلع على القادم بهذا الخبر وكثر السرور به.

وفي ثالث عشريه خلع على سني الدولة حمد ابن أخي الباهر وقلد سيارات أسفل الأرض عوضا عن عدة الدولة بقي الخادم الأسود وحمل على فرس بسرج مصفح مغموس وألبس عمامة مذهبة وثوبا طميما.

وفي آخره ورد الخبر بأن حسان بن جراح إنما أظهر ما تقدم ذكره حيلةً وخديعة.

وذلك أنه أحضر العسكرية بالرملة وقرأ عليهم ملطفا وصل إليه من الحضرة يعتذر إليه فيه ويعلم أن اعتقال أبي الغول وكاتبه لم يكن عن رأي أمير المؤمنين وإنما جرى من الدزبري برأيه.

فلما أوقف العسكرية على الملطف قبلوا خط أمير المؤمنين وعرفوه أمرهم أن يسيروا به إلى عسقلان ويوقفوا أهلها عليه فإن كانوا تحت السمع والطاعة لأمر أمير المؤمنين فليسلم الحسن بن سرور الأنصاري الكاتب إلي وإلا سرت إلى عسقلان ونقضتها حجرا حجرا ونهبتها وقتلت أهلها.

فمضى العسكرية بالملطف إلى عسقلان وأوقفوا عليه الوالي والعسكر فسلم إليهم أبو الغول ورفيقه.

فلما وصلا إلى حسان ركب لوقته وخشب سبعين رجلا من العسكرية وقتل طائفة من الحمدانية وغيرهم ووضع السيف والنهب في الرملة وأضرم النار في الدور والحوانيت حتى جعلها دكاً وسبى النساء والأولاد وقبض على نحرير الوحيدي وأخذ منه أربعين ألف دينار.

وأخذ من مبارك الدولة فتح المقيم بالقدس ثلاثين ألف دينار وأخذ جميع ما جمع الدزبري.

وأرجف بمصر أن خمسمائة فارس بعثها حسان إلى العريش ثم لم يعلم أين قصدت فخاف الناس أن يطرقهم في القرافة فانتقل أهل القرافة إلى مصر وانتقل جماعة من بلبيس إلى مصر.

فسار بديع الصقلبي في الرسالة إلى حسان.

وتحرك السعر بمصر واضطربت العامة.

وندب مائة فارس من القيصرية للإقامة بالقرافة لحفظ الناس فإن الخوف اشتد حتى لم يطلع أحد إلى القرافة وتحملوا منها فمنعوا من النقلة وأعيدوا إليها.

وجرت الأمور في هذه الشهور المباركة على ما كان الرسم جرى به من عمارة المساجد والجوامع وتكثير القناديل والزيت وكثرة الوقيد.

وقد دخل الشريف العجمي إلى الظاهر فأظهر أنه يراعي أمر الدولة ويتخوف ما يجري من الفساد فأمر الظاهر بأن يجتمع مع الشيخ نجيب الدولة أبي القاسم الجرجرائي والشيخ العميد محسن بن بدواس صاحب بيت المال وأن يدبر الأمراء بما يراه.

فاستدعى المذكورين وقال لابن بدواس: احمل المال الذي عندك لينفق في الرجال.

قال: ما عندي إلا يسير ووالله لو طلبتم مني بنارا واحدا ما مكنتكم منه لأنه موفور لخواص مهمات مولانا صلوات الله عليه.

فقال الشريف: فتقترض من التجار وتصادر من تجب مصادرته فقال الجرجرائي: وأي مال مع التجار وتجار مصر هلكي من الغلاء لكن إن أردتم المال فمن أم الحاكم بأمر الله قدس الله روحه وعمته وبالجملة فقد أغنى الله مولانا صلوات الله عليه بتوافر أمواله وتراث آبائه الأئمة الطاهرين عما نراه نحن أو نقوله بآرائنا.

فأمسك الشريف عن غير رضا.

وفيه سير جماعة من المجردين في المراكب الحربية لحفظ حصون الشام إلى تنيس ودمياط شهر شعبان أوله الأربعاء.

فيه قدم أحد إخوة حسان بن جراح فتلقى وأكرم وأنزل في دار حسين بن جوهر وحمل إليه الفرش والآلات الفضة ونحو ذلك مما يصلح لمثله وأقيمت له الجراية.

وضمن أنه يخرج من العسكر إلى الرملة فخلع عليه وحمل على فرسين وقلد بسيف ومنطقه ذهب.

وفي خامسه جلس الظاهر في قصره للسلام ودخل الناس.

فقال الكتاميون: يا مولانا صلوات الله عليك بلغنا شغل قلب مولانا بأمر ابن جراح ومن هذا الكلب حتى يشغل قلب مولانا صلوات الله عليه به وما

مقداره! والله يا مولانا إن لك من العبيد ما لو أطلق مولانا سبيلهم عليه لقلعوه شعرة شعرة من عبيدك الكتاميين وعبيدك القيصرية والعبيد والباطلية والأتراك وسائر العرائف والقبائل.

غير أننا قد هلكنا والله يا مولانا فقرا وجوعا وليس لواحد منا مال يرجع إليه ولو كانت لنا أموال لكفينا هذا الأمر وغيره.

فقال لهم: نسيم صاحب الستر: حسبكم يا شيوخ حسبكم! فأمسكوا ولم يكن من الظاهر جواب.

وفيه ورد الخبر بأن حسان بن جراح كتب إلى صالح بن مرداس يستدنيه ليقع الاجتماع على ما يدبران أمرهما فسار صالح ونزل على حلب ونازلها وأخذها كما تقدم وأخذ بعلبك وعظم أمره.

واجتمع هو وصمصام الدولة سنان بن عليان بن البنا على حسان بفلسطين وتحالفوا على اجتماع الكلمة وأن يكونوا يداً واحدة على صاحب مصر وقسموا البلاد بينهم فصار لحسان الرملة إلى باب مصر ولمحمود أخيه طبرية وما يتصل بها من الساحل ولسان بن عليان دمشق وسوادها ولصالح ما بقى من الشام إلى عانة.

فاجتمع سنان مع صالح ومعهما حشود العرب وحصروا دمشق ونهبوا الغوطة وسائر السواد وقتلوا فلاحي الضياع وانتهبوا أموالها وألحوا في قتال أهل دمشق.

فاجتمع الناس بدمشق إلى ذي القرنين ابن حمدان متوليها وقرروا أن يكون القتال يوما يكون أمره إليهم ويوما يقاتل فيه عسكر السلطان.

فاتصلت الحرب كل يوم وقتل من العسكر ومن أهل دمشق ومن العرب خلائق.

ونهبت مواشي الناس من الضياع وغلاتهم وأموالهم فأخذ لمعتمد الدولة.

من ضياعه عشرة آلاف غرارة من القمح.

وبعث حسان نجدة من رجاله إلى سنان وكان الشام بأسره قد اضطربت أحواله.

وتغلبت العربان على البلاد ونهبوا عامة أموال أهلها.

وفيه قدم صاعد بن مسعود عامل الصعيد الأعلى باستدعاء فغدا في سادسه شريكا لصدقة الفلاحي في ديوان الكتاميين.

وفي ثامنه قدم الخبر من دمشق بأن سنان بن عليان بن البنا لما وصلت إليه سرية حسان ابن جارح وهي نحو الثلاثة آلاف فارس طلب من أهل دمشق ثلاثين ألف دينار يقومون له بها معجلة ومؤجلة فمنعهم القاضي الشريف فخر الدولة أبو يعلى حمزة ابن الحسن بن العباس بن الحسن بن أبي الجن الحسين بن علي بن محمد بن علي بن إسماعيل ابن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ورأى أن يجمع ذلك وينفقه في قتال العرب فوافقوه على ذلك وحلف الناس.

وهدم دروب البلد وحملها إلى الجامع حتى لا يمتنع أهل البلد بالدروب ويخلوا بين العسكر والعرب.

ورجف بالناس فاشتد القتال بينهم وبين العرب وقتل من العرب نحو المائتي فارس وأصيب سنان بسهم فطلب من الناس الصلح على ترك الحرب أربعين يوما.

فلما تقرر ذلك خرج إليه الشريف ابن أبي الجن وشيوخ دمشق ووجوه الجند وحلفوا سنانا ووجوه العرب فاستقر الأمر بينهم على هذا.

وورد الخبر بأني بني قرة أقاموا إنسانا دعوه بأمير المؤمنين ببرقة وحملوا على رأسه المظلة.

وفيه ظهر في النيل بأعمال أسفل الأرض فرس البحر.

وفيه ورد الخبر بأن التجريدة التي توجهت إلى تنيس طلبوا أرزاقهم وضيقوا على العامل ففر منهم إلى دمياط فعاثوا في البلد وأفسدوا وقطعوا من يد عامل السلطان خمسة وعشرين قطعة وأخذوا من المودع ألفا وخمسمائة دينار.

فخرج إليهم عنبر الزمام في خمسين فارسا من عرفائهم للقبض على الجناة وتأديبهم واسترجاع ما أخذوه.

وقدم الخبر بأن حسان بن الجراح كتب إلى سنان يوبخه على ما فعل ويحثه على معاودة الحرب ويعده بالمدد فعاد إلى قتال أهل دمشق بعد ما كان قد انصرف عنها.

فإن حسانا بعد ما نهب الرملة وحمل منها أربعمائة جمل موقرة مالاً وثياباً ومصاغا وغير ذلك بعثها إلى حلله وأضرم النار في شوارعها وكسر الأمتعة حتى كان الناس يمشون في بحار من الصابون والزيت في أسواق مدينة الرملة ثم وصل كتابه يسأل فيه إضافة القدس ونابلس إلى إقطاعه مصانعةً له على الكف عن القتال وأن ينفذ إلى أبي الغول ثياب من ثياب الظاهر التي يلبسها وشاشية من شواشيه.

فأنفذ إليه ذلك وأجيب إلى إقطاع نابلس مضافا إلى إقطاعه ولم يجب إلى القدس.

وفي يوم السبت ثامن عشره دخل نسيم صاحب الستر بطائفة من الصقالبة إلى بيت المال والشيخ العميد محسن بن بدواس جالس وبين يديه حسباناته فقال له: اجمع يا شيخ هذه القراطيس واختمها.

فجمعها وختمها بخاتمه ثم أقامه وختم الخزائن وأخرجه راجلاً فاعتقله بحجرة من القصر.

وركب رفق فختم بيت المال والخزانة الخاصة ودار ابن بدواس وسائر ما يتعلق به.

فلما كان العشاء أخرج ابن بدواس فضربت عنقه وهو يصيح: والله ما خنت ولا سرقت ولا غششت وهذه منصوبة نصبت علي.

وقيل إنه وجد عنده خط حسان بن جراح وخطه عند حسان يحثه على الإيقاع بالدولة.

وقيل إن هذا صنع عليه من أعمال الشريف العجمي.

وقيل في سبب قتله معاندته لمعضاد وعدوله عنه إلى رفق الخادم وأنه كان استشار خليل الدولة محمد بن علي بن العداس صديقه لما عاداه هذه الطائفة فأشار عليه أن يباينهم بالعداوة ويكاشفهم بها.

واستشار أيضا شمس الملك مسعود بن الوزان مع ما بينه وبينه من العداوة فأشار عليه مثل ذلك.

وقيل إن الظاهر أخرج كتاما مختوما إلى الشريف العجمي فنظره ثم رفعه إلى أبي القاسم الجرجرائي فنظره ثم قال: هذا خط ابن بدواس فقرئ فإذا فيه طعن على الدولة وبآخره: إذا وافيت بالعساكر لم تجد أحدا تلقاك ولا يمانعك وإذا كاتبتني فلا تنفذ كتبك إلا على أيدي الرهبان فإنهم الثقات المأمونون.

فقال الظاهر: أي شيء يستحق هذا فقال الجرجرائي: مولانا مالك العفو والسيف.

فقال: انصرفوا.

فلما خرجوا أمر بضرب عنقه.

وقيل إنه وجد أغلف لأنه كان نصرانيا.

ومن العجب أنه كان في غاية التحفظ والتحرز وكان يخاف أن يقتله الحاكم بأمر الله فنجا منه ثم لما أمن واطمأن كان حتفه.

في يوم الثلاثاء لليلة بقيت منه أحضر عز الدولة معضاد الكتاميين وأمرهم بالبكور من الغد وأمر الأتراك وجميع العسكر بلبس السلاح وأن يتسلموا من الخزانة ما يخرج لهم من ذلك ويقف الجميع حول القصر حتى يؤمروا بما يفعلونه.

فوقفوا من الغد بأجمعهم حول القصر إلى ضحوة النهار فجاءهم الأمر بأن مولانا صلوات الله عليه يركب في غد فليحضر من ليس له منكم سلاح ليدفع إليه من الخزانة فقال الكتاميون قد شغلنا الجوع وطلب الخبز عن هذا.

فلما كان آخر النهار حمل قوم من متر جلة الكتاميين على سبعين فرسا وفرق فيهم وفي غيرهم السلاح.

شهر رمضان أوله الخميس.

فيه ركب الظاهر في عساكره وعليه قميص مدير مذهب دبيقي وعمامة مثله وعلى رأسه المظلة المذهبة يحملها بهاء الدولة مظفر الصقلبي وخلفه ابن فتوح الكتامي يحمل الرمح وبين يديه الأتراك والكتاميون والقيصرية والعبيد والباطلية والديلم وسائر الطوائف وركب رجال الدولة خلفه مع نسيم الصقلبي وسار إلى مسجد تبر وعاد.

وكان يوما حسنا من توافر الناس وكثرة الجمع والزي الحسن.

وفي يوم الجمعة ثانيه ركب أيضا إلى صلاة الجمعة في الجامع الأزهر وعليه طيلسان شرب مفوط بعمامة بياض مذهبة وثياب دبيقية والمظلة دبيقية مذهبة وطلع معه المنبر قاضي القضاة أحمد بن أبي العوام وإبراهيم الصانع المؤدب المعروف بالجليس فأرخيا عليه سجف القبة التي في أعلا المنبر وهي مغشاة بمصمت بياض والعنبر يبخر بين يديه في المباخر الذهب والفضة والجوهر.

فخطب ثم كشف عنه القاضي ونزل فصلى وعاد إلى قصره.

في رابعه ورد الخبر بانصراف صالح بن مرداس عن دمشق إلى حلب وأن كاتبه باع جميع ما كان له بحلب من غلة ودار وآلة وخرج فجمع العرب وقصد حصار المدينة.

في خامسه ولي طيب الخازن بيت المال وخلع عليه وحمل على بغلة بسرج ولجام وخلع على ميسرة الخازن وحمل على فرس بسرج ولجام

مذهب وولى خزانة الخاصة وجعل عدة الدولة رفق الخادم الأسود يخرج إليهما بالأوامر ويدخل.

وخلع على ثلاثة من أولاد ابن الجراح وحملوا على ستة أفراس.

وفي ثاني عشره أخذ ديوان الشام من محمد بن أحمد الجرجرائي ورد إلى أبي طالب الغرابيلي.

وفي يوم الجمعة سادس عشره ركب الظاهر إلى الجامع الأنور خارج باب الفتوح وعليه رداء بياض محشى قصبا وثياب بياض دبيقية وعمامة بيضا مذهبة وفي يده القضيب الجوهر وعلى رأسه مظلة مديرة فخطب ثم صلى وعاد.

وقدم الخبر بأن أهل دمشق هادنوا سنان بن علوان إلى آخر الكوانين.

وقدم كتاب حسان بن جراح بأنه تحت الطاعة فلا يجب أن يشغل السلطان قلبه بأمر الشام وأنه يقوم بأمر فلسطين ويجبي خراجه وينفقه في رجاله ودمشق فيها ابن عمه سنان صمصام الدولة وحلب مردود تدبيرها إلى صالح بن مرداس أسد الدولة وأنه قد كفى السلطان أمر الشام كله.

فطرد رسوله ولم يكتب له جواب.

وفي خامس عشريه زيد في لقب منتخب الدولة أنوشتكين الدزبري أمير الأمراء.

وفي سابع عشريه هرب ابنا جراح ولحقا بحسان بن جراح وأخذا جميع ما كان في الدار التي أنزلا فيها وتركا أخاً لهما مريضا فوكل به.

في سلخه حمل نجيب الدولة أبو القاسم علي بن أحمد الجرجرائي سماط العيد على العادة وفيه مائتا قطعة من التماثيل السكر وسبعة قصور كبار من السكر وشق البلد بالخيال والطبالين والفرحية.

شهر شوال أوله السبت.

فيه ركب الظاهر في عساكره وبين يديه فيل وزرافات وبنود مذهبة بقصب وفضة والطبول تضرب والجنائب تقاد أمامه وجميع قواد الأتراك والمصطنعة في السلاح وعليه ثوب خز بعمامة نظيره وفي يده القضيب وعليه السيف ومعه الرمح وعلى رأسه المظلة المذهبة يحملها مظفر وبين يديه الخدم السودان وعليهم أصناف المذهبات إلى المصلى.

فصلى ورقى المنبر واستدعى قاضي القضاة فطلع ثم استدعى إبراهيم الجليس المؤدب فطلع ثم استدعى شمس الملك أبا الفتح مسعود بن

طاهر الوزان فطلع ثم استدعى تاج الدولة ابن أبي الحسين صاحب صقلية كان ثم استدعى زين الملك على بن مسعود بن أبي الحسين ثم استدعى علي بن فضل ثم عبد الله بن الحاجب ثم جدل بالبندين المنصوبين على المنبر وخطب ثم نزل وعاد إلى قصره.

وأحضر السماط فحضر أهل الدولة ولم يحضر الظاهر وكان في منظرة يشاهدونه.

وفي ثامنه صرف نجيب الدولة مجلى بن نسطورس عن ديوان الأحباس بأبي غالب الصيفي النصراني كاتب ديوان الخراج.

فيه ضربت خيمة بظاهر باب الفتوح ووقع الاهتمام بتجريد العساكر إلى الشام.

وفي هذا الشهر تحرك السعر وبلغ التليس القمح دينارين وثلثين والتليس الشعير دينارا واحدا والخبز رطلين بدرهم.

وقدم الخبر بأن الحرب بمكة قامت بين الحسنيين والصليحيين فخرج منها أبو الفتوح حسن بن جعفر وأن الغلاء بها شديد.

وقدم الخبر بمحاربة الدزبري لأصحاب حسان بن جراح على عسقلان وأن عدة جند الدزبري خمسة آلاف قد نهكتهم الحرب والغارات.

وقبض على رجل قدمه حسان بن جراح إلى بني قرة بالبحيرة يدعوهم إلى نصرته ويعدهم مواعيد كثيرة فأجابوه بالموافقة وأخذت منه الكتب وحبس.

وكانت ليلة الميلاد في يوم الخميس عشريه فاشتغل الناس عما كانوا يبتاعونه فيها من الفواكه والحلوى بما هم فيها من الأمراض وتواتر الموت بحيث لم تخل دار أحد من عدة مرضى من الدم وأوجاع الحلق وبلغت الرمانة ثلاثة دراهم والبطيخة البرلسي ثلاثين درهما والأوقية الشراب بدرهم والقمح ثلاثة دنانير التليس والأردب الشعير بدينار والرطل اللحم ثمانية دراهم.

وعز وجود شيء من الحيوان مثل الدجاج والفراريج وبلغت راوية الماء ثلاثة دراهم.

فتهالك الناس من كل جهة وكسرت الأسواق فكانت الثياب والأمتعة ينادي عليها فلا يوجد من يدفع درهماً فما فوقه.

وفيه قطع على حاج المغاربة الخارجين في البر عند تعذر أمر الحج فتقدمت جماعة من المغاربة القادمين من بلاد المغرب بغير أمير فلما

جاوزوا بركة الجب قطع عليهم الطريق وأخذت أموالهم فهلك منهم عدة وعاد من بقى.

ذو القعدة أوله الأحد.

فيه اشتدت عقوبة جواري محسن بن بدواس في طلب المال.

وكانت ليلة الغطاس في ليلة الأربعاء رابعه فجرى من هو صحيح على العادة في شراء الفواكه والحملان وغير ذلك.

ونزل الظاهر إلى قصر جده العزيز بالله بمصر لنظر الغطاس شكراً مع حرمه بعد ما نزل القائد عدة الدولة رفق بأصناف الفرش لبسطه ونقل جميع المجاورين له ممن يسكن على النيل بالقرب منه وأزال المراكب المرساة هناك.

وضرب بدر الدولة نافذ الخادم الأسود متولي الشرطتين خيمة عند رأس الجسر وجلس على مرتبة مثقلة ومرتبة ديباج ووقف ابن كافي متولي الشرطة السفلى بين يديه.

ونودي في الناس ألا يختلط المسلمون مع النصارى عند نزولهم في البحر بالليل.

وأمر الظاهر القائد نافذاً أن يزيد في وقيد النار والمشاعل في الليل ففعل وكان وقيداً طويى.

وحضر القسيسون والشماسة بالصلبان والنيران فقسسوا طويلاً وانصرفوا إلى حيث يغطسون.

فمات في هذه الليلة للظاهر طفلة سنها ثلاث سنين وشهور وهي آخر ولد بقي له فعاد من آخر الليل إلى قصره بالقاهرة فشاهد في طريقه عدة أموات على الطرقات فأمر لهم بخمسمائة شقة لأكفانهم والنفقة عليهم حتى يدفنوا.

وفي ثامنه حنك ثلاثة من الخدم وألبسوا العمائم الشرب البيض فتشبهوا ممن تقدم من مقدمي قواد الخدم كميمون وبدر ونصر العزيزي ونظرائهم.

وهؤلاء المقودن هم معضاد ومناد ورفق وأضيف إليهم فاتك ورجاء وسرور النصارى ونامق فجلسوا بحضرة الظاهر وهنأهم الناس بذلك.

وفيه اجتمع وفد الحجاز بباب القصر واستغاثوا وقالوا: يا قوم قد جئناكم وفارقنا أهلينا وقد هلكنا من الجوع فإن لم يكن لكم حاجة بإقامة الدعوة

بمكة والمدينة فاصرفونا فإنا قد بذل لنا الرغائب في إقامة الدعوة لغير إمامكم فلم نأخذها ونريد إنسانا يكلمنا.

فلم يجابوا بشيء.

وكانوا قد مضوا قبل ذلك إلى رجال الدولة كمعضاد وغيره فصار يدفعهم هذا إلى هذا.

فلما انصرفوا عن باب القصر خائبين بعث إليهم جمال الدولة مظفر الصقلبي صاحب المظلة ألف دينار من ماله فقالوا: لا نأخذ إلا ما يصلنا به أمير المؤمنين وهذه الصلة قد قبلناها والله مجازيك عليها ونحن نفرقها على ضعفائنا وعبيدنا ففرقوها على خمسمائة نفس لكل واحد ديناران.

واشتد الغلاء والقحط بمصر فبيع الخبز السميد رطلين بدرهم والحملة الدقيق بأربعة دنانير وثلثين والتليس القمح بثلاثة دنانير واللحم أربع أواق بدرهم.

وعظم الموت سيما في الفقراء وبلغ الناس الجهد حتى إن جزاراً طرح عظما لكلب فطرد رجل الكلب وأخذ العظم منه وابتلعه نيئا وأكل المساكين الصماليخ من القنبيط واقتاتوا باليسير من كسب الوز وكسب السمسم وغلت عامة الحبوب.

وغلا الماء لتعذر علف الدواب وعدم من يستقي عليها وبيعت راوية الجمل بثلاثة دراهم وراوية البغل بدرهمين واشتدت المسغبة.

وقدم الخبر بشدة الموت بدمشق فمات من أهلها ألوف.

وفي نصفه ركب الظاهر وشق مدينة مصر وخلفه المقودون والمصطنعة وبين يديه الرقاصون فاستغاث الناس بضجة واحدة: الجوع يا أمير المؤمنين الجوع لم يصنع بنا هكذا أبوك ولا جدك فالله الله في أمرنا.

فارتجت البلد بالضجيج حتى نزل إلى قصر العزيز على البحر فحضر أبو عبد الله محمد بن جيش بن الصمصامة الكتامي وقد اختل عقله وحاله فوقف تحت القصر وشتمه أقبح شتم وبالغ فيما شتم به فضربه الرقاصون حتى سقط وجروه برجله وسحبوه وتزايد أمر الغلاء ونزل دواس المحتسب برجاله ومعه السعدية وكتب مائة وخمسين مخزنا قمحا وختم عليها فأصبح الناس يوم الاثنين سادس عشره على أقبح صورة وكثر الصياح: الجوع الجوع ولم يظهر خبز ولا دقيق.

وبيع الدقيق رطلا ونصفا بدرهم والخبز الأسود رطلين بدرهم وربع.

وفيه خرج حاج المغاربة إلى مكة فلم يصحبهم أحد من أهل مصر وعندما عدوا بركة الجب خرج عليهم طائفة من القيصرية والعبيد وكانت بينهم وقعة هزمهم فيها المغاربة وجرحوا كثيرا منهم.

وفيه طلب المحتسب إلى القصر وهدد وقيل له: قد قتلت الناس جوعا وخربت البلاد على مولانا وهذا خطك بضمانك عمارة البلد بالأخباز والقمح إلى حين إدراك الغلة.

فوعد بتلافي الأمر ونزل وأطلق القمح من المخازن للطحانين وسعر عليهم دينارين ونصفا للتليس وأمرهم ببيع الحملة الدقيق بأربعة دنانير والخبز رطلين ونصفا بدرهم فسكن الحال قليلا.

وفيه أفرج عن محمد بن جيش بن الصمصامة.

وفي عشريه ركب الظاهر إلى الصيد بسردوس وعاد.

وفي ثالث عشريه عاد من خرج من حاج المغاربة بعدما نهبوا وجرحوا وسلبوا فلم يحج أحد في هذه السنة من مصر.

وفيه قرئ سجل بحطيطة جميع مكوس الغلة المباعة بساحل مصر وأن يبيع الناس بغير تسعير.

وكثرت الأخباز وبيع القمح بدينارين ونصف وربع للتليس والخبز السميد رطلان بدرهم وربع والخبز الحواري رطلان بدرهم.

وضرب عدة من الخبازين على خلطهم الطفل المسحوق في الأخباز.

وقدم الخبر أن حسان بن جراح أنفذ ألفي فارس فلم يعلم جهة قصدهم فاضطرب الناس لذلك ثم تبين أنها وردت إلى الفرما مع أبي الغول ففر الناس في المراكب إلى تنيس وأخذ الناس بمصر في إحراز أموالهم وفقد الخبز القمح والدقيق.

ونفذت الكتب إلى الحوف بدخول الرجال الجوالة إلى الحضرة لتجدد عسكراً لحفظ البلاد ثم أبطل ذلك خوفاً من نهبهم المدينة وكثرة كلفتهم.

ذو الحجة وأوله الثلاثاء.

في رابعه ركب الظاهر في خاصته إلى عين شمس وعاد.

وفي خامسه أطلق لوفد مكة ألف دينار يرتفقون بها وأمرت لهم أم الظاهر أيضا بشيء من عندها.

وكثرت نقل الناس خوفاً من النهب في يوم الأضحى.

وعمل سماط العيد السكر من عند نجيب الدولة على بن أحمد الجرجرائي وعدد قطعه وتماثيله مائة وسبع وخمسون قطعة وسبعة قصور كبار كلها من السكر وحمل في تاسعه إلى القصر ومعه الفرحية الطبالون وأفراس الخيل وفي عشية النهار تهارب الناس من دب عظيم سقط من الجبل إلى المقابر فانجفل الناس في درب الصحراء ظنا أن العبيد كبستهم فكان خوف شديد.

وفي يوم الخميس عاشره كان عيد النحر فركب الظاهر إلى المصلى من باب الفتوح على عادته بعد أن رسم لسائر العرائف أن تلزم كل عرافة مكانها وحارتها وتكون صلاة العسكر بأجمعهم في حاراتهم مع أزمتهم فامتثلوا ذلك.

وصلى وخطب بعد أن استدعى داعي الدعاة قاسم بن عبد العزيز بن النعمان وسلمه الثبت بأسماء من جرت عادته بطلوع المنبر فاستدعى شمس الملك وبهاء الدولة مظفر صاحب المظلة وعلي بن مسعود وحسن ابن رجاء بن أبي الحسين وعلي بن فضل وابراهيم الجليس وعبد الله بن الحاجب وتأخر القاضي وغيره لمرضهم فلم يشهدوا صلاة العيد.

فلما انقضت الخطبة نزل الظاهر إلى المنحر بالمصلى فنحر ناقةً وعاد إلى قصره ومشى إلى المنحر بصحن القصر تجاه ديوان الخراج فنحر تسعاً من النوق ثم انصرف.

فحضر أبو الحسن على بن محمد الطريقي كاتب قاضي القضاة لتفرقة لحم الأضاحي على أرباب الرسم فنهبته العسكر وجرى عليه كل قبيح.

ومد السماط بحضرة الظاهر فلما جلس أهل الدولة عليه للأكل كبس العبيد القصر وهم يصيحون: الجوع نحن أحق بسماط مولانا عليه السلام ونهبوا جميع ما على السماط وضرب بعضهم بعضاً والصقالبة تضربهم فلا يبالون.

فكان فلما كان الغد ركب الظاهر إلى الرحبة في القصر تجاه ديوان الخراج فنحر ثلاث عشرة ناقة وعاد ففرقها الطريقي.

وشد من الغد ثالث عيد النحر في مكان النحر خمس عشرة ناقة لتنحر فلم يخرج الظاهر فخلى عنها ثم شد خمس نوق غيرها نحرها الطريقي وفرقها.

وقدم الخبر بنهب العبيد الجوالة بلداً بالأشمونين حصل لرجل واحد تسعمائة رأس من البقر وثلاثة آلاف رأس من الضأن.

وفي ثالث عشره ورد الخبر بأن الدزبري أسرى من عسقلان وكبس حلةً لحسان بن جراح فقتل ثلاثين أسيراً وعدةً من الناس يبلغون آلافاً ونهب نساء العرب وطلب نجدة ولو بألف فرس وأخبر أنه نزل فلسطين وصلى بها العيد وهو خائف من اجتماع العرب لحربه.

فأخرج مضرب ظاهر باب الفتوح لتجرد العساكر فدافع أهل الدولة عن إمضاء ذلك.

فورد الخبر بأن الدزبري بعد ما صلى العيد بمدينة الرملة انتقل إلى لد بعد ما أوقع بحلة فيها ولد لأبي الغول فقتله وضرب أعناق أربعين رجلا من الغمازين الذين كانوا يدلون حسان بن جراح على الناس وأنه ينتظر النجدة بلد فلم يخرج إليه أحد.

وفيه يوم عيد الغدير ورد الخبر بإقامة الدعوة الظاهرية بالبصرة والكوفة والموصل وعدة من بلاد المشرق وذلك لغلبة الأتراك على بغداد وإخراج الديلم عنها إلى البصرة فدعا الديلم للظاهر بها وبالكرخ ودعا الأتراك ببغداد للقادر.

وفيه جرى الناس بمصر في عيد الغدير على رسمهم وتزيوا بأفخر زيهم وطلع المنشدون إلى القصر يدعون وينشدون.

وفيه نصبت خيمة خارج باب الفتوح ليخرج تجريدة الدزبري.

وفي حادي عشريه نهبت الدواب بسفط ونهيا من ثلاثين رجلاً من بني قرة وقتلوا قاضي سفط واستاقوا مائة وخمسين فرسا لأهل الدولة وساقوا ثلاثمائة مكة لمعضاد وأربعة آلاف رأس من الضأن فلم يخرج أحد لطلبهم ولا أنكر شيء من ذلك.

وفي ثاني عشريه خرج معضاد والشريفان وابن حماد الغرابيلي ونجيب الدولة الجرجرائي إلى الخيمة خارج باب الفتوح وحضر الكتاميون فطلب منهم مائة فارس لينفق فيهم فلم يحضروهم ونزعت الخيمة فعادوا أقبح عود.

وفي خامس عشريه سار وفد مكة وقد دفع إليهم نصف واجبهم ولم يرسل إلى أبي الفتوح بشيء فمضوا غير راضين.

وفيه حمل مظفر صاحب المظلة إلى الحضرة عشرة آلاف دينار قرضاً واستدعى من الشريف أبي طالب العجمي متولي الصناعة عشرة آلاف قرضا فدافع ثم أجاب إلى حمل خمسة آلاف بعد أن يضمن له أمر عادتها إليه فضمن له الشيخ نجيب الدولة أبو القاسم علي بن أحمد الجرجرائي ذلك فحملها.

واشتد الغلاء فبيع القمح بأربعة دنانير وثلث التليس والحملة الدقيق بستة دنانير والخبز رطل وربع بدرهم ونزل بالناس مسغبة شديدة.

وفي ثالث عشريه تجمع العبيد ومعهم عدة من النهابة فبلغوا نحو الألفين يريدون نهب مدينة مصر فركب إليهم بدر الدولة نافذ في عسكر بالسلاح وأذن للناس عامة بأن من تعرض لهم من العبيد فليقتلوه فتحفظ الناس واستعدوا.

ثم ركب معضاد ونسيم إلى حيث تجمع العبيد وأحضروا أزمتهم وألزموهم بعود العبيد إلى حارتهم فقالوا: ما أردنا النهب ولا نريد إلا ما نأكله من الجوع فإن الجوع قد اشتد بنا وأكلنا الكلاب.

فوعدوا بالنفقة من الغد فعاد الجميع إلى حاراتهم.

واجتمعوا من الغد وقصدوا الساحل ونهبوا دوراً وطرحوا فيها النار وأخذوا ما وجدوه في الساحل من القمح والشعير وغير ذلك مما في الحوانيت ودخلوا إلى منازل أهل السلاح فنهبوا ما وجدوا.

فركب إليهم نافذ وقاتلهم فجرح له فرس وقتل فارس من غلمانه فانصرف عنهم.

وخرج إليهم عامة المصريين بالسلاح فقاتلوهم ورماهم النساء من أعلا الدور بالحجارة والطوب والجرار حتى هزموهم وأغلق الناس دورهم وحفروا دونها خنادق.

وركب معضاد وجميع الصقالبة والقواد فطردوا العبيد عن البلد إلى المقس ولقوا في طريقهم قوماً معهم كثير من أمتعة الناس التي نهبت فقبضوا عليهم وضرب معضاد رقاب تسعة أنفس منهم ورمى جثثهم إلى الكلاب عند الحمراء وتعذر وجود الخبز فلم يقدر عليه وبيع رطلاً بدرهم.

وبات الناس ليلة الجمعة على حرس وأصبحوا يترقبون المكروه فطاف النهابة أسواق القاهرة والسويقة التي عند باب زويلة فخرج إليهم حظي الصقلبي ومعه سيف من الحضرة فقبض على طائفة منهم ضرب رقابهم ورمى جثثهم إلى الكلاب على باب زويلة وعلى باب الفتوح وفي سوق السلاح وعند شرطة القاهرة وعدتهم اثنا عشر رجلا.

ووجد كتاميا يقال له سليمان قد أخذ حمارا محملاً دقيقا فضرب عنقه.

وأحضر عرفاء العبيد إلى القصر وشدد عليهم في إحضار الجناة من العبيد ووعدهم بالنفقة في العبيد.

وأصبح الناس يوم الأحد سابع عشريه يستغيثون إلى متولي الشرطة السفلى من العامة التي نهبتهم فقبض على طائفة منهم بكوم دينار وعوقبوا حتى أقروا بما عندهم من النهب فسيقوا حتى أخرجوه من كوم دينار وأخذه أربابه.

وقدم الخبر من حلب بأن صالح بن مرداس حاصر حلب وما زال بأهل البلد حتى فتحوا له أبوابها فدخل أصحابه وشرعوا في هدم أبراج السور فظن الناس أنه يريد بذلك أن يسلم حلب إلى الروم فاجتمعوا بمن في القلعة وقد تحصن بها موصوف الصقلبي وحاربوا أصحاب صالح حتى أخرجوهم وقتلوا منهم مائتين وخمسين رجلا وامتنعوا منهم بالمدينة.

ومن خبر ذلك أن صالح بن مرداس نزل على مدينة حلب في جمع كثير من بني كلاب وغيرهم فحصرها أشد حصر حتى أخذ المدينة صلحاً من أهلها ودخلها في رابع عشر ذي القعدة سنة خمس عشرة هذه وتلقب بأسد الدولة.

وامتنع موصوف الصقلبي بالقلعة فاستخلف صالح على مدينة حلب كاتبه أبو منصور سليمان بن طوق ومضى إلى بلعبك فأخذه عنوة وقتل بها خلائق.

واشتدت محاصرة سليمان بن طوق لقلعة حلب وصعد قلعتها حتى قل الماء والزاد بها فطلب موصوف منه أشياء اشترطها عليه وسلمه القلعة فأتى صالح حلب وصعد قلعتها وقتل موصوفاً ورتب أموره وصار بيده من بعلبك إلى عانة.

وقدم الخبر بأن حسان بن جراح جمع من العرب خلائق وقصد الرملة فمضى الدزبري إلى عسقلان وتحصن بها فقبض حسان على جماعة من أهل الرملة ممن سعى به وبأصحابه إلى الدزبري وضرب أعناقهم وملك المدينة.

فاجتمع الدزبري مع مبارك الدولة فتح متولي القدس وفتاح بن بويه الكتامي وصار إليهم نحو الخمسة آلاف مقاتل وأوقعوا بحلة كبيرة لإخوة حسان وقتلوا ولداً لعلي بن جراح وهزموا من بها.

وقال ابن الرقيق: وكان بمصر من الغلاء والشدة وعدم الأقوات ما لم ير مثله من زمن بعيد.

بلغ الخبز إذا وجد رطلا بدرهم واللحم أربع أواق بدرهم والرمانة الواحدة بدينار.

وكان الناس في كل ناحية يصيحون بالجوع حتى يموتوا ويكون مع الرجل جملة من الدنانير فيطلب من يشبعه خبزا فلا يجده هذا مع الموت الذريع والوباء الفظيع.

وورد كتاب بعض ثقات التجار يصف أنه أحصى من مات ممن عرف وكفن ودفن من آخر شهر رمضان إلى بعض ذي القعدة فكانوا مائة ألف وسبعين ألف نفس وأما الغريب ومن لا يعرف ومن يلقى في النيل ولا يجد من يقبره فأكثر من هذه العدة أضعافاً لا تحصى.

وبلغ ماء النيل ستة عشر ذراعا وثمان أصابع.

ومات في هذه السنة ممن له ذكر أبو جعفر بن الوزير أبي الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف بابن حنزابة يوم الخميس سادس المحرم وكان يعمل بيده أعمالا متقنة.

وفي يوم الأربعاء عاشر صفر توفى مفضل بن أبي أحمد المهلبي بعد ما ساءت حاله وكان أديبا جم الأدب غير منكور السيرة.

وفي سابع عشره توفي أبو محمد بن يحيى الدقاق من شيوخ الحديث ومؤرخي أخبار مصر.

وفي يوم الأربعاء ثالث عشري ربيع الأول توفى ابن أبي الحسين بن زولاق وكان أديبا ذيل على تاريخ أبيه المعروف بأبي الحسين.

وفي يوم الخميس ثاني عشري ربيع الآخر توفى أبو الحسن بن نحرير الشويزاني وهو أكبر من بقي من عرفاء الإخشيذية فبعث الظاهر لكفنه مائتي دينار وعدة ثياب وطيبا كثيرا.

وفي يوم الأحد عاشر جمادى الأولى توفي النمل الشاعر وتوفى سند الدولة أبو محمد حسن بن محمد بن محمد بن نقيان الكتامي متولي مدينة حلب بها في يوم الخميس لثمان بقين من ربيع الآخر.

وفي يوم الاثنين سادس شعبان توفى عصب الدولة الحسين بن مفلح ابن أبي صالح القلعي وقد ساءت حاله وغلبه الدين.

وفي ليلة الأحد تاسع عشره قتل الشيخ العميد محسن بن بدواس متولى بيت المال وجابي الضرائب.

وفي يوم الاثنين ثاني عشر شهر رمضان توفى نزار بن حسين بن يمن الكتامي متولى الشرطة السفلى بمصر بعدما ساءت حاله.

وفي رابع عشره توفى الشريف العباسي الرابض لدواب الحاكم بأمر الله وكان شريرا فلم يشهد أحد جنازته بغضاً له.

وفي يوم الخميس سادس شوال توفى أبو عيسى ملامان بن محساس بن بيوط الكتامي فصلى عليه الظاهر.

وفي تاسعه توفى مخلص الدولة منصور البكجوري أحد وجوه القواد الحمدانية القادمين من الشام وترك ستين ألف دينار ورثها ابنه فدفن في مقابر القاهرة.

وفي ثالث عشريه توفى الأمير أبو هاشم العباس بن شعيب بن داود بن عبيد الله المهدي ولي عهد المؤمنين كان فدفن في تربة القصر وترك ولداً اسمه مسلم.

وفيه توفيت عائشة جارية الأمير عبد الله بن المعز لدين الله وكانت من وجوه عجائز القصر وخلفت أربعمائة ألف دينار.

وفي يوم السبت رابع عشر ذي القعدة توفى جعفر بن أبي فروخ الكتامي الذي كان يتولى الشرطة بمصر.

وفي سابع عشريه توفى أبو الفتح منصور شديدٌ من الدّنيا على الحرّ حاجة يؤمّ بها من ليس من نظرانه وقال من أبيات: وما الناس إلاّ كالنّبات: مصوّح ليذوي ومخضرّ لينمى ومعشب يسربله ماء الشّباب نضارةٌ ويفرغ عنه حسنه حين ينضب ومنها: تفرّق أنواع المذمّات في الورى ويجمعها خلق الفتى حين يكذب إذا كان للإنسان عقلٌ فحيثما توجّه لاقاه صديقٌ ومكسب ينال الفتى بالخفض بلغة عيشه فيسعى إلى شيءٍ سواها وينصب يخرّب من أخراه ما ليس فانياً ويعمر من دنياه ما يتخرّب على أنّ في الأيّام للمرء واعظاً بليغاً وفي صرف الزّمان مؤدّب وماتت السيدة العزيزة ست الملك ابنة العزيز بالله أبي منصور نزار بن المعز لدين الله أبي تميم معد مستهل جمادى الآخرة بعلة الذرب.

وقد دبرت أمور الدولة بعد فقد أخيها الحاكم بأمر الله خمس سنين وثمانية أشهر أعادت فيها للملك غضارته واستردت بهجته وملأت الخزائن بأصناف الأموال وقلدت الأكفاء جلائل الأعمال واصطنعت الرجال.

فيها أمر الظاهر بنفي من وجد من الفقهاء المالكية وغيرهم.

وأمر الدعاة أن يحفظوا الناس كتاب دعائم الإسلام وكتاب الوزير يعقوب بن كلس في الفقه على مذهب آل البيت وفرض المظاهر لن يحفظ ذلك مالا.

وجلس الدعاة بالجامع للمناظرة.

سنة سبع عشرة وأربعمائة

فيها ثار بالناس في مصر رعاف عظيم.

وزاد النيل فوق المعتاد حتى غرقت القرى.

وفيها سقط الظاهر عن فرس وأرجف بموته ثم عوفي فتصدق بمائة ألف دينار حمل منها إلى مكة والمدينة أربعون ألف دينار وإلى بلاد الشام عشرون ألف دينار وإلى بلاد المغرب عشرون ألف دينار وفرق بمصر عشرون ألف دينار.

سنة ثمان عشرة وأربعمائة

فيها وقعت الهدنة بين متملك الروم وبين الظاهر عن ديار مصر والشام وكتب بينهما كتاب وتفردت الخطبة للظاهر ببلاد الروم.

وفتح الجامع الذي بقسطنطينية وعمل له الحصر والقناديل وأقيم به مؤذن وعند ذلك أذن الظاهر في فتح كنيسة القمامة التي بالقدس فحمل إليها ملوك النصارى الأموال والآلات وأعادوها وارتد إلى دين النصرانية كثير ممن أسلم كرها في أيام الحاكم وفيها عزل الظاهر عميد الدولة وناصحها أبا محمد الحسن بن صالح الروذباري وولى عوضه الوزير الأجل الكامل أوحد أمير المؤمنين وخالصته أبو القاسم علي بن أحمد الجرجرائي.

وفيها اجتمع عسكر مصر ورافع بن أبي الليل مقدم طائفة الكلبيين وأنوشتكين الدزبري لحرب حسان بن جراح فالتقوا لخمس بقين من ربيع الآخر على الأقحوانة فقتل صالح بن مرداس وانهزم حسان وقتل عدة ممن معه واستولى الدزبري على البلاد فقدم شبل الدولة نصر ومعز الدولة ثمال بعد أبيهما صالح بن مرداس وملكا أيضا الرحبة إلى بالس ومنبج.

سنة عشرين وأربعمائة

فيها كانت فتنة بمصر بين المغاربة والأتراك قتل فيها جماعة وكان الظفر للأتراك ثم استظهرت المغاربة بمعاونة العامة لهم فقتلوا عدة كثيرة من الأتراك وأخرجوا من بقي منهم عن مصر.

وكان خبط عظيم فأخرج الظاهر رأسه من المنظرة وأشار إلى الناس فقبلوا الأرض ثم بعث إليهم بالصلح فمشى الدعاة بينهم حتى اصطلحوا.

وفيه بعث المعز بن المنصور بن بلكين بن زيرى هدية فيها عشرون جارية لم ير كحسنهن وعى نهودهن حقاق الفضة وثلاثة أفراس فيها كميت بسرج

ذهب زنته قنطار ذهب وأشقر بسرج لؤلؤ وأدهم بسرج فضة زنتها قنطار وثلاثة آلاف منا زعفراناً وخمسون درقة بأغشية ديباج واثنا عشر صقلبيا وعشرون خادما سوداً وألف وخمسمائة ثوب خز وأربعمائة غفارة ورماح كثيرة جدا وألف قنطار شمعاً وثياب سوسية وصقلية وعمائم عدة ألوف.

فجلس الظاهر في الإيوان على السرير الذهب وقرئ عليه كتابه وعرضت هديته في يوم الأحد ثامن شوال.

وبعث إليه بهدية من دق تنيس ودمياط وطرائف الهند واليمن وزرافة وبختاً خراسانية تحمل قباباً فيها جواري وأشياء عظيمة.

وفيها جهز الظاهر أمير الجيوش أنوشتكين الدزبري لقتال صالح بن مرداس فالتقيا بالأقحوانة من عمل طبرية على نهر الأردن واقتتلا أشد قتال فقتل صالح وولده الأصغر في جمادى الأولى من سنة عشرين هذه وحمل رأساهما إلى القاهرة.

ونجا شبل الدولة أبو كامل نصر بن صالح وأخوه أبو علوان عز الدولة ثمال إلى حلب فملكاها شركة بينهما.

فكانت مدة ملك صالح لحلب أربع سنين وأشهرا.

سنة إحدى وعشرين وأربعمائة

بايع الناس بولاية العهد للمستنصر بن الظاهر وعمره ثمانية أشهر فخلع على كافة أهل الدولة وعمل من الطعام ما كفى أهل القاهرة ومصر والطارئين من البلاد ونثر مال عظيم فلم يبق أحد حتى وصل إليه من خير هذه البيعة.

واجتمعت العامة تحت المنظرة من القصر واستغاثوا أن يشرفوا برؤية أمير المؤمنين فأشرف عليهم الظاهر من المنظرة فقبلوا الأرض وانصرفوا.

وكان مرتضى الدولة أبو نصر منصور بن لؤلؤ قد طمع في حلب بعد تملك صالح بن مرداس لها فكاتب متملك الروم يرغبه في حلب ويعده إلى أن خرج من القسطنطينية في هذه السنة ومعه ثلثمائة ألف حتى لم يبق بينه وبين حلب سوى يوم واحد اعتزل عنه ابن لؤلؤ ومعه رجل جليل من الروم يقال له ابن الدوقس في عشرة آلاف فخاف متملك الروم ورحل ثم قبض على ابن لؤلؤ وابن الدوقس في جماعة وولى منهزما لا يلوى على شيء.

وتبعه من عرب كلاب ونمير نحو الألفي فارس في طائفة الأرمن ونهبوا الروم فاخذوا من خاص الملك أربعمائة بغلة تحمل المال والثياب سوى ما

ظفروا به لعامتهم بحيث أبيع البغل في حلب بدينارين ولولا أن العرب تشاغلت بالغنيمة لما أفلت أحد من الروم.

ووجد من الروم آلاف كثيرة موتى عطشاً.

وكانت هذه الهزيمة يوم السبت خامس شعبان.

سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة

فيه نقص النيل نقصانا فاحشا فتحرك السعر وحملت غلال كثيرة من الشام إلى مصر ثم زاد النيل بعد أوان الزيادة بأربعة أشهر فكثر العجب من ذلك.

وكان الدزبري لما استرجع البلاد الشامية من أيدي المتغلبين عليها إلا حلب فإنها بقيت بيد بني صالح بن مرداس انهزم حسان بن جراح وإخوته من الدزبري ولم يجدوا ملجأ فحملهم ذلك على أن دخل حسان في طاعة ملك الروم وحمل على رأسه صليباً وصار في جملته.

ثم سار في هذه السنة بعسكر الروم وعلى رأسه الصليب ووصل إلى أفامية وهي من عمل الدزبري فهزمها وسبى كثيرا منها.

فنادى الدزبري بالغزاة وخرج فخافه نصر بن صالح وقرر لملك الروم على نفسه خمسمائة ألف درهم صرف ستين درهما بدينار على أن يحميه وذلك في جمادى الأولى فاتفق مرض الدزبري بدمشق وأرجف به ثم عوفى.

سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة

فيها أمر الظاهر بقتل دعاته فاضطربت الرعية وكثير من الجند لذلك وأخذ الدعاة في إفساد أمره والتحدث بخلعه فأنفق أموالاً جمة حتى استقر أمره.

سنة أربع وعشرين وأربعمائة

ركب ولي العهد ابن الظاهر من القاهرة إلى مصر وقد زينت فكان إذا أقبل على الناس قبلوا له الأرض.

ونثر يومئذ على العامة خمسة آلاف دينار ونثر على الخاصة عشرون ألف دينار فكان يوماً عظيما.

وفي يوم الأحد ثامن عشر ذي القعدة قدمت هدية المعز بن باديس وهي جليلة القدر.

سنة خمس وعشرين وأربعمائة

فيها قدم الخبر باستيلاء الأتراك على الأمر ببغداد وقلت بها الأموال والرجال فبث الظاهر دعاته فنشروا دعوته ببغداد في الناس.

وفيها ظهرت الطائفة الدرزية بجبل السماق من الشام يدعون إلى الحاكم بأمر الله.

فيها ظهرت الزلازل ببلاد الشام فخربت ريحا ونصف الرملة وأكثر عكا في قرى كثيرة وبعد الماء من سواحل البحر المالح ساعتين ثم عاد كما كان.

سنة ست وعشرين وأربعمائة

فيها كثر الفأر بأراضي مصر وأكل زروعاً كثيرة.

وفيها كثر الوباء بمصر.

وفيها قتل الدزبري شبل الدولة ثمال بن صالح بن مرداس في شعبان وملك حلب وبعث إلى

سنة سبع وعشرين وأربعمائة

فيها انعقدت الهدنة بين الظاهر وبين ميخائيل ملك الروم عشر سنين متوالية.

وفيها توفي الظاهر عن استسقاء طال به من نيف وعشرين سنة في يوم الأحد النصف من شعبان فكانت مدته خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وسبعة عشر يوما.

وكانت أيامه كلها سكونا ولينا وهو مشغول بملاذه ونزهه وسماع المغنى وأمور الدولة بيد عمته السيدة العزيز ست الملك وهي التي عدلت بالخلافة إليه عن ولي العهد أبي هاشم العباس بن دواد ابن عبيد الله المهدي وجيء بأبي هاشم فبايع والسيف على رأسه ثم جلس فكان آخر العهد به.

وكان يشار بالخلافة إلى عبد الرحيم بن إلياس بن أحمد بن المهدي فأدخل عليه الشهود وهو يتشحط في دمه فأشهد أنه فعل ذلك بنفسه ثم قضى نحبه.

وأقامت سيدة الملك سيف الدين الحسين بن دواس والوزير عمار بن محمد في تدبير الدولة عن رأيها حتى قتلت ابن دواس فانفرد عمار بالأمور إلى أن رتبت له في دهليز القصر من قتله.

فتحدث حسن بن موسى الكاتب والأمر لست الملك ولسانها ويدها أبو القاسم علي بن أحمد الجرجرائي.

المستنصر

فلما ماتت السيدة ست الملك استقل الجرجرائي بالتدبير لإعزاز دين الله أبي الحسن علي بن الحاكم بأمر الله أبي علي منصور أمه السيدة رصد.

ولد يوم الثلاثاء السادس عشر من جمادى الأولى سنة عشرين وأربعمائة بالقاهرة والطالع عند ولادته من برج السلطان ثمان درج والشمس فيه على خمس عشرة درجة والمشتري فيه على ست درج وعطارد فيه على اثنتي عشرة درجة والقمر في الدلو على ثلاث عشرة درجة وزحل في برج الثور على تسع وعشرين درجة والمريخ فيه أيضا على إحدى عشرة درجة والزهرة في برج الجوزاء على ثلاث عشرة درجة والجوزهر في برج السنبلة على خمس وعشرين درجة.

وبويع بالخلافة يوم الأحد للنصف من شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة والطالع عند ولادته من برج السنبلة إحدى وعشرون درجة وزحل في برج السنبلة على اثنتين وعشرين درجة والمشتري في برج الدلو على ثماني درج والمريخ فيه أيضا على اثنتي عشرة درجة والشمس في برج الجوزاء على ثمان وعشرين درجة والزهرة في برج السرطان على ثلاث درج وعطارد في برج الجوزاء على ست عشرة درجة والقمر في برج الجدي على ثماني عشرة درجة والجوزهر في برج الثور على إحدى وعشرين درجة.

وأقام في الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر وثلاثة أيام.

وقام بأمره الوزير أبو القاسم الجرجرائي وأخذ له البيعة على الناس وأطلق للجند أرزاقهم وشيئا آخر على سبيل الصلة وسكنت الأمور واستقامت الأحوال وكتب له المستنصر سجلا بإقراره على الوزارة.

وفيها سير من القاهرة مبلغ ألفي دينار على يد بدوي لعمارة قنطرة الجاروفة التي منها شرب الكوفة وقد خربت وفسدت الجهات التي تحتها بفسادها.

وكانت تلك الجهات جاريةً في إقطاع العربان بالعراق فأريد بذلك استمالة من هناك إلى الطاعة فقام بنو خفاجة مع البدوي في الإنفاق على عمارة القنطرة.

فبلغ ذلك الخليفة القادر بالله أبا العباس أحمد بن اسحق بن المقتدر فلم يجد مالاً يبعثه عوضاً من المال المذكور ولم يمكنه الرد فدعته الضرورة إلى التغاضي.

فشرع البدوي في العمل ثم منع بعد ما تم منه جانب كبير.

سنة ثمان وعشرين وأربعمائة

فيها فسد ما بين نصر بن صالح بن مرداس وبين المستنصر فكاتب ملك الروم وبعث إليه بما عليه من القطيعة مع هدية فأشار عليه بالدخول في طاعة المستنصر فقبل منه.

وبعث بهدية جليلة إلى القاهرة مع وفد كبير فحصل الرضا عنه وأضيف إليه أعمال حمص ولقب بمختص الأمراء خاصة الإمام شمس الدولة ومجدها ذي العزمتين.

فشق ذلك على الدزبري متولى دمشق وأخذ في مناكدة أصحاب نصر بن صالح.

سنة تسع وعشرين وأربعمائة

فيها بعث الدزبري عساكره إلى حماة فأخذها.

وخرج شبل الدولة نصر بن صالح لدفعه فالتقيا بلطمين من عمل كفرطاب فانكسر وقتل في يوم الاثنين نصف شعبان وحمل رأسه إلى دمشق.

فبادر أخوه معز الدولة ثمال بن صالح إلى حلب وملكها من الغد وأخذ قلعتها واستخلف فيها ابن عمه مقلد بن كامل بن مرداس وفي المدينة خليفة بن جابر الكعبي.

وشرق بأهله ليستنجد بأخواله بني خفاجة فنزلت عساكر الدزبري على حلب وأخذت المدينة ثم قدم إليها الدزبري وتسلم القلعة في يوم الثلاثاء ثامن رمضان وأخرج منها إلى درباس واستولى على بالس ومنبج وولى قلعة لغلاميه فاتك وسبكتكين.

وعاد إلى دمشق يوم الخميس تاسع عشر ذي الحجة.

وعمل في طريقه على أخذ جبلة فلم يطق.

وفيها ثار علي بن محمد بن علي الصليحي في اليمن في ستين رجلا على رأس جبل وأقام دعوة المستنصر وما زال أمره يزيد حتى استولى على ممالك اليمن.

وفيها هادن المستنصر ملك الروم على أن يطلق خمسة آلاف أسير ليمكن من عمارة قمامة التي فر بها الحاكم فأطلق الأسرى وعمر قمامة وأطلق عيها مالاً جل وصفه.

سنة ثلاثين وأربعمائة

سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة فيها أقيمت دعوة المستنصر بحران: سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة: فيها نقض ملك الروم الهدنة وأغار على بلاد حلب وعلى بلاد أفامية وكسر عسكر الدزبري المقيم هناك فخرج إليه عسكر حلب فكسرهم على أرمناز.

وكان ثمال بن صالح وعمه المقلد بالرقة مالكين لها فبعثنا إلى متملك الروم بمال وثياب فطلب منهما ابتياع الرقة كما ابتيعت الرها فضاق الدزبري ذرعاً بذلك وكتب إليهما يرغبهما ويرهبهما فأجاباه بالاعتذار.

وكان قد مضى قوم من بني جعفر بن كلاب إلى مضيق أفامية وعاثوا في أعمال الروم فمكن لهم الروم ثم أوقعوا بهم.

فبعث الدزبري عسكرا فلقي الروم فيها حماة وأفامية فظهر المسلمون عليهم وقتلوا منهم عدة كبيرة فأجمع الدزبري على النهوض إليهم فهادنوه وما زالوا به حتى سكنت الحرب بينهم وبينه.

ثم إن الجند طمعوا في الدزبري وهموا به فساروا له إلى حماة فقضى عليه أهلها فكاتب مقلد بن منقذ فحضر إليه من كفرطاب في ألفي راجل واجتمع به ومضى إلى حلب فأقام بها مريضا إلى أن مات يوم الأحد نصف جمادى الآخرة.

سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة

وبعد ما أقام بحلب اثنين وأربعين يوما قدم إليها ثمال بن صالح وعمه المقلد وحصرا القلعة سبعة أشهر وتسلماها في صفر سنة خمس وثلاثين وأربعمائة وقتلا من بها.

فلما بلغ ذلك المستنصر بعث إلى ثمال الخلع والتحف وسجلا بتوليته وكان بقلعة حلب مائتا ألف دينار فأخذها ثمال.

وفيها توفى شهم الدولة ميمون صاحب السيارة في أسفل الأرض في شهر ربيع الآخر وحمل إلى مصر فوصلوا به يوم الثلاثاء تاسعه ودفن بتربته بالقرافة.

وكان من أهل الخير وحج بالناس من مصر في سنة ست وعشرين وأربعمائة.

سنة أربع وثلاثين وأربعمائة

فيها خرج بالقاهرة في شهر رجب شخص اسمه سليمان كان يشبه الحاكم بأمر الله وأدعى أنه الحاكم وبث دعاته سراً في البلاد وقصد القصر وقت خلوه من العساكر وقال للخدام: قولوا هذا الحاكم.

فارتاع من كان في باب القصر وثارت ضجة فقبض عليه وصلب وأخذت أصحابه فقتلوا ومن جملتهم محمد بن عاني الكتامي أحد دعاته.

سنة خمس وثلاثين وأربعمائة

فيها قطع المعز بن باديس الخطبة للمستنصر ودعا ببلاد إفريقية للخليفة القائم بأمر الله العباسي فبعث إليه الخلع من بغداد على طريق القسطنطينية.

سنة ست وثلاثين وأربعمائة

فيها توفى الوزير الأجل أبو القاسم علي بن أحمد الجرجرائي يوم الأربعاء سادس شهر رمضان.

والحاصل يومئذ في بيت المال البراني تحت يد أمين الدولة مسرة الرومي برسم النفقات ألف ألف دينار وسبعمائة ألف دينار وستمائة دينار وواحد وعشرون ديناراً ونصف وثمن دينار.

ووجد له سبعمائة صينية من ذهب وفضة ومائة ألف مثقال من العنبر وغير ذلك.

وكان عالما فطناً نحريرا وقع مرة بين يدي الظاهر لإعزاز دين الله على مائة كتاب فلم تتشابه فيها لفظة بلفظة.

وكانت مدة ولايته للظاهر والمستنصر سبع عشرة سنة وثمانية أشهر ووزر بعده أبو علي الحسن بن علي الأنباري فانفسد أمره بسبب أبي سعيد سهل بن هرون التستري وأخيه أبي ثمر إبراهيم اليهوديين.

وكان من أمرهما أن أبا سعيد هذا كان قد استخدمه الظاهر لبيوعه فباع عليه في جملة ما باع جارية سوداء تحظاها الظاهر فولدت له المستنصر فراعت ذلك لأبي سعيد وقدمته عند ولدها المستنصر لما صارت الخلافة إليه ورتبته فيما يخصها فعظم شأنه إلى أن صار ناظراً في جميع أمور الدولة.

فلما وزر الأنباري قصده أبو ثمر إبراهيم فجبهه غلام له فأحفظه وأعلم أخاه أبا سعيد فثنى رأى المستنصر عن ابن الأنباري لهذا السبب وأشار عليه أن يستوزر أبا نصر صدقة بن يوسف الفلاحي وكان يهودياً قد أسلم فاستوزره

بعد الجرجرائي في يوم الثلاثاء حادي عشر شهر رمضان ولقب بالوزير الأجل تاج الرئاسة فخر الملك مصطفى أمير المؤمنين.

وكان يهودياً موصوفاً بالبراعة في ضروب الكتابة.

ولى أولاً نظر الشم ثم خاف أمير الجيوش أنوشتكين الدزبري ففر منه وقد اجتهد في طلبه فلم يظفر به.

وقدم إلى القاهرة فرعى له الجرجرائي حرمة انفصاله عن الدزبري ورقاه وأشار في مرضه بأن يستوزر من بعده.

فلما تقررت له الوزارة أملى سجل تقليده ليلة اليوم الذي خلع عليه فيه.

وتولى أبو سعيد التستري الإشراف عليه.

وقبض على ابن الأنباري وصودر حتى هلك تحت العقوبة ودفن بخزانة البنود وكان مسجوناً بها.

وكان المستنصر قد بث دعاته سراً إلى الآفاق يدعون إليه ويستميلون من تصل القدرة إلى استمالته.

فلما كان في هذه السنة دفع جماعةً منهم إلى ما وراء النهر ودعوا هناك بعد أن دعوا بخراسان فاستجاب لهم طوائف من الناس.

وحصلوا عند بغراخان أخي رسلان خان صاحب ما وراء النهر.

فلما علم بهم تلطف في الكشف عنهم بأن استمالهم وقربهم وأطمعهم أنه يريد الدخول فيما هم فيه فأنس به طائفة منهم وأرادوا أن يأخذوا عليه العهود والمواثيق فخدعهم بإطلاق المال واستخبر به ما عندهم حيث إنه أنفق عليهم في مدة سنتين ثلثمائة ألف درهم حتى اطلع على عددهم وعرف مواضعهم وهم يطالبونه باليمين والعهد إلى أن أجابهم على شرط أن يكتبوا أيمانهم ويطلعوه على باطنهم.

فكتبوا ذلك ودفعوه إليه ليتفكر به وقد كتب كتاباً على قدر كتابهم وشكله يقسم فيه بالأيمان المغلظة أنه متى انكشف له من أمرهم ما يدل على الإلحاد والخروج عن تشريع الإسلام ذبحهم بيده تقرباً إلى الله تعالى.

ثم استدعاهم وأعلمهم استجابته إلى ما دعوه إليه ورد إليهم الكتاب حتى شاهدوه وعرفوه واستعاده ليحلف به.

فلما حصل في يده أخرج الكتاب الذي كتبه وحلف أنه يفي بجميع ما تضمنه ولا يعدل عنه فوثقوا بذلك وخفى عليهم فرق ما بين الكتابين.

ثم جمعهم وقال لهم ما أتمكن من إظهار نفسي والمبادرة بنصرتكم إلا في عدد قوي فإن بلاد الترك تشتمل على ثلثمائة ألف سيف مشهور تخالف هذا المذهب فإن كنتم في عدد قويت به.

فذكروا له دعاتهم ببلاد المشرق وسموهم له وأفضوا إليه بجميع سرهم ودفعوا إليه كتبهم إلى جميع أصحابهم بما استقر العزم عليه.

ثم جمعهم وأحضر فقهاء بلده لمناظرتهم وفيهم عبد الملك بن محمد البلخي الفقيه بن محمد شيخ البلد ونصر بن عطاء وجعلهما من وراء ستر فذكر الدعاة أسرار مذهبهم على غرة منهم وغفلة بما دبر عليهم وبغراخان يستخبرهم حتى صرحوا بعقائدهم.

فأخرج حينئذ عبد الملك ونصراً وقبض على الدعاة وقيدهم ونادى في الناس ليجتمعوا وقد نصب جذعا وصلب عليه الدعاة واحدا بعد واحد ورماهم بالنشاب فقتل منهم ستة عشر رجلا وذبح منهم واحدا بين يديه ذبحه بعض عبيده فأعتقه وتصدق بمائة ألف درهم.

وتتبع كل من في أعماله من الدعاة فقبض على مائة وثلاثة وثلاثين رجلا وأوثقهم بالحديد وألقاهم في جب مظلم وكتب إلى جميع بلاد ما وراء النهر بقتل من عندهم من هذه الطائفة.

وكتب إلى بغداد بما فعله فقدم رسوله في هذه السنة فأجيب بالشكر والثناء.

وفيها سير المستنصر إلى قرواش بن المقلد أعلاماً وخلعاً فلبسها فأنفذ إليه الخليفة القائم من بغداد يعاتبه على ذلك فاعتذر ولبس السواد ورجع عن دعوة المستنصر.

اشتهر انتقاض الهدنة التي قررها الظاهر لإعزاز دين الله بين وبين متملك الروم وسعى الرسل في تقريرها بين المستنصر وبينه وكان انتقاضها على الحقيقة من مدة أربع سنين مضين.

فلما كان في ثامن ذي الحجة وردت هدية متملك الروم من القسطنطينية إلى القاهرة وقيمتها ثلاثون قنطارا من الذهب والقنطار عندهم سبعة آلاف دينار ومائتا دينار.

وكان من جملتها بغل وحصان من أحسن الدواب وأعلاها قيمة كل منهما عليه ثوب ديباج رومي منقوش ثقيل وخمسون بغلا عليها مائة صندوق مصفحة بالفضة فيها آنية الذهب والفضة منها مائة قطعة بميناء وفيها من الديباج والسندس والإبريسم والعمائم المعلمة ما لا يقدر على مثله.

فعوض عن هديته بمثلها من حق مصر ومن الجوهر والمسك والعود والطراز عمل تنيس ودمياط ما هو أكثر قيمة مما بعثه.

سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة

في سادس عشر المحرم قتل أبو علي الحسن بن علي الأنباري في خزانة البنود بالقاهرة.

سنة تسع وثلاثين وأربعمائة

فيها عمل الوزير أبو منصور الفلاحي على أبي سعيد سهل بن هرون التستري اليهودي وقتله عند خان العبيد.

وذلك أن أم المستنصر كانت جارية أبي سعيد هذا فأخذها منه الظاهر وتسراها فولدت له ابنه المستنصر فرقت أبا سعيد درجةً عليه بعد وفاة الظاهر.

وكان يخاف الوزير الجرجرائي فلم يظهر ما في نفسه.

فلما مات الجرجرائي وتولى الفلاحي انبسطت كلمة أبي سعيد في الدولة بحيث لم يبق للفلاحي معه في الوزارة أمر ولا نهي سوى الاسم فقط وبعض التنفيذ لا غير وأبو سعيد يتولى ديوان أم الخليفة المستنصر.

فغض الفلاحي بأبي سعيد وشغب عليه الجند حتى قتلوه.

وذلك أن بني قرة عرب البحيرة أفسدوا في الأعمال فخرج إليهم الخادم عزيز الدولة ريحان وأوقع بهم وقتل منهم وعاد وقد عظم في نفسه لمعالجة النصر على بني قرة والظفر بهم.

فثقل على أبي سعيد أمره واستمال المغاربة وزاد في واجباتهم ونقص من أرزاق الأتراك ومن ينضاف إليهم فجرى بين الطائفتين حرب بباب زويلة.

واتفق مرض ريحان وموته فاتهم أبو سعيد أنه سمه وتجمع الطوائف المنحرفة عنه على قتله.

فركب من داره على العادة يريد القصر في يوم الأحد لثلاث خلون من جمادى الأولى في موكب عظيم فلما قرب من القصر اعترضه ثلاثة من الأتراك وضربوه حتى مات.

فأمر المستنصر بإحضار من قتله فاجتمع الطوائف وقالوا نحن قتلناه.

فلم يجد المستنصر بداً من الإغضاء.

وقطع الأتراك أبا سعيد قطعاً وتناولت الأيدي أعضاءه فتمزقت واشترى أهله ما قدروا على تحصيله من جثته بمال.

وجمع الأتراك ما قدروا عليه من أعضائه ورمته وحرقوا ذلك بالنار وألقوا عليه من التراب ما صار به تلا مرتفعا.

وضم أهله ما وصل إليهم منه في تابوت وأسدلوا عليه ستراً وتركوه في بيت مؤزر بالستور وأوقدوا الشموع وأقاموا عزاءه.

فتعلقت من بعض الشموع شرارة في الستور التي هناك ومضت فيها فاحترق التابوت بما فيه.

وكان مقدار ما حصل في بيت المال البراني على يدي أبي نصر صدقة الوزير وأبي سعيد إبراهيم التستري من يوم مات الوزير علي بن أحمد الجرجرائي وإلى أن قتل أبو سعيد سبعمائة ألف دينار.

والذي مات عنه الجرجرائي وهو حاصل بيت المال المذكور برسم النفقات ألف وسبعمائة ألف وستمائة وواحد وعشرون ديناراً ونصف ونصف ثمن دينار.

فصار حاصل بيت المال برسم النفقات إلى أن قتل أبو سعيد ألقى ألف دينار وأربعمائة ألف دينار وستمائة دينار وواحد وعشرون ديناراً ونصف ونصف ثمن دينار.

ورد المستنصر لأبي نصر أخي أبي سعيد خزانة الخاص ولولدي أبي سعيد النظر في بعض الدواوين.

وحقدت أم المستنصر على الوزير أبي منصور صدقة بن يوسف الفلاحي بسبب قتل أبي سعيد وما زالت به حتى صرفته عن الوزارة واعتقلته بخزانة البنود.

وقيل كان صرفه في سادس المحرم سنة أربعين.

واتفق أنه لما قبض عليه وسجن بخزانة البنود وأمر بقتله بها حفرت له حفيرة ليوارى فيها فظهر للفعلة عند الحفر رأس فلما رفع سئل عنه الفلاحي فقال هذا رأس ابن الأنباري وأنا قتلته ودفن في هذا الموضع وأنشد: ربّ لحدٍ قد صار لحداً مراراً ضاحكٍ من تزاحم الأضداد وكان أبوه أحد الكتاب البلغاء وتولى ديوان دمشق.

ومن أحسن ما قيل في أبي سعيد وقد كره أذاه للمسلمين أنه كان يحلف: وحق النعمة على بني إسرائيل قول الرضي فيه: يهود هذا الزّمان قد بلغوا

غاية آمالهم وقد ملكوا العزّ فيهم والمال عندهم ومنهم المستشار والملك يأهل مصر إنّي قد نصحت لكم تهوّدوا قد تهوّد الفلك وفيها استقر في الوزارة بعد الفلاحي أبو البركات الحسين بن عماد الدولة بن محمد بن أحمد الجرجرائي ابن أخي الوزير صفي الدين ولقب بالوزير الأجل الكامل الأوحد علم الكفاة سيد الوزراء ظهير الأئمة عماد الرؤساء فخر الأمة ذي الرئاستين صفى أمير المؤمنين.

وفيها ابتدأ أمر أبي محمد الحسن بن علي بن عبد الرحمن اليازوري.

وكان من خبره أن أباه علي بن عبد الرحمن كانت له حال واسعة ببلد يعرف بيازور من ضياع فلسطين وكان مقدماً فيها فلما كبرت حاله انتقل إلى الرملة واستوطنها وصارت له وكلاء في الضياع.

فاشتهر هناك وعرف بالعفة والصدق وسماح النفس فرد إليه قضاء بعض أعمال الرملة.

ونشأ له ابنان نجيبان ولي أحدهما الحكم بعد أبيه إلى أن توفي ثم خلفه أخوه عبد الرحمن هذا من بعده فعرف بسعة النفس وسعة الأخلاق فاتصل بخدمة الوزير الجرجرائي فصر بذلك ممنوعاً ممن يريده بسوء.

واتفق أنه حج قبل قدومه إلى مصر فلما زار قبر رسول الله نام في الحجرة الشريفة فسقط عليه خلوق من الزعفران الملطخ في حوائط الحجرة فجاء بعض الخدام وأيقظه من نومه وقال: أيها الرجل إنك تلي ولايةً عظيمة وقد بشرتك فلي منك الحباء والكرامة.

ثم انتقل بتلطفه وكثرة مداخلته إلى خدمة السيدة أم المستنصر فتقرب بخدمتها ولازم بابها عندما صرف عن الحكم بفلسطين يسأل عوده إلى وطنه وخدمته فيها وهو مع ذلك يواصل الوزير الفلاحي ويؤانسه فيبدأه بما في نفسه من أبي سعيد التستري فيفاوضه في التدبير على المذكور ويفتح له من العمل عليه ما يظهر له صوابه.

فثقل مكانه على أبي منذر لقربه من أم المستنصر ولمما لأنه الوزير الفلاحي وهم به ثم تراخى عنه حتى كان من أمره ما كان وأمر اليازوري في كل يوم يتزايد وحاله يقوى.

إلا أن قاضي القضاة وداعي الدعاة قاسم بن تاميلا كان يمتنع من رد الحكم إليه ببلده لما يعلم من سوء رأي أبي سعيد فيه وأنه يريد القبض عليه فكان ينحرف عنه ولا يلتفت إليه.

واتفق أن حضر قاضي القضاة ذات يوم بباب البحر من القصر على عادته في كل يوم اثنين لتقبيل الأرض والسلام أو خروج السلام عليه ويجلس معه من الشهود من جرى رسمه بذلك.

فلما جلس بباب البحر وخليفتاه القضاعي وابن أبي زكرى والشهود دخل أبو محمد اليازوري وجلس معهم فقال له قاضي القضاة: بأمر من جلست ههنا! أتظن أن المجالس كلها مبذولة لكل أحد أن يجلس فيها هذا مجلس لا يجلس فيه إلا من أذنت له حضرة الإمامة وشرفته به اخرج فوالله لا تضرفت على أيامي أبدا.

فخرج ورجلاه لا تكادان تحملانه فوقف بباب البحر إلى أن خرج قاضي القضاة فسار وخليفتاه والشهود معه فسار في أعقابهم وسبقهم ووقف بباب دار القاضي فلما نزل صنع له استعطافا فلم يعره طرفه وانصرف.

فلقيه القضاعي وقال: يا أبا محمد كان يجب ألا تريه وجهك عقب ما جرى لك معه.

وفارقه.

فلقيه ابن زكرى وخطابه بجفاء.

فرد إلى داره مغموماً فوجد ثلاثين حملاً من تفاح قد وصلت إليه من ضياعه لتباع بمصر فأنفذ منها خمسة أحمال إلى الوزير ولقاضي القضاة خمسة أحمال وللقائد الأجل عدة الدولة رفق خمسة أحمال ولمعز الدولة معضاد خمسة أحمال ولابن أبي زكريا ثلاثة أحمال وللقضاعي خمسة أحمال وفرق حملين على حراسهم.

فلم يلتفت أحد منهم إليه ولا عطف عليه ما خلا القائد الأجل عدة الدولة رفق فإنه شكره وأثنى عليه.

وهو مع ذلك يقف بباب البحر فإذا أقبل عدة الدولة رفق يريد القصر تلقاه وسلم عليه فيكرمه ويسأل عن حاله ثم يدخل إلى القصر فإذا خرج وجده واقفاً على حاله فيسلم عليه ويتبعه إلى داره فإذا دخل انصرف عنه.

فأقام على ذلك أياما فخف على قلبه ورغب في اصطناعه فصار إذا وصل إلى داره أمره بالنزول معه فينزل ويتحدثان وكان حلو الحديث فيطيل عنده ثم ينصرف.

فصار يشتاقه إذا غاب ويمسكه إذا أراد الانصراف حتى تحضر المائدة.

وكانت أم المستنصر لما هلك أبو سعيد توقفت أمور خدمتها فأحضرت أخاه وأمرته بخدمتها فامتنع خوفا من الوزير والأتراك واستمرت ثلاثة أشهر تسأله وهو يمتنع.

فحضر أبو محمد اليازوري يوماً فجلس عدة الدولة رفق وجرى بينهما امتناع أبي نصر أخي أبي سعيد من خدمة أم المستنصر فقال له رفق: أرى أن تكتب رقعة تلتمس خدمتها وتعرض نفسك عليها.

فقال أبو محمد: قد كنت أظن جميل رأيك فيّ وإيثارك مصلحة حالي وأكذبني ظني.

فقال: بماذا فقال: الهزء بي فإني قد أجهدت في العود إلى قرية كنت فيها فبخل علي بها.

فكيف أتعرض لهذا الأمر الكبير ومناوأة الوزراء! فقال له: أما ترضاني سفيراً لك في هذا الأمر وعلي استفراغ الوسع فيه لوجوب حقك علي فإن قضت الأقدار ببلوغ الغرض في ذلك فقد أدركنا ما نؤثره وإن تكن الأخرى فقد أكثر من العطلة ما تحصل.

فأجاب إلى ذلك وكتب إلى السيدة رقعة يعرض نفسه وماله عليها ويخطب خدمتها ويبذل الاجتهاد فيها وأخذها منه رفق.

فلما كان من الغد ركب إلى القصر ودخل إلى السيدة وقد أحضر أبو نصر وعاودته الخطاب في خدمتها وهو يمتنع حتى أضجرها فانتهز عز الدولة رفق الفرصة بضجرها وقال: يا مولاتنا قط طال غلق بابك ووقف خدمتك في امتناع الشيخ أبي نصر مما نريده منه وههنا من أنت تعرفينه وهو رجل مسلم وقاض وكبير المروءة وهو مستغن بماله وأملاكه عن التعرض لما لك وهو ثقة ناهض كاف فقالت: من هو فقال القاضي أبو محمد اليازوري وهذه رقعته.

فأمرته بتسليمها إلى أبي نصر وقالت: ما تقول فيه فلم يصدق بذلك.

فقال يا مولاتنا هو والله الثقة الأمين الناهض الذي يصلح لخدمتك وفيه لها جمال وما تظفرين بمثله.

فوقع ذاك منها بالموافقة.

فقال لرفق: قل له يجلس في داره غداً حتى أنفذ إليه فسر بذلك وخرج فإذا أبو محمد في انتظاره على عادته فسار ولحق به أبو محمد فقال له: أقمح أم شعير فقال: بل بر يوسفي وقص عليه الخبر.

فلما كان الغد جاء الرسول مستدعياً له فركب إلى بابها فأحضرته وأدخلته وراء المقطع وردت إليه أمر بابها والنظر في ديوانها الذي هو باب الريح وجميع أحوالها ونزل.

فبلغ ذلك الوزير فكبر عليه وأقلقه أن تم على غير يده وأنه لا يقبل قوله عند السيدة لما في نفسها منه لقتل أبي سعيد.

وأقبل الأمراء الأتراك إلى القاضي أبي محمد فهنئوه بما صار إليه فقام إليهم وتلقاهم وأعظم سعيهم إليه وشكرهم وقال: ما أنا إلا خادم ونائب لموالي الأمر أسأل في تشريفي بما يعين لهم من خدمة لأنهض فيها.

ثم لما قاموا نهض قائما لوداعهم.

وأخذ الوزير الفلاحي في العمل عليه فلم يمض إلا أيام حتى قبض عليه وقتل.

سنة أربعين وأربعمائة

فيها سار ناصر الدولة أبو محمد الحسن بن الحسين بن الحسن بن حمدان أمير دمشق وشجاع الدولة جعفر بن كليد والي حمص بالعساكر وقبائل العربان إلى حلب لقتال أميرها ثمال بن صالح بن مرداس.

وذلك أن ثمال بن صالح كان قد قرر على نفسه في وزارة الفلاحي أن يحمل كل سنة عشرين ألفا فأخل الحمل سنتين وأخذ شجاع الدولة يغرى الوزير على ثمال ويسهل أمر حلب.

فخرج الأمر إلى ابن حمدان أن يسير هو ووالي حمص بجموع العرب فنزل بمن معه على حماة وفتحها وأخذ المعرة وأقدم فنزل على حلب لخمس بقين من ربيع الآخر.

وحارب ابن مرداس حروباً آلت إلى رحيل ابن حمدان بغير طائل في سادس عشر جمادى الأولى.

ففي عوده أصابه سيل هلك فيه أكثر ما معه من الخيل والرجال والأمتعة وعاد إلى دمشق.

فبعث ثمال إلى المستنصر يسأل عفوه وكان المتوسط بينهما أبو نصر إبراهيم أخو سعيد التستري فأجيب إلى ذلك وانفصل رسول من الحضرة.

فورد الخبر بأن ثمال بعث والياً إلى معرة النعمان وأنه أساء التدبير فانحرف عنه الناس وفر منهم إلى حلب وأن جعفراً أمير حمص بادر إلى المعرة فلقيه مقلد بن كامل بن مرداس وحاربه فقتل في الوقعة لست

بقين من شعبان وحملت رأسه وشهرت بحلب وأسر كثير من عسكره فبعث المستنصر إلى رسول ثمال ورده وأفهمه ما ورد من المكاتبة.

ووجد الوزير أبو البركات السبيل إلى الإغراء بأبي نصر إبراهيم فما زال يبلغ المستنصر بأنه حمله الحقد لقتل أخيه على السعي فيما يضر الدولة من التوسط بين ثمال والحضرة وأن ابن حمدان أساء التدبير في رجوعه عن حلب.

فقبض على أبي نصر وأخذت عامة أمواله وعوقب حتى مات.

وولي دمشق بهاء الدولة مظفر الخادم الصقلبي وخرج إليها على جرائد الخيل فدخلها على حين غفلة وقبض على ناصر الدولة ابن حمدان وحمله إلى صور ونقله إلى الرملة وصودر وأقام مظفر الخدمة بدمشق.

وقبض على راشد بن سنان بن عليان أمير بني كلاب واعتقله بصور.

وخرج أمير الأمراء المظفر فخر الملك عدة الدولة وعمادها رفق الخادم في ثامن عشر ذي القعدة بتجمل كثير وأبهة عظيمة وقوة قوية وعدة وافرة وآلات طبله وعساكر تبلغ عدتهم ثلاثين ألفا وكان المنفق فيه عيناً مع قيمة العروض أربعمائة ألف دينار.

فبرز ظاهر القاهرة يريد حلب وخرج المستنصر لتشييعه وكتب لجميع أمراء الشام بالانقياد له والطاعة لأمره وأن يترجلوا له إذا لقوه.

وسار فوافى الرملة وقد وصل رسول صاحب القسطنطينية بالصلح بين المستنصر وبين بني مرداس ففشل رفق وانخرقت حرمته وجرت بالرملة وبدمشق أمور آلت إلى حرب بين العسكر عدة أيام فبات يوماً ظاهر دمشق.

وفيها قتل الوزير صدقة بن يوسف الفلاحي يوم الاثنين النصف من المحرم بخزانة البنود ودفن فيها.

واتفق في وفاته عجب وهو أنه لما ولى الوزارة سعى في اعتقال أبي علي الحسن بن علي الأنباري واعتقله بخزانة البنود ثم قتله في سنة ست وثلاثين وأربعمائة ودفنه بخزانة البنود.

فلما قبض عليه بعد صرفه عن الوزارة سجن في المكان الذي كان فيه ابن الأنباري من خزانة البنود وقتل فيها ودفن معه.

وكان ابن الأنباري من جماعة الوزير الجرجرائي ورفيقاً للفلاحي وصاحبه ولما ولي الوزارة تخوف منه وما زال يعمل عليه حتى قتله كما تقدم.

وفيها أقبلت حال أبي محمد اليازوري تزيد ومنزلته ترتفع وخلع عليه ثانيا وأمر ألا يقوم لأحد إذا دخل عليه ولو عظم قدره فكان يعتذر إلى من يغشاه من الجلة والرؤساء الأكابر وأنه ملك اختياره لبالغ في تكرمتهم بما يستحقونه خلا القائد عدة الدولة الذي كان سفيره فإنه كان إذا أقبل وثب إليه قائما.

فبلغ السيدة ذلك فقالت له: لا تتحرك لأحد بالجملة فكان إذا جاءه اعتذار إليه.

ولقب بالمكين عمدة أمير المؤمنين وترقت أحواله حتى صار يحضر بحضرة الخليفة إذا أراد أن يستدعي الوزير كما كان أبو سعيد مع الفلاحي.

فعظم ذلك على الوزير لأنه كان إذا حضر القاضي أبو محمد اليازوري تحدث طويلاً والسيدة من وراء المقطع ثم يستدعي الوزير فيعرض ما يريد من أمر الدولة ولا يكون المجيب له إلا القاضي أبو محمد فإذا أجابه التفت إلى المستنصر وقال أليس هذا الصواب فيقول المستنصر نعم ثم يخرج الرسول من وراء المقطع ويقول هذا الصواب.

فكان الوزير كأنه يعرض على اليازوري الأمور دون الخليفة فيشق عليه ذلك ولا يتمكن من مخالفته ولا يستطيع الصبر على ما به.

وكان من جملة أصحاب الدواوين رجل يعرف بالشيخ الأجل عبد الملك زين الكفاة أبي المفضل صاعد بن مسعود وإليه ديوان الشام يومئذ وهو شيخ خود وكان الوزراء يعتمدون عليه ويرجعون إلى رأيه.

فأحضره الوزير وفاوضه في أمر اليازوري وأخذ رأيه فيما يعمل مع فأشار عليه بأن يحسن للخليفة أن يقلده القضاء ظنا منه أنه إذا تقلد القضاء فإنه يقع في أمر كبير ويشغله ذلك عن ملازمة السيدة فيجد الوزير سبيلاً إلى استخدام ولده مكانه ويتقوى له الأمر فيه ويملك جهة الخليفة والسيدة.

وكان قد تكلم في قاضي القضاة من أيام أبي سعيد وذكر أن أمور الناس ناقصة في حكوماته وأن له غلمانا قد استحوذوا على الحكم وهم الذين يوقفون أمور الناس فاستخدم أبو سعيد شاهداً يعرف بابن عبدون خليفة القاهرة وتقدم إلى قاضي القضاة ألا يفصل حكما بين اثنين إلا بحضوره.

وضبط ابن عبدون أمر الحكم ضبطا شديدا وكان الخصوم يجتمعون بباب القاضي والشهود بين يديه فلا يمضي حكما إلا في دعوى بين اثنين وما يحتاج إليه من إقامة بينة أو منازعة أمرأة مع بعل لها في فرض وما يجري هذا المجرى.

وأما في تثبيت أو قصص مستعجمة الحكم وما يحتاج فيه إلى مناظرات ومنازعات فلا يتكلم في شيء من ذلك إلا عند حضور ابن عبدون وحجج الناس يحتاط عليها في قمطر وتحمل بين يدي القاضي فإذا حضر ابن عبدون أحضرت وفصل الحكم فيما بين أصحابها.

وما زال كذلك حتى حضر إليه خصم في مرات فخاف عليه وتشفع إليه بأصدقائه فلم يعره فرضة يوما حتى خرج من مجلس قاضي القضاة وركب فتقدم إليه وقبل ركابه وخضع له وتلطف في أمره فلم يلتفت إليه فعاد إلى من خرج إليه من الشهود وسألهم سؤاله فانتهره.

فلما أيس منه وثب عليه بخنجر وخرق به بطنه فخر إلى الأرض ميتا.

وأخذ الرجل إلى أبي سعيد فنكل به وقطع يديه ورجليه وضرب عنقه.

ثم استخدم أبو سعيد بعد ابن عبدون القضاعي وابن أبي زكرى وأقامهما خليفتي قاضي القضاة وأمرهما بسلوك طريق ابن عبدون في الأحكام فلم يقوما مقامه وكانا يجاملان القاضي فعاد الأمر إلى ما كان عليه قبل ابن عبدون إلا في فصل الأحكام فإنها كانت لا تنفصل إلا بحضورهما.

فثقل ذلك على القاضي لاستيلاء غلمانه عليه واتهامه أن أمور الناس واقفة وأنه لا ينفذ له حكم ولا أمر ولا نهي.

وكان يحضر مجلس الوزير يوم الخميس في القصر بعد قضاء خدمة المجالس ثم في الدار يوم الاثنين مسلما عليه.

فحضر دار الوزارة يوم الاثنين على رغمه فقربه الوزير وسأل عن حاله فأجاب بأنه لا حكم له ولا أمر والأحكام مردودة إلى خليفته ولهما الحكم دونه فإذا حضرا فتح باب الحكم وإذا غابا أغلق بابه.

فقال له: كفيت يا قاضي القضاة.

وخرج من عنده وحضر بعده القضاعي وابن أبي زكرى فقال لهما الوزير: ما لقاضي القضاة يتضرر منكما ويشكو استيلاءكما على الحكم دونه وأنه لا تنفذ أوامره معكما فقالا: وأي أمر لنا دونه هل أوقفنا أمر أحكامه أولنا غلمان يمسكون حجج الناس حتى يصانعوهم عليها يعرضان بغلمان القاضي! إنما نحن في حضورنا كبعض الشهود والأمر إليه في إمضاء الأحكام وإنا لنشاهد ما لا يتسع لنا الكلام فيه.

فقال: كفيتما أيها القضاة.

وانصرفا وقد انفتح له باب الحيلة في صرف القاضي وتولية أبي محمد اليازوري.

واتفق مع ذلك توعك أبي محمد وانقطاعه أياما في داره عن مجلس الخليفة فخلا له وجه السلطان وأعاد عليه النوبة ثم قال له: أنت يا أمير المؤمنين لسان الشرع ومقيم مناره ومنفذ أحكامه وقاضي القضاة إنما ينطق بلسانك وينفذ الأحكام عنك فإذا اشتهر في الأقطار ما يتم على الناس في أحكامهم كان سوء السمعة في ذلك على الدولة وإثارة الشناعة القبيحة عليها وفي الخصوم من هو من المشرق والمغرب واليمن وما وراءه والروم وفي استفاضة ذلك غضاضة على الدولة.

ونحن إنما نطول على الممالك والدول بإقامة سنن الشريعة وإظهار العدل الذي عفت آثاره في غيرها من الدول وقد كبر قاضي القضاة واستولى عليه غلمانه وغلبوا على أمره.

فقال المستنصر: نحن نحفظ فيه خدمة سلفه لنا ومهاجرتهم معنا.

فقال: يا أمير المؤمنين حفظك الله وشكرك أما كان من كرامة سلفه أن يستتر حتى لا يشيع هذا عنه وما زال حتى قال الخليفة: من في الدولة يجري مجراه فقال: يا أمير المؤمنين: عبيدك كثير ومع ذلك فبين يديك من يتحمل الحكم به مع ثقته وأمانته وقربه من خدمتك القاضي أبو محمد.

فقال: ذلك في خدمة مولاتنا الوالدة ولا يفسح له في ذلك.

فقال: يا أمير المؤمنين هي خلد الله ملكها أغير على دولتك وأحسن نظراً لها من أن تحول بينها وبين ما يجملها ومع ذلك فلم ينقل مما هو فيه إلى ما هو دونه بل إلى ما هو أوفى منه.

فأجاب إلى ذلك وقام فشرع في كتب سجله وإعداد الخلع له.

وسمع هذه النوبة القائد عدة الدولة فأوفد إلى أبي محمد يخبره وقال له تلطف في أمرك كما تريد.

فعظم ذلك عليه وخاف من بعده عن خدمة السيدة إذ كانت أجل الخدم فإن كل من في الدولة من وزير وأمير وغيرهما محتاج.

فلما كان عشاء الآخرة حمل على نفسه وهو محموم وركب إلى باب الريح ودخل وأنفذ يعلم السيدة مكانه فخرجت وراء المقطع وسألته عن حال مرضه وما الذي دعاه للعناء في هذا الوقت.

فقص عليها القصة وقال: إنما الغرض إبعادي عن خدمتك ليقع التمكن مني.

فقالت: وما الذي تكره من ذلك فقال: يا مولاتنا هوى الحكم واسع وأحوال قاضي القضاة ابن النعمان فيه مشهورة ولو كانت جارية على النظام المستقيم لشغلت عن خدمتك فكيف والحاجة داعية إلى إصلاحه وإحكام نظامه وفي هذا شغل كبير.

فقالت: لا يضيق صدرك بهذا الأمر فبابي لك وخدمتي موفورة عليك ولا أستبدل بك أبداً.

فقال: يا مولاتنا قد قدمت القول أن هوى الحكم كبير واسع وانشغالي به يحول بيني وبين ملازمة بابك.

فقالت: خليفتاك في الحكم القضاعي وابن أبي زكرى هما ينفذان من الأحكام ما يجوز تنفيذه فإذا تحررت إلى فصل الأحكام نزلت ففصلت ذلك وقررت لنزولك يومين في الجمعة لفصل الأحكام وإذا نزلت كان ولداك ينوبان عنك في تنفيذ أمور خدمتي وهذا التقرير لا يغلبك فعله.

فقبل الأرض ودعا وشكر وانصرف.

وكانت إذا قالت قولاً وفت به وثبتت عليه فإنها كانت وثيقة العقد حافظة العهد غير ناقضة له ولا متغيرة عنه مع من تطلع من أمره على ما يقتضي التغيير عليه فكيف بمن ترتضي طريقته وتحمد خلائقه.

وفيها ولي القائد بهاء الدولة وصارمها طارق الصقلبي المستنصري دمشق فقدمها صبيحة يوم الجمعة مستهل شهر رجب وساعة وصوله دخل القصر وقبض على ناصر الدولة أبي محمد الحسن بن الحسين بن حمدان.

سنة إحدى وأربعين وأربعمائة

في ثاني المحرم صرف قاضي القضاة أحمد بن عبد العزيز بن النعمان عن القضاء.

وكانت هذه ولايته الثانية وله فيه ثلاث عشرة سنة وشهر وأربعة أيام.

واستدعي إلى حضرة المستنصر القاضي أبو محمد اليازوري وخلع عليه مكانه في رابع عشره وقرئ سجله في الديوان وخرج والدولة بأسرها بين يديه.

واستناب ابنه الأكبر أبا الحسن محمداً ولقب بالقاضي الأجل خطير الملك وأقام ابنه الآخر في جهات السيدة.

وشرع الوزير في الإرسال إلى السيدة بأن يستقر ابنه في بابها فامتنعت من ذلك وقالت ما كنت بالذي يستبدل به بوجه ولا سبب.

فسقط في يده وقال: أردنا وضعه والله تعالى يريد رفعه.

فقال له أبو الفضل: أما إذ جرى الأمر بخلاف ما ظنناه فليس إلا مجاملة الرجل.

وكان أبو محمد اليازوري لا يسلم على الوزير ولا يجتمعان إلا يوماً في الشهر يحضر إلى دار الوزير فإذا حضر إليه احتجب عن كل أحد وتلقاه قائما وأجلسه على مخدة وأعطه من المجاملة فوق ما يؤثره منه وهو مع ذلك يبطن له السوء ويعمل في التدبير عليه.

وكانت أيام الوزير كلها رديئة لكثرة القبض على الناس والمصادرات واصطفاء الأموال والنفي ونحو ذلك فكثر الذام له.

وكان أيضاً يبطش بمن يبطش به من غير علم الخليفة ولا استئذانه فتغير خاطر الخليفة عليه وتكثر منه تغيظه.

إلا أن العادة جرت بألا يعترض الوزير فيما يفعله ويمد له في النفس ويصبر على ما يكون منه.

وفيها قبض على أبي نصر إبراهيم بن سهل واتهم أنه مالأ ثمال بن صالح حتى قتل جعفر بن كليد صاحب حمص وسلم إلى الوزير أبي البركات الجرجرائي فضيق عليه وصادره حتى مات تحت العقوبة.

وكان هو الذي سعى به إلى المستنصر فقال إنه عين لثمال.

واتفق وصول الخادم رفق إلى دمشق وخروجه منها في سادس صفر يريد حلب فوصل إلى جبل جوشن في ثاني عشري ربيع الأول وأقام هناك ثم بدا له فبعث بما معه من الأثقال إلى المعرة فظن من معه من العساكر أنه يريد أن ينهزم فأجدوا في الرحيل وقد حاصر قلوبهم الوجل وداخلهم الخوف فأمر بردهم إليه فأبوا ذلك عليه.

وفطن أهل حلب لهم.

فتبعوهم ونهبوا ما قدروا عليه منهم وكانت بينهما حرب جرح فيها رفق في عدة مواضع من رأسه وبدنه وأسر وانهزم العسكر بأسره.

وحمل رفق على بغل وهو مكشوف الرأس ومعه جماعة من وجوه عسكره فلم يحتمل ما أصابه واختلط عقله ومات بقلعة حلب بعد ثلاثة أيام في مستهل ربيع الآخر واعتقل عامة من كان معه من القواد والكتاب بحلب.

فلما ورد الخبر بذلك على المستنصر أمر بالإفراج عن ناصر الدولة أبي محمد الحسن بن الحسين بن حمدان من الاعتقال وقلد إمارة دمشق

الأمير المؤيد مصطفى الملك معز الدولة ذا الرئاستين حيدرة بن الأمير عصب الدولة حسين بن مفلح في رجب وخرج معه ناظرا في أعمال الشام أبو ووجد أعداء الوزير أبي البركات الحسين بن محمد الجرجرائي سبيلاً إلى إغراء المستنصر به وأنه تسرع فيما عادت مضرته على الدولة من تجهيز العساكر إلى حلب.

فحركت هذه الأقوال وما يشبهها عليه ما يحقده الخليفة من استبداده بأمور من غير أمر ولا استئذان فأمر به فقبض عليه ونفى إلى صور في منتصف شوال فاعتقل بصور.

فكانت وزارته سنة وتسعة أشهر وعشرة أيام.

ثم أفرج عنه ومضى إلى دمشق.

وبقي الأمر في الوزارة عدة أيام والخليفة يعرض لقاضي القضاة أبي محمد اليازوري بالوزارة وهو يمتنع عليه فأسند إلى أبي الفضل صاعد بن مسعود من الأمراء وأقيم واسطةً لا وزيرا وخلع عليه ولقب بعميد الملك زين الكفاة وجعل يرسم عليه عرض ما يختص بالرجال دون الأموال.

وكان إذا أراد الاستئذان على ما يفعل جلس اليازوري بحضرة الخليفة واستدعى أبو الفضل فعرض ما يحتاج إليه فيتقدم إليه اليازوري بما يفعله.

ويخرج في نفسه من اليازوري ما كان يدور بينه وبين الوزراء في معناه.

فأخذ يحمل عليه الرجال ويوهمهم أنه إذا سأل لهم في زيادة أو ولاية يعترضه اليازوري ويفسد عليه.

فلما كان في بعض الأيام قال ناصر الدولة حسن بن حسين بن حمدان لبعض ثقاته: اعلم أن القاضي له الثناء الجميل الكثير ونحن شاكرون له مقيدون بجميله مفتقرون إلى جاهه في جميع أمورنا واعتفاؤه من هذا الأمر لا يبرئه من ذمنا إن وقفت حوائجنا ويكون الشكر فيه لغيره إن قضيت وهذا الرجل عميد الملك هوذا يحمل الرجال عليه ويشعرهم أنه يجتهد في قضاء حوائجهم وأنه يعترضه بما يبطلها عليهم وفي هذا الأمر ما تعلمه.

فقل أنت له عني: يا سيدنا إما أن تزيد شكر الرجال وسلامة صدورهم لك وخلاص نياتهم في طاعتك فادخل في هذا الأمر فإن أحسنت عرفوا ذلك لك وشكروه منك وإن أسأت كان عليك ضرره وشره وإلا فاعتزل جانبا ولا تلعب بروحك مع الرجال وإلا أبلغك أبو الفضل.

فبلغه الرجل ذلك فقال: أمهلني الليلة ثم بكر إلي.

فلما كان في السحر بكر إليه فقال: أعد علي قول ناصر الدولة فأعاده.

فقال: أقره عني السلام وقل له: والله إلا أدخل فيه ويكون لي خيره وشره.

وأبلغ ناصر الدولة رسالته فقال: هذا هو الصواب.

سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة

في سابع المحرم قرىء سجل القاضي أبي محمد اليازوري بالوزارة ولقب بالوزير الأجل المكين سيد الوزراء تاج الأصفياء قاضي القضاة وداعي الدعاة علم المجد خالصة أمير المؤمنين وخلع عليه.

فنظر في الوزارة وليس من أهلها ولا من أرباب الكتابة فمضى فيها مضي الجواد ونهض مسرعاً نهوضا عز به في وجوه من تقدمه مع ما بيده من قضاء القضاء والدعوة والنظر في ديوان السيدة.

وكاتب ملوك الأطراف فأجابوه بوفور حقه إلا معز الدولة بن باديس الصنهاجي صاحب إفريقية فإنه قصر في المكاتبة عما كان يكاتب به من تقدم من الوزراء فإنه كان يكاتب كلا منهم بعبده فجعل مكاتبته صنيعته.

فاستدعى الوزير أبا القاسم ابن الإخوة وكيل ابن باديس بمصر وعتب صاحبه عنده وقال: أن معزاً ينقصني عمن تقدمني إذا لم أكن من أهل صناعة الكتابة وإن لم أكن أوفى منهم فما أنا دونهم ومن رفعه السلطان ارتفع وإن كان خاملاً ومن وضع اتضع وإن كان جليلا نبيلاً فاكتب إليه بما يرجعه إلى الصواب.

فكتب إليه بذلك وقد أذكى الوزير عليه عيونا يطالعونه بأنفاسه.

فلما وقف على كتاب ابن الإخوة قال: ما الذي يريد مني هذا الفلاح لا كنت عبده ولا كان هذا لا يكون أبدا وما كتبت إليه فكثير.

فطالعه عيونه بقوله فأحضر ابن الإخوة وقال له: قد جرى صاحبك على عادته في الجهل فاكتب إليه بما يردعه فيه وإلا عرفته بنفسي إذ لم يعرفني.

فكتب إليه بذلك فأجاب بما هو أقبح من الأول.

فدس إليه الوزير من تلطف في أخذ سكين دواته فلما وصلت إليه أحضر ابن الإخوة وقال له: كنت أظن بصاحبك أن الذي حمله على ما كان منه ثروة الشبيبة وقلة خبره بما تقضي به الأقدار وأنه إذا نبه تنبه فإذا الجهل مستول عليه وظنه أن بعد المسافة بيننا وبينه يمنع من الانتصاف منه

والوصول إليه بما يكره وقد تلطفنا في أخذ سكين دواته وها هي ذي فأنفذها إليه وأعلمه أنا كما تلطفنا في أخذها أنا نتلطف في ذبحه بها.

ودفعها إليه.

فكتب ابن الإخوة بذلك فازداد شراً وبطراً.

فدس عليه من أخذ نعله وكان يمشي في الأحذية السندية فلما وصلت إليه أحضر ابن الإخوة وقال له: اكتب إلى هذا البربري الأحمق وقل له إن عقلت وأحسنت أدبك وإلا جعلنا تأديبك بهذه

فجرى على عادته في القول القبيح.

وفيها توسل ثمال بن صالح في الصفح عنه وأطلق المأسورين وسعى في ذلك علي ين عياض قاضي صور وسير ثمال زوجته علية بنت وثاب بن جعفر النميري وولده وثابا إلى القاهرة ومعهما مال سنتين أربعون ألف دينار.

فقام اليازوري بأمرهم فقبلهم المستنصر وبالغ في الإحسان إليهم وزاد في ألقاب ثمال وألقاب مقلد ابن عمه ولقب قاضي صور عين الدولة.

وفيها ملك المستنصر حصن المنيعة بالشام.

سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة

فيها أظهر المعز بن باديس صاحب إفريقية الخلاف على المستنصر وسير رسولاً إلى بغداد ليقيم الدعوة العباسية واستدعى منهم الخلع فأجيب إلى ذلك.

وجهزت الخلع على يد رسول يقال له أبو غالب الشيزري ومعه العهد واللواء الأسود فمر ببلاد الروم ليعدى منها إلى إفريقية فقبض عليه صاحب الروم.

وبلغ ذلك المعز بن باديس فأرسل إلى قسطنطين ملك الروم في أمره فلم يجبه رعايةً لحق المستنصر.

واتفق قدوم رسول طغرلبك يستأذنه في مسيره إلى مصر فأظهر المودة التي بينه وبين المستنصر وأنه لا يرخص في أذيته.

واتفق قدوم رسول المستنصر إليه بهدية عظيمة فبعث معه برسول القائم بما على يده فدخل إلى القاهرة على جمل وأحرق العهد واللواء والهدية

في حفرة بين القصرين وكان القادر قد فعل مع الظاهر والد المستنصر مثل ذلك بالخلعة التي سيرها إلى محمود بن سبكتكين.

ثم أقر المستنصر رد الرسول إلى صاحب القسطنطينية.

وكان سبب عصيان ابن باديس ما تقدم من تقصيره في مكاتبة الوزير اليازوري وما دار في ذلك.

وكان بطرابلس الغرب وما والاها زغبة ورياح وهما قبيلتان من العرب وبينهما حروب وعداوة فأحضر الوزير مكين الدولة أبا علي الحسن بن علي بن ملهم بن دينار العقيلي أحد أمراء الدولة وكان رجلا عاقلا وسيره إلى زغبة ورياح بخلع سنية وأنعام كثيرة وأمره أن يصلح ذات بينهما ويتحمل ما بينهما من ديات ويفديه بالزيادة في إقطاعاتهما.

فلما تم له ذلك أمرهم بالمسير إلى المعز بن باديس وأباحهم دياره وتشدد في هذا الأمر حتى توجه المذكورون إلى ديار ابن باديس وملكوها وجمعوا ذيوله عليه وقلموا أظفاره وضيقوا خناقه حتى لم يتمكن من قتالهم إلا مستنداً إلى حيطان إفريقية.

وذلك أنهم ملكوا برقة فسار إليهم المعز فهزموه وتبعوه إلى إفريقية وحصروا المدن فنزل بأهل إفريقية بلاء لا يوصف فخرج إليهم المعز في أربعين ألفا وقاتلهم فهزموه إلى القيروان.

ثم جمع ثمانين ألفا وقاتلهم فهزموه وأكثروا من القتل في أصحابه وحصروه بالقيروان.

وأقاموا يحاصرون البلاد وينهبون إلى سنة تسع وأربعين فانتقل المعز إلى المهدية في شهر رمضان منها حتى نفدت أمواله وقلت عدده وتفلت منه رجاله وأشرف على التلف فلم يجد سبيلاً غير إعمال الحيلة في خلاصه.

فخرج متخفياً في زي امرأة حتى انتهى إلى المهدية فاستولت العربان على حرمه وداره وغلمانه وقتلوا الرجال وسبوا النساء وانتهبوا ما كان في دوره وقصوره وعاثوا في البلد ينهبون ويأسرون ويقتلون فخربت القيروان حينئذ إلى اليوم.

ووصل كثير مما نهب من قصور بني باديس من الأسلحة والعدد والآلات والخيام وغيرها إلى القاهرة فكان ليوم دخولها إلى القاهرة أمر عظيم من اجتماع الناس واعتبار أهل البصائر بتقلب الأحوال.

وكان من خبر دخول العرب إلى المغرب أن بطون هلال وسليم من مضر لم يزالوا في البادية ونجعوا من نجد إلى الحجاز فنزل بنو سليم مما يلي

المدينة النبوية ونزل بنو هلال في جبل غزوان عند الطائف وكانوا يطرقون العراق في رحلة الشتاء والصيف فيغيرون على أطراف الشام والعراق وكانت بنو سليم تغير على الحاج أيام الموسم وزيارتهم المدينة.

ثم تجهز بنو سليم وكثير من ربيعة بن عامر إلى القرامطة عند ظهورهم وصاروا جنداً لهم بالبحرين وعمان وقدموا معهم إلى الشام.

فلما غلبت القرامطة في أيام المعز لدين الله أبي تميم معد ثم في أيام ابنه العزيز بالله أبي منصور نزار وانهزموا من الشام إلى البحرين نقل العزيز بالله من كان معهم من بني هلال وسليم إلى مصر وأنزلهم بالجانب الشرقي من بلاد الصعيد.

وأقاموا هنالك وأضروا بالبلاد إلى أن ملك المعز بن باديس القيروان في سنة صمان وأربعمائة وهو ابن ثماني سنين من قبل الظاهر لإعزاز دين الله علي بن الحاكم بأمر الله فامتدت أيامه حتى قام في الخلافة المستنصر بالله أبو تميم معد بن الظاهر واستوزر أبا محمد اليازوري فأنف من مكاتبته بالمولى وكان ما تقدم ذكره.

فحلف المعز بن باديس ليحلون الدعوة إلى بني العباس ولج في ذلك وقطع الدعاء للمستنصر وأزال اسمه من الطرز والرايات ودعا للقائم أبي جعفر بن القادر في سنة أربعين وأربعمائة وكتب إليه بذلك.

فكتب إليه بالعهد صحبة أبي الفضل بن عبد الواحد التميمي فقرأ كتابه بجامع القيروان ونشر الرايات السود وهدم دار الإسماعيلية.

ووصل الخبر بذلك إلى القاهرة فأشار اليازوري بتجهيز أحياء هلال بن جشم.

والأشروزينية ورياح وعدي وربيعة إلى المغرب وتولية مشايخهم أعمال إفريقية.

فقبلت مشورته.

وأرسل إليهم في سنة إحدى وأربعين وحمل إلى مشايخهم الأموال وأنعم على سائرهم بفرو ودينار لكل أحد وأبيح لهم حمى المغرب.

وكتب اليازوري إلى المعز بن باديس: أما بعد فقد أنفذنا إليكم خيولا فحولا وأرسلنا عليها رجالا كهولا ليقتضي الله أمراً كان مفعولاً.

فسارت العرب إلى برقة وفتحوا أمصارها وكتبوا لإخوانهم الذين بشرقي الصعيد يرغبونهم في البلاد فأعطوا من الدولة دينارين لكل واحد ومضوا إلى أصحابهم فتصارعوا على البلاد فحصل لسليم الشرق ولهلال المغرب.

وخربوا المدينة الحمراء وأجدابية وسرت.

وأقامت بطون من سليم وأحلافها بأرض برقة وسارت قبائل دياب وعرق وزغب وجميع بطون هلال إلى إفريقية كالجراد المنتشر لا يمرون بشيء إلا أتوا عليه حتى وصلوا إلى إفريقية سنة ثلاث وأربعين.

وكان أول من وصل منهم أمير رياح مؤنس بن يحيى العنزي فاستماله المعز بن باديس وكثر عيثهم في البلاد ونادوا بشعار المستنصر.

فبعث إليهم المعز العسار فأوقعوا بها فخرج إليهم في ثلاثين ألفا فهزموه وفر بنفسه وخاصته إلى القيروان فنهبوا جميع ما كان معه وقتلوا واقتسم العرب بلاد إفريقية في سنة ست وأربعين وكان لزغبة طرابلس وما يليها ولمرداس بن رياح باجة وما يليها.

ثم اقتسموا البلاد ثانيا وكان لهلال من قابس إلى المغرب وهم رياح وزغبة والمعقل وجشم وترنجة والأسيح وشداد والخلط وسفيان.

ونصوح الملك من المعز بن باديس فركب البحر في سنة تسع وأربعين فدخل العرب القيروان واستباحوه وخربوا مبانيه فتفرق أهله في البلاد.

ثم أخذوا المهدية وحاربوا زناتة من بعد صنهاجة وغلبوهم على الضواحي واتصلت الفتنة بينهم فخربت إفريقية بأسرها وصيروا البربر لهم خولاً.

ومات المعز بن باديس سنة أربع وخمسين وأربعمائة.

وكان المستنصر لما بعثهم إلى إفريقية جعل المؤنس بن يحيى المرداسي ولاية القيروان وباجة وأعطى زغبة طرابلس وقابس وجعل الحسن بن مسرة في ولاية قسنطينة فلما غلبوا صنهاجة ملك كل منهم ما عقد عليه فاشتد عيثهم وإفسادهم.

وفيها كانت وقعة البحيرة.

وذلك أنها في إقطاع بني قرة وقد ملكوها وعمروا ضياعها وكثرت فيها أموالهم واشتدت شوكتهم وخشن جانبهم وكثر المقدمون فيهم حتى انتشر ذكرهم وذل لهم عددهم وثقل أمرهم على الولاية بالإسكندرية فجاورهم الطلحيون واستذموا منهم وكانت لهم واجبات على الدولة من غير إقطاع

وهم يأخذون واجباتهم محمولة مع واجبات العسكر بالإسكندرية عندما تحمل إليها.

فاتفق أن ناصر الدولة ابن حمدان أبا نصر الدولة حسين كان واليا بالإسكندرية.

فاستحق الطلحيون على الدولة عن واجباتهم المذكورة ثلاثة آلاف دينار فواصلوا اقتضاء ناصر الدولة إنفاقهم فيهم فوعدهم وكتب إلى الحضرة يلتمس ذلك فوعده الوزير أنه إذا حمل إلى رجال العسكر استحقاقهم حمل ذلك في جملته.

وكان قد بقى على حمل المال شهران فاستبعدوا الصبر إلى ذلك الوقت وواصلوا مطالبته وحملوا القريين على معونتهم عليه فاضطروه إلى المسير معهم إلى الحضرة لالتماس ذلك فسار إلى الجيزة وطلع إلى الوزير وعرفه الحال فقال ما أخرنا ذلك عنهم إلا أن السنة كثيرة النفقات والطوارئ وهذه ألف دينار أنفقها فيهم إلى أن تحمل باق مالهم مع مال العسكر.

فأخذ الألف وعرفهم ما قال الوزير.

فامتنعوا عن الأخذ وأبوا إلا قبض الثلاثة آلاف وألزموه بالعود.

فعاد وعرف الوزير فاغتاظ وأمر لهم بألف أخرى.

فنزل إليهم فأبوا إلا أخذ الجميع وجفوا في الخطاب فعاد إلى الوزير وعرفه فغضب وقال: إجابتهم إلى ما التمسوه دفعةً بعد أخرى طمعهم طمعهم والله لا أطلق لهم درهماً واحداً.

واستعاد الألفي دينار وتقدم بتجريد العسكر لهم فتسرع يزحف مع ليث الدولة كافور الشرابي ونزل إليهم فإذا هم قد تأهبوا للقائهم.

فجرت بينهم وقفة قتل فيها اثنان من العسكر وحجز بينهما الليل.

وبلغ الوزير ذلك فشق عليه إقدامهم على المحاربة سيما بنو قرة فإنهم صلوا الحرب وكانوا فيها أشد من الطلحيين.

فأخذ الوزير يجرد إليهم العساكر فانطردوا وجمعوا حشودهم والتقوا بكوم شريك وكانت الدائرة عليهم وقتل منهم خلق كثير.

وأنهزموا والعساكر تتبعهم فأحاطت بأموالهم من كل ما يملكونه وفر بنو قرة على وجوههم إلى برقة ومعهم الطلحيون فانقطع أثرهم من البحيرة إلى اليوم وصاروا مطردين في قبائل العرب نحواً من أربعين سنة.

وكان كل من بالحضرة يفند رأى الوزير في تجهيز العساكر إليهم ويحكمون بأنهم لا يفارقون إلى البحيرة فجاء الأمر بخلاف ظنهم.

ثم إن الوزير رأى أن في إقامة العساكر في أعمال البحيرة كلفةً كبيرة فأرسل إلى بني سنبس وكانوا بالداروم وفلسطين وقد ثقلت وطأتهم هنالك وصعب أمرهم فعدى بهم إلى البحيرة وهم أعداء قيس وأوطأهم ديارهم وأقطعهم أرضهم فمحى اسم بني قرة من هناك.

وكان تجهيزه للعسكر في شهر رمضان وتسييره لهم إلى بني قرة في مستله شوال فخطأه الناس في فعله وقالوا لم يجرد عسكر قط في شوال فظنوا أنه لا يؤمن على العسكر أن ينهزم وينكسر.

وكان شمس الدولة زمام الأتراك والقيصرية وإليه زم القصور والخدمة في الرسالة وليس أحد في الدولة يجري مجراه جلالة وتقدما بينه وبين الوزير مباينة شديدة ويتربص به الدوائر ويغتال له الغوائل فكان ينتظر إنهزام العسكر ليقبض عليه.

فلما أراد العسكر أن يسير من الجيزة ومقدمه ناصر الدولة قرر معه لقاءهم في اليوم الخامس من شوال بطالع يخبره به وسير معه عدة طيور من الحمام ليطالعه بما يكون يوما بيوم.

فلما كان في ذلك اليوم وهو يوم خميس جلس في داره وقد اشتد قلقه وكثر اهتمامه بما يكون من العسكر واحتجب عن الناس لشغل سره وجلس ينتظر الطائر.

فلم يزل كذلك إلى الساعة الخامسة من نهاره فقام ليجدد طهارة فعبر البستان وقد أطلق الماء في مجاريه فرأى ورقة تمر على وجه الماء فأخذها متفائلاً بها فوجدها أول كتاب كان قد وصل من القائد فضل إلى الحاكم بأمر الله قد ذهبت طرته وعنوانه وبقى صدره وهو: كتب عبد مولانا الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين من المخيم المنصور في الساعة الخامسة من نهار الخميس الخامس من شوال وقد أظفره الله عز وجل بعدو الله تعالى وعدو الحضرة المطهرة أبي ركوة المخذول وهو في قبضة الأسارى والحمد لله رب العالمين.

فلما وقف على ذلك سجد شكراً لله تعالى وعجب من موافقة اليوم وعدة الأيام من شوال والأعلام بالظفر.

ثم تجهز للصلاة فما فرغ حتى سقط الطائر بانكسار بني قرة وانهزامهم وما من الله تعالى به من الظفر بهم.

فأخذ الكتاب والطائر وركب إلى القصر ودخل إلى المستنصر وأوقفه على الكتاب فسر بذلك وأراه الطير ثم تواصلت رسل ناصر الدولة بالبشرى وشرح الحال في الظفر وانهزام القوم فخلع على الوزير وزيد في ألقابه للدين غياث الدين فتم له النظر وقوى أمره وذلك من كان يعاديه فجرى على عادته في العفو والمجاملة.

وكان أهل جزيرة صقلية قد خالفوا الدولة غير مرة لما فيهم من الشر والغلظة وطردوا الولاة.

وصار إليهم المعز ابن باديس فملكوه عليهم وقد خرج عن طاعة الدولة فأساء السيرة فيهم وثقل عليهم فوثبوا عليه وأخرجوه منها.

وكاتبوا ملك الروم فسار إليهم بطريق كبير فولوه أمرهم مدة ثم وثبوا به وأخرجوه عنهم.

وبعثوا إلى الحضرة يسألون إقالة عثرتهم والعفو عنهم ويسألون إيفاد وال.

وكان بصقلية بنو أبي الحسين لهم رئاسة وفيهم من يؤهل نفسه لولايتها فسارت الخلع إلى رجل منهم يعرف بمستخلص الدولة فمكث فيهم زمانا ثم نفروا منه وبعثوا يسألون تغييره عنهم.

فسير الوزير رجلاً من أمراء الدولة يعرف بصمصام الدولة ابن لؤلؤ وأسر إليه أن يتلطف في إخراج بني أبي الحسين من صقلية ويسيرهم إلى الحضرة.

فدخل إليها وساس أمره حتى بعث بجميع من كان فيها من بني أبي الحسين.

واستقام الأمر في صقلية بخروجهم عنها.

وقام ببلاد اليمن رجل يعرف بعلي بن محمد الصليحي يتشيع فحسن له الدعاة الدخول في نصرة خلفاء مصر فأعلن ذلك بها ودعا أهل اليمن إليها وحمل تجارتهم مع هدية جليلة القدر تبلغ زهاء عشرة آلاف دينار إلى المستنصر.

وكان أبوه قاضياً باليمن سني المذهب وزوجته أسماء ابنة عمه شهاب وكانت أجمل خلق الله وهي أم الدعاة باليمن وعرفت بالحرة.

وكانت ذات عز وكرم وتفاخر بنوها بها ومدحت.

وكان باليمن الداعي عامر بن عبد الله الرواحي فاستمال أبا الحسن علي بن محمد بن علي الصليحي وهو صغير حتى مال إليه فلما مات عامر

أوصى له بكتبه وعلومه فدرسها حتى تضلع من معارفه وصار من فقهاء الشيعة وحج بالناس دليلاً خمس عشرة سنة.

ثم ثار في سنة تسع وعشرين وأربعمائة وتزايد أمره ودعا للمستنصر وكتب إليه بما هو عليه واستأذنه في المسير إلى تهامة فأذن له.

ولم تخرج سنة خمسين وأربعمائة حتى ملك السهل والجبل الوعر من بلاد اليمن.

وجهز الوزير إلى النوبة فأضعف عليهم البقط وحملوه واستقر الأمر على ذلك.

سنة أربع وأربعين وأربعمائة

فيها كتبت بغداد محاضر تتضمن القدح في نسب الخلفاء المصريين ونفيهم من الالتحاق بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وجمع سائر أعيان الفقهاء ببغداد وأشرافها وقضاتها وعزوا نسبهم في الديصانية من المجوس.

وسيرت المحاضر إلى البلاد وشنع عليهم تشنيع كبير.

وسبب ذلك الغضب ما عمل مع الرسول المرسل من المعز بن باديس فإنه لما شهر بالقاهرة على جمل مقلوب وكتاب العقد في عنقه والهدية بين يديه ثم أحرقت الخلع والتقليد أعيد الرسول إلى ملك الروم فعز عليه ما فعل واعتذر إليه منه فإنه كان قد ضمن له من مصر إعادته إليه سالماً بعد ما جرت مخاطبة في طلبه.

ثم أعاده ملك الروم إلى بغداد فوصل في سنة أربع وأربعين هذه.

وسبب عوده أن المعز بن باديس بعث رسوله أبا القاسم بن عبد الرحمن إلى بغداد في ذلكن فبعث معه الملك طغرلبك أبا علي بن كبير ليخاطب ملك الروم في رد أبي غالب وكتب معه كتابا عنوانه: من ركن الدين وغياث المسلمين بهاء دين الله وسلطان بلاد الله ومغيث عباد الله أبي طالب يمين الخليفة أمير المؤمنين إلى عظيم الروم.

ومضمونه بعد البسملة: الحمد لله القاهر سلطانه الباهر برهانه العلي شأنه السابغ إحسانه ثم مر فيه إلى أن قال: وقد نجم بمصر منذ سنين ناجم ضلالة يدعو إلى نفسه ويغتر بمن أغواه من حزبه ويعتقد من الدين ما لا يستجيزه أحد من أهل العلم في الأئمة الأول وهذا العصر ولا يستحسنه عاقل من أهل الإسلام والكفر.

ثم ذكر رسول أبا غالب وعاتب في أمره وطلب تسييره مخفوراً إلى المعز بن باديس.

فقدم إلى قسطنطين.

متملك الروم بالقسطنطينية في صفر من هذه السنة فتلقاه الملك وأدخله عليه وسأله عن السلطان طغرلبك فذكر له الرسالة وطلب منه مقاطعة صاحب مصر وإطلاق أبي غالب وإرسال رسول المعز إليه.

فقال له: صاحب مصر مجاور لنا وبيننا وبينه عهود وهدنة وقد بقي منها سنتان ولا يمكن فسخها وأما رسل المعز والرسل إليه فهم قوم يسعون في الفساد.

وتردد القول إلى أن أطلق أبا غالب وأجازه إلى المعز وعاد أبو علي ورفيقه إلى بغداد في بقية السنة.

وفيها قصر مد النيل ولم يكن في المخازن السلطانية شيء من الغلال فاشتدت المسغبة بمصر.

وكان لخلو المخازن السلطانية من الغلال سبب وهو أن الوزير اليازوري لما تقلد وظيفة قضاء القضاة في وزارة أبي البركات الجرجرائي كان ينزل إلى الجامع بمصر في يومي السبت والثلاثاء من كل جمعة فيجلس في الزيادة منه للحكم على رسم من تقدمه من القضاة وإذا أقبل العصر طلع إلى القاهرة.

وكان في كل سوق من أسواق مصر على أرباب كل صنعة من الصنائع عريف يتولى أمورهم وكانت عادة أخباز مصر في أزمنة المساغبة متى بردت لا يرجع منها إلى شيء لكثرة ما تغش به.

وكان لعريف الخبازين دكان وكان يبيع الخبز وبحذائها دكان لصعلوك يبيع الخبز أيضاً وكان سعره يومئذ أربعة أرطال بدرهم وثمن.

فرأى الصعلوك أن خبزه قد كاد يبرد فخاف من كساده فنادى عليه أربعة أرطال بدرهم ليرغب الناس فيه فمال إليه الزبون فاشتروا خبزه لأجل تسمحه بثمن درهم وبار خبز العريف فغضب ووكل به عونين من الحسبة أغرماه دراهم.

ووافق ذلك نزول قاضي القضاة إلى الجامع فاستغاث به فأمر بإحضار المحتسب وأنكر ما فعله واعتذر بأن هذا من العريف وأنه لم يتحقق باطن الحال.

فأمر القاضي بصرف ذلك العريف وأن يغرم ما أخذ من الخباز والتفت إلى صاحب ديوانه وقال: ما معك فادفعه إلى هذا الخباز.

فناوله قرطاسا فيه ثلاثون رباعيان فكاد عقله يطير فرحا.

وعاد فنادى على الخبز خمسة أرطال بدرهم فمال إليه الناس وهو ينادي بزيادة رطل برطل إلى أن بلغ عشرة أرطال بدرهم.

وانتشر ذلك في البلد جميعه وتسامح الناس به فتسارعوا إليه فلم يبق في البلد خباز حتى باع عشرة أرطال بدرهم.

وكانت العادة أن يبتاع في كل سنة غلة للسلطان بمائة ألف دينار ويمحل متجرا.

فلما عاد القاضي إلى القاهرة مثل بحضرة الخليفة وعرفه ما مر به في يومه من إرخاص السعر بغير موجب وقال: يا مولانا إن المتجر الذي يقام بالغلة فيه مضرة كبيرة على المسلمين وربما انحط السعر عن مشتراها فلا يمكن بيعها فتتغير في المخازن وتتلف وأنه يقام متجر لا كلفة على الناس فيه ويفيد أضعاف فائدة الغلة ولا يخشى عليه من تغير في المخازن ولا انحطاط سعر وهو الخشب والصابون والحديد والرصاص والعسل وما أشبه ذلك.

فأمضى الخليفة ما رآه وبطل المتجر في الغلة وتوسع الناس بذلك.

سنة خمس وأربعين وأربعمائة

سنة ست وأربعين وأربعمائة

فيها أيضا قصر مد النيل ونزع السعر ووقع الوباء.

ولم يكن في المخازن السلطانية إلا ما ينصرف في جرايات من في القصور ومطبخ الخليفة وحواشيه لا غير فورد على الوزير من ذلك ما أهمه.

وصار سعر التليس ثمانية دنانير واشتد الأمر على الناس.

وكان التجار بين نار المعاملين وضيق الحال عليهم في القيام للديوان بما يجب عليهم من الخراج ومطالبة الفلاحين بالقيام به يبتاعون منهم غلاتهم على أن يصبروا عليهم إلى حين إدراكه بسعر يربحون فيه.

فإذا استقرت مبايعتهم لهم حضروا معهم للديوان وقاموا عنهم للجند بما يجب عليهم وكتب ذلك في روزنامج الجند مع مبلغ الغلة فإذا أدركت الغلة وصارت الأجران يكتالونها ويحملونها إلى مخازنهم.

فمنعهم الوزير من ذلك وكتب إلى العمال بجميع النواحي أن يستعرضوا روزنامجات الجهابذة ويحضروا منها ما قام به التجار من المعاملين ومبلغ الغلة الذي رفع الإيقاع إليه وأن يقدموا للتجار ما وزنوه للديوان ويربحوهم في كل دينار ثمن دينار ويضعوا ختومهم على المخازن ويطالعوا ما يحصل تحت أيديهم بها.

فلما تحصلت بالنواحي جهز المراك بحمل العلات وأودعها المخازن السلطانية بمصر وقرر ثمن كل تليس ثلاثة دنانير بعد أن كان ثمانية دنانير.

وسلم إلى الخبازين ما يبتاعونه لعمارة الأسواق ووظف ما تحتاج إليه القاهرة ومصر فكان ألف تليس في كل يوم لمصر سبعمائة وللقاهرة ثلثمائة.

فقام بالتدبير أحسن قيام مدة عشرين شهرا حتى أدركت الغلة فتوسع الناس بها وزال عنهم الغلاء.

وكان عند استقرار الهدنة مع قسطنطين ملك الروم في أيام وزارة أبي نصر الفلاحي قد وصل رسولان أحدهما هو المتكلم المترجم وكان داهيةً أديبا شاعرا نحويا فيلسوفا ولد بالروم ونشأ بأنطاكية ودخل العراق ولقن من العلوم والآداب ما بعد به صيته وكان يعرف بابن أصطفانوس والآخر متحمل الهدية وهو صاحب حرب يعرف بميخائيل.

فرأيا من حسن زي الدولة وجميل سيرتها ما أعجبا به لا سيما ميخائيل فإنه أطربه ما رأى وحسن موقعه في نفسه.

وساروا وقد امتلأت قلوبهما بمحبة ما شاهداه.

فاتفق ملك الروم وتمليك ميخائيل هذا فبلغه ما بمصر من الغلاء فحمل إليها مائة ألف قفيز قمحا وقدم كتابه أمامها يعين الغلة والكيل الذي تستوفي به إذا وصلت فانتهت إلى أنطاكية.

وأعد هدية الهدنة على ما جرت به العادة وهديةً من ماله.

فلما رأى الروم ذلك ظنوا به الميل إلى الإسلام فقتلوه في ثامن شوال فكانت مدة ملكه اثنتي عشرة سنة سبعة أشهر وعمره أربع وخمسون سنة وشهر واحد.

وأقاموا رجلا يعرف بابن سقلاروس من أهل أنطاكية وكان لجوجاً خبيثاً حديدا فاعترض الهديتين وأخذهما وقال: أنا أنتفع بهما وأنفق ثمنهما على قتال المسلمين.

وكانت للوزير بالقسطنطينية عيون فكتبوا إليه بذلك فسير مكين الدولة الحسن ابن علي بن ملهم الكتامي إلى اللاذقية في عسكر لحصارها والتضييق على من فيها فحاصرها حتى اشتد على من فيها الأمر.

فكتب ابن سقلاروس متملك الروم إلى الحضرة يستوضح ما الذي أوجب ذلك فأجيب أن الذي أوجبه ما كان فعله في نقض ما استقر مع من تقدمه من الهدنة وقبض الهدية والهدية التي ليست من ماله.

فأجاب بأنه يحمل الهدية فاشترط عليه إطلاق من في بلاد الروم الأسرى.

فأجاب بأنه إذا أطلق من لهم في بلاد الإسلام من أسرى الروم أطلق من في بلاد الروم من أسرى المسلمين.

فأجيب بأنه لا يصح التماسه لذلك لأن من أسر من بلاد الروم تفرقوا في الممالك بالعراق والدولة الفاطمية والمغرب واليمن وغير ذلك ولا حكم للحضرة على جميع الممالك ويرتجع منها ما صار في أيدي أهلها وبلاد الروم بخلاف ذلك ومن حصل فيها من المسلمين كمن هو معتقل في دار واحدة لا يمكنه الخروج منها إلا بإذن أهلها وبين الحالين فرق كبير.

فأجاب بأنه لا يطلق من في بلاده من أسرى المسلمين.

فاشترط عليه النزول عما صار في أيدي الروم من الحصون الإسلامية فامتنع من ذلك وقال إذا سلم إلينا ما صار في أيدي المسلمين من حصون المسلمين من حصون الروم سلم ما في أيديهم من حصون المسلمين.

فبدل الجيش بجيش آخر وخرج مع مقدمه الأمير السعيد ليث الدولة فنازل اللاذقية حتى فتحها ووقع العنف فيها.

وأجيب بأنه لا يصح أن يسلم إليهم ما صار في أيدي المسلمين من الحصون لأنهم قد أنبتوا فيها العقارات وأنشئوا فيها البساتين.

فقال: يدفع لهم عن أملاكهم وما أنشئوه من البساتين وغيرها وما أنفقوه فيها وينتقلون عنها إلى غيرها من بلاد المسلمين.

فأجابوا إلى أن يسلموا ما في أيديهم من الحصون الإسلامية.

وكانت العادة جارية بأنه إذا وصلت هدية من الروم إلى الحضرة تقوم ويحمل إليهم هدية موضعها بثلثي قيمتها ليكون للإسلام مزية عليهم بالثلث فاشترط أن يكون قيمة ما يحمل إليهم من الهدية عوضاً عن قيمة هديتهم النصف فأجابوا إلى ذلك أيضا.

فاشترط عليهم أن يردوا كل من تضمه دار البلاد التي هي دار الملك ومحله فامتنع من ذلك.

فأمد الجيش بجيش ثالث وعليه أميران هما موفق الدولة حفاظ بن فاتك وأبو الجيش عسكر بن الحلي ومقاد جميع الجيش إلى الأمير مكين الدولة وأمينها ابن ملهم.

فأوغلوا في بلاد الروم ينهبون ويقتلون ويأسرون حتى أعظموا النكاية فيها والرسل والمكاتبات تتردد إلى أن استقر القيام بالجزية التي التمسها أمراء البلاط وجهزت الهدية.

وبلغت الجزية المذكورة نيفا وثلاثين ألف دينار.

وحمل ذلك إلى أنطاكية فبلغهم قتل الوزير فأعيدت إلى القسطنطينية.

وزينت بلاد الروم لموته وكثر ابتهاجهم بما صرف عنهم من خشونة جانبه عليهم وشدة شكيمته.

وأما ابن ملهم فإنه لما أوغل في بلاد الروم وقارب أفامية وجال في أعمال أنطاكية نهب وسبى فقدمت من القسطنطينية قطائع يقال إن عدتها ثمانون قطعة فكانت بينها وبين ابن ملهم حروب آلت إلى أن أسر هو وجماعة من أعيان العرب في آخر ربيع الآخر.

وفيها استدعى راشد بن عليان بن سنان أمير الكلبيين فاعتقل بالقاهرة وردت إمارة بني كليب لنبهان القريطي.

وقبض على إقطاع راشد وأخيه مسمار وهو مقيم بظاهر دمشق ففر إلى غالب بن صالح.

فكتب المستنصر إلى ثمال ينكر عليه تسيير هدية إلى ملك الروم فتحير في أمره واعتذر.

سنة سبع وأربعين وأربعمائة

فيها سير المستنصر إلى كنيسة قمامة فأحتاط بجميع ما فيها.

وذلك أن القاضي أبا عبد الله القضاعي كان قد توجه من عند الخليفة برسالة إلى متملك الروم فقدم وهو بالقسطنطينية رسول السلطان طغرلبك بن سلجوق يلتمس من الملكة تيودورا أن تمكن رسوله من الصلاة في جامع قسطنطينية فأذنت له في ذلك فدخل إليه وصلى به وخطب للخليفة القائم بأمر الله العباسي.

فبعث القضاعي بذلك إلى المستنصر فأحاط بما في قمامة وأخذه وأخرج البطرك منها إلى دار مفردة وأغلق أبواب كنائس مصر والشام وطالب الرهبان بالجزية لأربع سنين وزاد على النصارى في الجزية.

وكان هذا ابتداء فساد ما بين الروم والمصريين.

وفيها تجمع كثير من التركمان بحلب وغيرها وأفسدوا في أعمال الشام.

وفيها تزايد الغلاء وكثر الوباء وعم الموتان بديار مصر.

وفيها سار مكين الدولة الحسن بن علي بن ملهم من القاهرة بالعساكر ونودي في بلاد الشام بالغزو والجهاد.

واستدعى راشد بن عليان بن سنان إلى القاهرة وقرر معه أن يسير في قومه الكلبيين مع ابن ملهم ثم قبض عليه.

وعقدت إمارة الكلبيين لنبهان وقيل لسنان فنزل ابن ملهم أفامية ثم سار إلى حسن قسطول فحصره عشرين يوما حتى أخذه بالأمان في ثامن ربيع الأول سنة سبع وأربعين.

وعاد إلى أفامية فحصرها ورماها بالمجانيق فطلبوا الأمان على أن يرحل عنهم فلما رحل أحرقوا القلعة وانهزموا فلحقهم وقتلهم وأطفأ النار من القلعة وأغار على البلاد فلم يكن بأنطاكية من يذب عنها وجمع كل طامع في النهب بحجة ابن ملهم.

وتوسط ثمال بن صالح للصلح فلم يتم.

وسيرت الملكة تيودورا أسطولا إلى أنطاكية فوصل اللاذقية ثمانون قطعة وخرج دوقس أنطاكية وبطركها في جماعة فظفروا بشينيين للمسلمين معهما الغنائم فسار ابن مهلم نحوهم وكشف الروم إلى طرف أنطاكية واستنقذ الأسرى منهم وقتل منهم خلقا كثيرا.

فدار الأسطول إلى طرابلس وقاتلوا أهلها فقتل من الفريقين خلائق.

وعاد الأسطول الرومي إلى اللاذقية فماتت الملكة تيودورا بعد سبع سنين من ملكها وتسعة أشهر واثنتي عشرة ليلة وملك بعدها ميخائيل.

سنة ثمان وأربعين وأربعمائة

فيها جهزت الأموال لأبي الحارث البساسيري فخرج بها المؤيد في الله عبد الله بن موسى وجملتها ألفا ألف وثلثمائة ألف دينار العين ألف ألف وتسعمائة ألف دينار والعروض أربعمائة ألف دينار.

وكان من خبره أنه كان من جملة المماليك الأتراك فصار إلى بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه رجل من أهل فسا إحدى مدائن فارس فلذلك قيل له البساسيري وتنقل في الخدم حتى صار مقدم الأتراك ببغداد في أيام الخليفة القائم بأمر الله أبي جعفر عبد الله بن أحمد القادر وتلقب بالمظفر.

وكان القائم لا يقطع أمراً دونه.

فطار اسمه وتهيبته أمراء العرب والعجم ودعى له على منابر العراق والأهواز وتجبر.

وأراد في سنة ست وأربعين من الخليفة أن يسلم إليه أبا الغنائم وأبا سعد ابني المحلبنا صاحبي قريش ابن بدران صاحب الموصل فلم يمكنه من ذلك.

فسار إلى الأنبار ونصب عليها المجانيق وهدم سورها وأخذها قهرا وأسر أبا الغنائم ابن المحلبان ومائة رجل من بني خفاجة وكثيراً من أهل الأنبار.

ورجع إلى بغداد وأبو الغنائم بين يديه على جمل في رجليه قيد فصلب كثيراً من الأسرى.

واتفق في شهر ربيع الآخر من سنة سبع وصول زورق فيه ثمر للبساسيري فخرج إليه ابن سكرة الهاشمي في جماعة فأراقوه ونهبوا دوره وأخذوا دوابه وكان هو إذ ذاك في نواحي واسط.

فلما بلغه ذلك نسبه إلى الوزير رئيس الرؤساء أبي القاسم بن المسلمة فعظمت الوحشة بين وبين الوزير.

وسار إلى دبيس بن بدران وهو مستوحش فوافت رسل طغرلبك بن ميكال بن سلجوق إلى الخليفة القائم بإظهار الطاعة فتقرر الأمر مع الملك الرحيم خسرو فيروز بن أبي كاليجار المرزبان ابن سلطان الدولة أبي شجاع على أن يخطب لطغرلبك ببغداد فخطب له لثمان بقين من شهر رمضان منها.

ثم إنه قدم إلى بغداد وقبض على الملك الرحيم وعلى جماعة ثم بعث به إلى قلعة السيروان وفر منه قريش ثم إنه خلع عليه ورده إلى أهله وأخذ أموال الاجناد البغداديين وأمرهم بالسعي في طلب الرزق فسار أكثرهم إلى البساسيري.

وبعث طغرلبك إلى الأمير نور الدين دبيس بن بدران أن يحضر إليه البساسيري فالتزم له بذلك.

وبلغ البساسيري الخبر فسار إلى رحبة مالك بن طوق وكاتب المستنصر يطلب منه الإذن له في الدخول إلى حضرته فأشير على المستنصر بألا يمكنه من الحضور وأن يعده بما يرضيه وسير إليه الخلع.

فبعث يسأل في النجدة ويلتزم بأخذ بغداد وإقامة الخطبة بها للمستنصر وإزالة دولة بني العباس وأنه يكفي في رد طغرلبك عن قصده البلاد الشامية.

فجهزت إليه خزائن الأموال العظيمة على يد المؤيد في الدين أبي نصر هبة الله بن موسى في سنة ثمان وأربعين حيث لم يترك في خزائن أموال القصر شيء ألبتة.

وخرج خطير الملك محمد بن الوزير من القاهرة في تجمل عظيم ومعه من كل ما يريد حتى أخذ أحواض الخشب وفيها الطين المزروع فيه سائر البقول برسم مائدته.

ومعه من خزائن الأموال والأسلحة والآلات والأمتعة ما يجل وصفه.

فسار إلى القدس ورحل منها إلى اللاذقية يريد فتحها.

فلما كان في شوال منها واقع البساسيري ودبيس قريش ابن بدران العقيلي صاحب الموصل وقتلمش ابن عم طغرلبك وكان طغرلبك قد سيره إلى سنجار في ألفين وخمسمائة فارس.

فكانت الوقعة المشهورة التي لم يفلت منها إلا مائتا فارس أو دونها.

وانهزم قريش وقتلمش واستولى البساسيري ودبيس على الموصل وأقاما بها الدعوة للمستنصر وكتبا إليه بذلك فسيرت إليهما الخلع ولجماعة أمراء العرب.

وعمل الشعر في هذه الواقعة.

فمن مليح ما قيل لابن حيوس: عجبت لمدّعى الآفاق ملكا وغايته ببغداد الرّكود ومن مستخلفٍ بالهون يرضى يذاد عن الحياض ولا يذود وأعجب منهما شعبٌ بمصر تقام له بسنجار الحدود وبلغ ذلك طغرلبك فسار يريد الموصل حتى بلغ نصيبين فأوقع بالعرب وألقاهم بين يدي الفيلة فقتلهم شر قتلة.

وبعث إليه دبيس وقريش بالطاعة فقبل منهما.

وسار إلى دياربكر وجهز أخاه داود إلى الموصل فتسلمها وعاد إلى بغداد.

سنة تسع وأربعين وأربعمائة

فيها تسلم مكين الدولة ابن ملهم من ثمال بن صالح مدينة حلب في آخر ذي القعدة وانكفت أيدي التركمان عنها وأقيمت خطبة المستنصر فيها وقطعت خطبة القائم وذلك بعد حروب عظيمة.

وكان دخول ابن ملهم حلب يوم الخميس لثلاث بقين من ذي القعدة فبقي على ملكها أربع سنين.

وفيها قدم كتاب من بخارى أنه وقع بها وباء عظيم حتى هلك من ذلك الإقليم ألف ألف وستمائة ألف وخمسون ألف إنسان وخلت الأسواق وأغلقت الأبواب.

وتعدى الوباء إلى آذربيجان فالأهواز والبصرة وواسط وعامة تلك الأعمال فكانت الحفيرة تحفر ويلقى فيها العشرون والثلاثون من الأموات.

وكان سببه قلة القوت والجوع فنبشت الأموات وأكلهم الناس.

وكان الموت إذا وقع في دار مات جميع من فيها وكان المريض ينشق قلبه عن دم المهجة فيخرج من فمه قطرة فيموت أو يخرج من في دود فيموت.

وكل دار كان فيها خمر مات أهلها كلهم في ليلة واحدة ومن كانت امرأته حراماً ماتا معاً ومات قيم مسجد وله خمسون ألف درهم فلم يقبلها أحد ووضعت في المسجد تسعة أيام فدخل أربعة من الشلوح إليها ليلا ليأخذوها فمات الأربعة عليها.

وكان يموت الوصي قبل الموصى وكل مسلمين كان بينهما تفاخر ولم يصطلحا ماتا.

وابتدأ هذا الوباء من تركستان ودب منها إلى كاشغر والشاش وفرغانة وعم النساء والصبيان فمات الصبيان والكهول والفتيان من سائر الناس إلا الملوك والعساكر فإنه لم يمت منهم ولا من الشيوخ والعجائز إلا القليل!!
في أول المحرم قبض المستنصر على وزيره الناصر للدين غياث المسلمين أبي محمد اليازوري وكان قد جمع له ما لم يجتمع لغيره من تقليد الوزارة وقضاء القضاء وداعي الدعاة.

وكان للقبض عليه أسباب منها أن طغرلبك لما ملك بغداد كان بها لليازوري عيون كثيرة يطالعونه بدفين الأمور وجليلها فوصلت كتبهم بوصوله وأنهم سمعوه يذكر إزماعه على التوجه نحو الشام ليملكه.

فقل لذلك ورأى أن الحيلة أبلغ من الاستعداد له فكتب إليه يهنئه بوصوله إلى العراق ويبذل له من الخدمة ما يوفى على أمله وأن مصر وأعمالها بحكمه وأنه وإن كان مستخدماً لدولة ويدعو إليها فإنه يعلم كثرة الاختلاف فمن تجاوزها في نسبها واتفاق الكلمة ووقوع الإجماع على الرضا بالخليفة الصحيح النسب الصريح الحسب الهاشمي العباسي وأنه لا يمتنع عن الإقرار له بذلك.

وأعطاه صفقة يده على مبايعته وتسليم الدولة له.

وأنه قد اتصل به إزماع حضرته على التوجه إلى الشام وأنه أشفق من تسليمها إليه فتطأها عساكره مع كثرتها وتجمعها فيخربها ويعفى آثارها ولا يقع بملكها انتفاع ولا يرجى لها ارتفاع فإن رأى أعفاها من وطء العساكر لها ووصول ركابها إليها على وجه الفرجة والنظر إلى دمشق وحصنها فلها عالي رأيها.

فلما وقف طغرلبك على كتابه قال هذا كتاب رجل عاقل ويجب أن يعتمد ما أشار به بالإذن للعسكر في عودتهم إلى بلادهم فمضى كل منهم لوجهه.

ثم أمر فضرب فساطيطه في الجانب الغربي من بغداد فكتب بذلك عيون اليازوري إليه فقلق ثم كتب إليه: لا تغرنك الأماني والخدع بأن أسلم إليك أعمال الدولة وأخون أمانتي لمن غذاني فضله وغمرني إحسانه وتتعين علي طاعته وموالاته.

فإن كنت تسلم إلي ما في يدك لصاحبك من العراق وأعماله سلمت إليك ما في يدي لصاحبي بل الواجب أن تكون كلمة الإسلام مجموعة لابن بنت النبي الذي هو أولى بمكانه من غيره.

وإن رغبت في المهادنة والموادعة انتظمت الحال بين الدولتين وأمن الناس بينهما.

فإن أبيت إلا الخلاف ونزع الهوى بك إلى الظنون الفاسدة والأطماع الكاذبة فليس لك عندي إلا السيف.

فإن شئت فأقم وإن شئت فسر.

فغاظ ذلك طغرلبك وقال: خدعني هذا الفلاح وسخر مني.

وكتب إلى إبراهيم بن ينال أخي طغرلبك لأمه برد العسكر مسرعا فلم يتأت له اجتماعهم.

وكان اليازوري قد بث عيونه وجواشيه في عسكر طغرلبك واستفسد أعيانهم بكثرة الأماني والمواعيد مثل خاتون زوج طغرلبك والكندري وزيره وابراهيم ينال أخيه وصاحب جيشه فمالوا إليه وقعدوا عن صاحبهم.

وحمل خاتون على قتله فامتنعت من ذلك وواعدته أنها تتحيز بغلمانها وهم نحو اثني عشر ألفا عنه فاعتزلت بهم.

وكان ذلك ظفر البساسيري بعسكر طغرلبك وظفر كثير منهم ورجوع طغرلبك من بغداد طالباً لجمع عسكره الذي تفرق عنه.

وهو أنه سار في هذه السنة ملك البساسيري وقريش الموصل بعد حصار شديد نحو أربعة أشهر حتى هدم قلعتها.

فخرج طغرلبك يريدهما فسارا عن الموصل وهو يتبعهما إلى نصيبين ففارقه إبراهيم ينال وقصد همذان ولحقه الأتراك الذين كانوا ببغداد.

ففت ذلك في عضد طغرلبك وترك ما هو فيه ورجع ليضم إليه من تفرق عنه وترك بغداد.

فقوى أبو الحارث البساسيري وكثف جمعه وقصد أعمال العراق ففتح بلداً بلداً وتملك الأعمال والرساتيق طوعاً وكرهاً والدولة المصرية تمده بما يستعين به على ذلك وهو لا ينفذ في أمر من الأمور إلا بما يقرره اليازوري.

فكثرت حساده على ما يتوالى من سعادته في كل يوم وما يتجدد له من رئاسة يقتضيها حسن آثاره في الدولة وتأثيراته في جميع الأطراف والممالك بلطف السياسة ومحكم التدبير الذي يبلغ به غاية آماله بحيث لا يبلغ غيره بعضها إلا بإنفاق الجمل العظيمة وتفريغ بيوت الأموال ثم لا يكاد يظفر ببلوغ أمل في جهة من الجهات إلا دوخها وثبتت آثاره فيها الدهر الطويل.

وصار أعداؤه يتعجبون مما يتأتى له من السعادة وتعينه عليه الأقدار.

واستطالوا مدته فابتغوا له الغوائل ونصبوا له الحبائل وركبوا عليه المناصب حتى كان هلاكه بأقل الناس وأحقرهم وأدناهم منزلة وأضعفهم قدرة وهم من أطراف الخدام.

فأقاموا رجلين أحدهما خادم يعرف بمفرج المغربي كان في حاشيته والآخر خازن يتولى خزانة الفرش يعرف بتنا.

وحكوا أنه نقل الأموال إلى الشام في التوابيت وفي شمع سبكه وأعده إلى القدس وإلى الخليل وأنه قد عول على الهرب إلى بغداد واستظهروا بكتابه

الذي ذكر إلى طغرلبك مع ما في طبيعة الملك من الحسد والملل والأنفة من الاستبداد عليهم ومحبة الانفراد بالمجد.

وكان من أسباب الخذلان أن المستنصر التمس من صفي الملك ولد البازوري عمل دعوة يدعوه إليها فدافعه عن ذلك استعظاماً لحضوره عنده فأقام مدة حتى بعثه والده الوزير على تكلف عملها له فتهمم لذلك واصطنع ما يجب إعداده وتقرر الحال على يوم يحضر فيه.

فلما كان قبل ذلك بيوم حضر صفي الملك عند الوزير وأعلمه بإنجاز ما يحتاج إليه فصار معه إلى الدار واستصحب خواصه فرأى ما يقصر عنه الوصف.

وفرش مجلسين بديباج بياض كله وفيه جامات كبار وحمر منقوش كل مجلس بثلاث مراتب وبساط ملء المجلس وسراديق وحجلين للصدر والباب كله جديد كما حمل من الأعدال فقدر ذلك بخمسة آلاف دينار.

فأقبل كل من حضر يبالغ في صفته ويدعو وشخص منهم ساكت.

فلحظ الوزير وأمسك حتى فرغ من تطواف المجالس وعرض كل ما أعده وعدل إلى بيت الطهارة وقد أعد في دهليزه من الفرش والآلات والطيب وداخله من الفواكه والمشمومات كل مستحسن.

ودعا الوزير الرجل الذي سكت عند مبالغة من حضر في الوصف وقال: يا عمدة الملك مالي لم أسمعك تؤمن على ما قال الجماعة فقال له بد ما سأله الإعفاء عنه وتركه من القول فأبى إلا أن يقول: سيدنا فيما أعده من هذا الجمال بين أحد رأيين إما أن يأمر بإزالته ونصب غيره مما قد استعمل وإما يحمل إلى الخليفة إذا انقضى جلوسه عليه.

فقال: وما هو هذا أليس هو مما أنعم به وصار إلي من فضله وما قدره حتى تمتد عينه إليه أو تتطلع له نفسه! واما إزالته ونصب غيره فما كنت أكسر في نفس هذا الصب شهوةً فإني متى أمرت بإزالته حزن لذلك وافترقا.

فلما كان الغد جاء المستنصر وأقام يومه ذلك في الدار وأحضر إليه الطعام مما حوله من الطرف ثم عاد آخر النهار.

وحضر عند الوزير أصدقاؤه فانفرد بذلك الرجل وقال: يا عمدة الدولة والله ما أخطأ حزرك فيما قلته بالأمس منذ دخل الخليفة إلى الدار إلى أن خرج لم يطرف طرفةً عن تأمل الفرش فإذا وجهت طرفي نحوه أطرق وتشاغل.

فقال له: يا سيدنا أما إذ فات الأمر الأول فلا يفوت الثاني.

فقال: والله لا فعلت ولا غممت صفي الملك.

واتفق أنه خرج يوما وعليه ثوب بديع فلما عاد قال لصديقه: يا عمدة الدولة لحظتك اليوم تنظر الثوب الذي كان علي فعجبت من ذلك فلما مثلت بحضرة مولانا أقبل يتأمل الثوب ولم يزل يزحف من الدست حتى مد يده إلى الثوب وتلمسه فزال عجبي منك إذ كان الخليفة يتأمله وكان راتب مائدته في كل يوم كوائد الملوك في الأعياد والولائم.

وكان لا يبتاع لمطبخه من الطير ما هو معرق ولا مصدر وكان سعر المعرق ستة بدينار والمصدر أربعة بدينار والمسمن ثلاثة بدينار والفائق اثنان بدينار وكان يعمل لداره ومن فيها المسمن وأما مائدته فلا يقدم عليها إلا الفائق.

فلما كان في سنة سبع وأربعين وقصر النيل نزع السعر وغلا حتى بلغ التليس ثمانية دنانير وصار الخبز طرفة.

وكان المستنصر يحضر دار اليازوري كل يوم ثلاثاء على عادته فتقدم إليه المائدة فإذا هي على ما يعهد لم يخل منها بشيء حتى الدجاج الفائق فقال لصاحب مطبخه: ويلك يكون راتب مائدة الوزير الدجاج الفائق ومائدتي دون ذلك! فقال: يا مولانا ما ذنبي إذا قصر بك أصحاب دواوينك ولم يطلقوا لمائدتك ما ألتمسه منهم والوزير فلا تتجاسر وكلاؤه أن يقصروا في شيء مما جرت العادة به في راتب مائدته وغيرها مع تقدمه إليهم في كل يوم بالزيادة فيها وفي راتب داره.

فلما تظافر عداه عليه لم يشعر إلا في ساعة القبض فكتب إلى أبي الفرج البابلي وكان قد قدمه وأحسن إليه ورفعه على جميع أصحاب الدواوين واستخلصه دونهم كما يأتي إن شاء الله عند ذكر وفاته بعد البسملة: عرفنا يا أبا الفرج أطال الله بقاءك وأدام عزك تغير الرأي فينا وسوء النية والطوية فإن يكن هذا الأمر صائراً إليك فاحفظ الصحبة وارع واجب الحرمة وإن يكن صائراً إلى غيرك فابتغ لنفسك نفقا في الأرض.

على أنا نشير عليك: إن دعيت إليه فأبى عنه فإنه أصلح لك وأعود علينا والسلام.

ودعى البابلي للأمر ووزر لأنه لم يكن في الدولة من يتقدمه لما وطأة اليازوري وأمله من تقديمه وتمييزه.

وكان اعتزاله يغطي على عيوبه فلما ولي الوزارة بان للناس من رقاعته وحدته وكثرة شره ما افتضح به وتجرد لمقابلة إحسان اليازوري بكل قبيح وذكره بما لا يستحق من الغض.

وكانت الرقعة التي كتبها إليه من أعظم ذنوبه عنده فكان يقول يخاطبني وهو على شفير القبر بنون العظمة! ولا يذكره إلا بالسفاهة واللغو فسقط قدره من أعين الكافة وحذره كل أحد.

ثم لم يقنعه كون اليازري في الاعتقال بمصر حتى نفاه إلى تنيس في صفر ومعه نساؤه وأولاده وحاشيته فاعتقلوا بها.

ثم شرع البابلي في التدبير على قتله.

قال الشريف فخر الدولة ومجدها نقيب نقباء الطالبيين: قال لي مولانا يعني المستنصر يا فخر الدولة ما رأيت أوقع من البابلي وذلك أن اليازوري لم ينته إلى ما صار إليه من عظيم المنزلة إلا بعد أن تقدم له من المآثر والآثار في الدولة وما فتح على يديه ما هو معلوم مشهور وكان يرتقي بذلك درجة بعد درجة إلى أن انتهى إلى ما انتهى إليه والبابلي فمن أول يوم استخدمناه استدعى المنزلة التي لم يصر ذلك إليها إلا بعد عدة سنين فأجبته إليها وقلت ترى تساعده الأقدار بأن يكون مثل ما كان ذلك الرجل.

ومنها أنه كان إذا حضر بين يدي يكثر التثريب على اليازوري ويذكره بالقبيح ظناً منه تطلعنا إلى عوده إلى الأمر وليثبت في نفوسنا سوء الرأي فيه.

ولم نعلم أن غرضه قتله إلى أن كان اليوم الذي سقت عليه الأتراك ووطئوا دراعته فإنه لما دخل إلي قال: يا أمير المؤمنين إنه لا ينفذ لك أمر ولا يتم لي نظر وهذا الكليب في قيد الحياة.

فقلت: ومن هو ذلك الكليب فقال: علي ابن عبد الرحمن اليازوري.

فقلت: أيها الوزير اعلم أني لم أصرف الوزير عن خدمتنا ولنا في إعادته رغبة فطب نفساً ودع ذكره فأنت آمن مما تخافه من جهته.

فقال: والله إن هذا لعجب من حسن مقامك يا أمير المؤمنين عنه مع قبيح فعله وما هم به من قتلك حتى إن السقية أقامت تدور في قصرك أسبوعاً كاملاً.

فقلت: أيها الوزير أقامت السقية تدور علي في قصري أسبوعا كاملا فقال: نعم.

فأطرقت متعجباً وبقيت متفكراً في ذلك أصرف الظن بين تصديقه وتكذيبه ثم أقول لو لم يطلع على ذلك لم يذكره.

فأمسكت فظن بإمساكي أنني راض بما يفعله معه وخرج فاستدعى طاهراً كاتب السر وسيره لقتله.

ونمى الخبر إلى مولاتنا الوالدة فأنكرت ذلك ودخلت إلي فقالت: أنت يا مولانا أمرت البابلي بقتل اليازوري! فقلت: لا.

فقالت: قد سير طاهر ابن غلام لقتله.

فاستدعيت سعيد السعداء وأنفذته إليه وقلت له: قل له لم يأمرك بقتله فأنفذ من يعيد طاهراً ويمنعه من النفوذ.

فألفاه صاحب الرسالة في الحمام فاعتذر إليه فقال: لا بد من الدخول ودخل وأدى الرسالة إليه فقال: أخرج وأسير من يعيده.

وطول في الحمام ثم خرج فإلى أن كتب الكتاب وسير به النجاب سبقه ذلك إلى تنيس فلم يصل حتى نفذ الحكم فيه.

ولما وصل طاهر إلى تنيس أوصل كتاب البابلي إلى جمال الدين صبح يذكر فيه: إنا قد سيرنا طاهراً فيما أنت تقف عليه من جهته فتثبت منه وتحضر معه لإنجازه وتحذر من تأخيره من اليوم إلى الغد.

فقال: وما الذي وصلت فيه فأخرج تذكرة بخط البابلي فيها: إذا وصلت يا طاهر أعزك الله إلى تنيس وقد سغبت ولهثت من العطش فلا تبل ريقك بقطرة دون أن يحضر علي بن حسن بن عبد الرحمن اليازوري إلى دار الخدمة وتمضى حكم السيف فيه فد كتبنا إلى الأمير جمال الدولة بمعونتك على ما يستدعيه ذلك فقدمه ولا تؤخره إن شاء أحد.

فقال له: أنت خليفة صاحب الستر ومرسل من جهة السلطان والأمر الذي وصلت فيه ممتثل فأمض الحكم فيه.

وأنفذ من يحضر اليازوري من معتقله والصقالبة والسعدية خدام الستر وقوف والسياف قائم.

فقال له طاهر: يا حسن يقول لك مولانا أين أموالي فلم يجبه ولم يرفع طرفه إليه.

فقال له: إياك أخاطب يا حسن بن علي بن عبد الرحمن يقول لك أمير المؤمنين أين أموالي فلم تجبه.

فرفع طرفه ونظر إليه وإلى الجماعة وفيهم حيدرة السياف وقال لطاهر: يا كلب تجيء وهذا معك وأشار بيده إلى السياف وتسألني بعد ذلك ولكن قل له يا مولانا قبض علي وأنا آمن على نفسي فإن يكن عندي مال فقد وجدته في داري وكنت داعيك وثقتك المؤيد في الدين.

في القمطرة الفلانية ما يشهد بذكر مالك أين هو.

فأشار طاهر إلى أولئك فأخذوه وضربت عنقه في ليلة الثاني والعشرين من صفر وحملت رأسه مع طاهر إلى القاهرة وطرحت جثته على مزبلة ثلاثة أيام.

ثم ورد الأمر بتكفينه فكفن بعد أن غسل وحنط بحنوط كثير وحمل ليلاً ودفن وقد وضع رأسه مع جثته.

وكان له من المآثر المرضية والخلال الحميدة والأفعال الجميلة والخلائق الرضية ما يتجمل الملوك بذكره.

منها أنه كنت له مائدة يحضرها كل قاض فقيه وأديب جليل القدر فإذا قدمت فكأنها الرياض من حسنها وسعة نفسه.

وكان الملازمون لمائدته نحو العشرين نسمة فيكون عليها كأحدهم.

وقال عميد الدولة: أقمت معه خمس عشرة سنة قبل وزارته ملازماً له في المبيت والصباح فكنت أراعيه في حالاته كلها ليلاً ونهاراً فلا أرى يتغير علي منها شيء ولا يتبين لي منه غضب من رضا فأقبلت أدقق التأمل له في حالتي غضبه ورضاه شهورا حتى تبين لي فكان إذ رضى توردت وجنتاه بحمرة وإذا غضب اصفرت محاجر عينيه فعرفت أبي بذلك فقال: يا بني هذا غاية في سكون النفس وصحة الطباع واعتدال المزاج.

وكانت طبائعه الأربعة على السواء فإذا أخل عمل طبيعة منها عهده أخذ بإصلاحها حتى يعود إلى ما يعهده من استقامتها.

وكان لا يعطل شرب الدواء يوماً واحداً فيشرب السكنجبين والورد أسبوعا ثم يريح نفسه ثلاثة أيام ثم يشرب النقوع المغلى في الشتاء والمنجم منه في الصيف أسبوعا لكل منهما ويشرب ماء البذور أسبوعا ويشرب ماء الجين ثمانية أيام ويشرب ماء البقل أسبوعا ثم يشرب الراوند المنقوع كذلك ويريح نفسه بين كل دوائين ثلاثة أيام لا يخل بذلك في صيف ولا في شتاء.

وكان ندي الوجه كثير الحياء لا يكاد يرفع طرفاً إلا لضرورة ولم يسمع منه قط في سؤال لفظة لا.

بل كان إذا سئل فما يرى إجابة سؤاله إليه يقول نعم بانخفاض من طرفه وخفوت من صوته فإذا سئل فما يرى الإجابة إليه يطرف ولا يرفع طرفه وعرف هذا منه فلا يراجع فيه إلا بعد مدة.

وكان كل من يحضر مائدته يستدعى منه الحضور بين يديه لئلا يستمروا عنده وكان فيهم من يشرب السكر فإذا حضروا عرفوا مجالسهم وما قرره

لهم فكان من لا يشرب النبيذ يجلس عن يمينهن ومن يستعمله يجلس عن يساره وبين يدي كل منهم الفواكه الرطبة واليابسة والحلاوة وستارة الغناء مضروبة فيجلسون وهو مشغول يوقع وهم يتحدثون همساً وإشارةً وإيماءً إلى أن ينقضي أربه من التواقيع فيستند وينشطهم بالحديث ويقول: قد تجدد اليوم كذا وكذا فما عندكم فيه.

فيقول كل أحد ما يراه وهو يسمع لهم حتى يستكمل الجماعة الذين عن يمينه ثم يعطف على شماله فيقول: من هناك قولوا فيقولون وهو يسمع ولا يرد على أحد شيئا فلا يصوب المصوب ولا يخطىء المخطىء ويبيت يضرب الآراء بعضها ببعض حتى يمحض له الصواب ويصبح يرمي فلا يخطىء.

فكانت أفعاله هكذا طول مدته لا يستبد قط برأيه ولا يأنف من المشورة بل يقول: المستبد برأيه واقف على مداحض الزلل وفي الاستشارة كل عقول الرجال.

وبهذا تم له ما كان يدبره حتى ترك فيما رامه من الطرز الآثار الباقي ذكرها.

وجاء ارتفاع الدولة في أيامه ألفي ألف دينار يقف منها ويسكن وينصرف للرجال وللقصور وللعمائر وغيرها ويبقى بعد ذلك مائتا ألف دينار حاصلة يحملها كل سنة إلى بيت المال.

فحظى بذلك عند سلطانه وتمكن منه وارتفع قدره حتى سأل أن يكتب على سكة نقش عليها: ضربت في دولة آل الهدى من آل طه وياسين مستنصر بالله جل اسمه وعبده الناصر للدين سنة كذا وطبعت عليها الدنانير مدة شهر ثم أمر المستنصر بمنعها ونهى أن تسطر في السير.

وكانت أيام نظره حوامل لتوالي الفتوحات وعمارة الأعمال.

وكان شريف الأخلاق عالي الهمة كريم الطباع وطىء الأكناف مستحكم الحلم واسع الصدر ندي الوجه يستقل الكثير ويستصغر كل كبير.

وكان إذا أعطى أهنأ وإذا أنعم على إنسان أسبغ وإذا اصطنع أحداً رفعه إلى ما تقصر الآمال والأماني عنه مع عظيم الصدقة وجزيل البر الذي عم به أهل البيوتات مما جعله لهم من المشاهرات على مقاديرهم.

وكذلك الأشراف والفقراء وأهل الستر بالقرافة فكان يجري عليهم البر والكساء على يد بعض اليهود ويعرف بابن عصفورة وكيل السيدة أم المستنصر فكانوا يظنون أنه من إنعامها فلما زالت أيامه انقطع عنهم ما كان يصل إليهم من البر فخاطبوا ابن عصفورة وقالوا: قد جفينا من مولانا

ومولاتنا فلو أدركتهما بنا فقال لهم: ما ترون ما كان يجيئكم حتى يتولى الله ناصر الدين أخي.

فقالوا: نحن التمسنا من مولانا المستنصر ومولاتنا السيدة الوالدة ولم نلتمس من ناصر الدين.

فقال: ما كان يجيئكم ذاك إلا من الوزير.

فعجبوا من ذاك وأكثروا من الترحم عليه.

ومما يذكر عنه أنه كتب: العالي بالله إدريس بن المعتلى بالله يحيى بن الناصر لدين الله علي بن حمود من خالقه إلى مصر مكاتبة يقول فيها: من أمير المؤمنين العالي بالله إلى أمير المؤمنين المستنصر بالله.

فعيب عليه بمصر قلة تصوره ومعرفته بأنه لا يجوز أن يكون أمير المؤمنين في زمان واحد اثنان.

ثم ألجأت الضرورة إلى مكاتبته بنحو مما كتب وكان اليازوري إذ ذاك وزيرا فقال أنا أخلص هذه القضية وأعلقها بمعنى دقيق لا يبين للمكاتب وكان صاحب حيل يكتب إليه: من أمير المؤمنين المستنصر بالله معد إلى العالي بالله أمير المؤمنين خالقه وهذا من طريف التخلصات التي تميز بها.

وحكى عظيم الدولة متولى السر قال: كنت في جملة الموكلين على الناصر ثم على البابلي بعده فكنت أرى من رئاسة الوزير الأول يعني اليازوري على شبيبته ورجاحته وسكون حاشيته ومن طيش البابلي وخفته ونقصه ما أعجب منه وهو أني لما كنت موكلا باليازوري كنت أراه ملازماً لعتبة باب المجلس في القاعة لا يتغير مكانه منها.

وكان البابلي يراسله بما يمضى ويوصينا إذا مضينا إليه بالإزعاج عند فتح الباب وإكثار قلقلته لنزعجه ونروعه بذلك فوالله ما كان يكترث ولا ينزعج.

وإذا دخل متولى الستر يكون جلوسه منه في الاعتقال كجلوسه منه في حال نظره ويخاطب بما يرضى فيجيب بسكون وهدوء وكأنه في الدست جالس.

فدخل إليه في أكثر من ثلاثين صقلبيا وبلغهما أوصاه البابلي فأجابه ثم نهض وقال: يا سيدي صرفتني من الستر بغير ذنب ثم أعدتني إليه بغير مسألة فما كان سبب ذلك فرفع طرفه إليه كأنه يخاطبه من دست الوزارة وقال له: كان صرفك في الأول برأيي واختياري ثم أعدتك لما عرفت من ميل مولانا إلى استخدامك.

فخرج متولي الستر وهو يعجب من سكون حاله وقلة احتفاله في الجواب مع حاجته إليه في مثل ذلك الوقت الذي يقدر فيه على الإحسان إليه وعلى الإساءة وكان يظن أنه يعتذر إليه فلم يكن منه غير ما تقدم ذكره.

وكان أكثر وقته صائماً وهو يتلو القرآن ولا يسأل عن طعام ولا شراب.

وكان في حال وزارته كثير الصمت مواصل الإطراق ساكن النفس هادئ الطباع فكان يظن أن ذلك من تيه وصلف وإعجاب وقلة احتفال بالناس فلما صار في الاعتقال بعد القبض عليه كان حاله على ما كان مما ذكر.

ومن عجيب ما وقع أن خطير الملك محمد بن الوزير اليازوري كان ينوب عن أبيه في قضاء القضاة فلما سار إلى الشام بالعساكر الكثيرة معه كان في حال من البذخ والتجمل في حال لا يمكن شرحها فلما نكب أبوه آل حاله إلى أن يرى في مسجد بمدينة فوة يخيط للناس بالأجرة وقد نزل به من الفقر والبلاء شدائد وهو يبالغ في مطالبة شخص بأجرة ما خاطه له والرجل يماطله.

فلما ألح في المطالبة قال له: يا سيدنا اجعل هذا القدر اليسير من جملة ما ذهب منك في السفرة الشامية.

فقال: دع ذكر ما مضى.

فسأله رجل عن ذلك فلم يجبه فسأل عبده فقال الذي ذهب منه في تلك السفرة على نفقات سماطه مقدار ستة عشر ألف دينار.

فسبحان من لا يزول ملكه.

وفيها ولي الوزارة بع اليازوري أبو الفرج عبد الله بن محمد البابلي وكان أولا من جملة أصحاب الدواوين فقبض عليه الوزير أبو البركات ابن الجرجرائي وصادره على عشرة آلاف دينار أخذ خطه بها فباع موجوده بستة آلاف دينار وبقي عليه أربعة آلاف دينار فانطرح على اليازوري وسأله الشفاعة له وكان يومئذ ينظر لأم الخليفة فسأل الخليفة له في ذلك فوقع بمسامحته منها بألفي دينار فلما صرف الوزير أبو البركات وتولى اليازوري الوزارة وقع بمسامحة البابلي بالألفين الباقية واستخدمه في التوقيع ورد إليه ديوان تنيس ودمياط وديوان الخاص وغيره من الدواوين حتى كان في يده ستة دواوين.

وكان رسم لأصحاب الدواوين أن يحضروا كل يوم بين يدي الوزير فرفع منزلة البابلي عن ذلك وميزه عن أصحاب الدواوين فكان لا يحضر عنده إلا في كل ثلاثة من الجمعة فإذا حضر حجب كل أحد من الرؤساء فلا يدخل إلى الوزير أحد ما دام عنده.

فمهما قرره مع الوزير لا ينتقض.

وإذا عرض له في باقي الجمعة أمر كتب رقعةً إلى الوزير فيجيبه في تضاعيف سطوره فعل الأكفاء بالأكفاء.

وبلغ جاريه على ما بيده من الدواوين والتوقيع في كل سنة عشرة آلاف دينار.

وكتب مرة إلى الوزير اليازوري رقعة يذكر فيها أنه ليس له دار يسكنها وأن بجوار داره حماماً سلطانيا من جملة المقبوض عن تركة أمير الأمراء رفق بذل فيها خمسمائة دينار وسأل التوقيع بمبايعته منه على أن يقتطع ثمنه من جاريه مائة دينار في الشهر فوقع له بذلك ثم تقدم إلى متولي بيت المال بأن يكتب له منه رصدا بخمسمائة دينار ووهبها له.

فكتب رقعة ثانية أنه لما شرع في بناء الدار احتاج إلى ما يكمل به عمارتها وأن في المقبوض من أمير الأمراء أيضاً من الأخشاب والرخام ما يسأل الإنعام عليه منه بما يعمرها به فوقع بتسليم جميع ذلك إليه.

فعمر الدار وخدمه فيها جميع من في الدولة فجاءت تضاهي القصور.

واتفق أنه مرض في بعض السنين مرضةً أشفى فيها على التلف فكتب إلى الوزير اليازوري رقعةً يذكر فيها ما انتهت حاله إليه وأنه على آخر رمق وأن عليه من الدين ثلاثة آلاف دينار ويخاف إن حدث به حادث الموت أن يعنت الغرماء ولديه ويسأل تمام الاصطناع بالمنع منهما وأن يقرر حالهما في القيام للعرفاء بما تصل قدرتهما إليه وينجم الباقي عليهما.

فلما وقف الوزير عليها استرجع وتغمم له وقال: ما ظننا إلا أنا قد أغنينا أبا الفرج وأن حاله لم تصل إلى هذا الحد! ثم رفع رأسه إلى أبي العلاء عبد الغني بن الضيف وكان يحمل دواة الوزير ولقبه بالصادق المأمون وقال: أسرع إلى أبي العباس الشاشي وكان يتولى ديوانه فلما حضر قال: ما في حاصلك من إقطاعنا فقال: ثلاثة آلاف دينار وكسر فأحضرها وقال لأبي العلاء: خذ هذه الثلاثة آلاف دينار وامض بها إلى البابلي وخصه بسلامنا وقل له: قد سوأتنا بما ذكرته من مرضك وما انتهت إليه حالك والله تعالى يهب عافيتك ولا يغمنا بك.

فأما ما سألت من مراعاتك في ولديك والمنع منهما فلو لم تسأل في ذلك حفظناك فيهما وراعيناهما لك.

وأما ما ذكرته من دينك فقد أنفذنا إليك ما تقضيه به.

فلما أخذ المال وخرج من القبة قال ارجع يا عبد الغني فعاد إليه فأخذ درجاً ووقع إلى ديوان الخاص بثلاثة آلاف دينار وكان له فيه إقطاع وقال امض إلى الجهبذ بهذا التوقيع فإن كان في حاصله هذا القدر وإلا قل له يقترض من بيت المال إلى أن يستخرج شيئاً فيحمله إليه به عوضاً عنها واحمل الجميع إلى البابلي.

فلم يحتمل أبو العلاء الصبر عن الكلام وقال: يا سيدنا ما يقنعك تحمل إليه ثلاثة آلاف دينار حتى تضيف إليها مثلها فتصير ستة! فقال: يا وحش إذا قضى دينه بهذه الثلاثة الآلاف ما يحتاج أن يستدين بعدها فينفق من هذه الأخرى ولا يستدين.

فقال له: والله يا سيدنا إنك لأكرم نفساً من البرامكة لأن أولئك كانوا يجودون من سعة وأنت تجود من ضيق ولا نسبة بين ما تنظر فيه وما كانوا ينظرون فيه.

وخرج فأوصلها إليه.

فلما قبض على اليازوري كان أعدى العالم له وكفر نعمته وإحسانه وتجرد له حتى قتله.

وحكى فخر الدولة قال: استدعاني مولانا المستنصر وقال لي يا فخر الدولة هل يكون في اختيار الإنسان إلى من تطمح إليه الأبصار أو تتطلع إليه النفوس أوفى من شخص البابلي مع شيبته وظاهر سمته وهيبته فقلت: لا يا أمير المؤمنين.

فقال: والله لقد ظننت أن الدولة تتضاعف قدرتها بنظره وينضاف إليها مثلها بحسن تدبيره وأن من وراء هذا الشخص ما وفى عليه فإذا ثيابه لا تسع رقاعته وغمته والحية قد نشفت قرعته.

وذلك أن اليازوري أقام في خدمتنا عشر سنين عددنا عليه ثمانية عشر ذنبا وأقام البابلي اثنين وسبعين يوماً نقمنا عليه تسعة عشر ذنباً مع ظاهر كذبه وقلة احتشامه عندي وذلك أنه ذكر لي من حال السقية ما كثر تعجبي منه وأنا بين تصديق الحكاية وتكذيبها واحتشمت أن أرد عليه فيتحقق تكذيبي له.

وكان من إقدامه على قتل اليازوري ما كان وساء لنا ذلك إذ لم نكن نريد قتله.

فلما كان بعد ذلك بأيام يسيرة أمرته بشيء فعارضني وضرب الأمثال بما يصدني عن ذلك الأمر فقلت له أيها الوزير اعلم أن اليازوري لم تطل مدته معنا وتثبت قدمه إلا أنا كنا إذا أمرناه بشيء انتهى إليه ولم يتجاوزه.

فقال لي مجيبا: يا مولانا وكأن اليازوري كان ينقط نقطة إلا ما أمثله له وأوقفه عليه ! يريد أنه كان يدبر اليازوري ويعلمه ويفهمه فلم يتأمل ما عليه فيه ولا ذكر ما كان قاله من حال السقية وأذكرني قوله هذا حال السقية فقلت له وقد اغتظت منه: يخرس الله الوزير فإذاً كانت السقية برأيه! فلما سمع ذلك مني دهش وقال: أعوذ بالله يا مولانا ولكنني كنت أبصره صواب الرأي وأشير عيه بما فيه حميد العاقبة.

فعند ذلك تحققت من كذبه على الرجل ما كنت شاكاً فيه.

ووجه كذبه فيما حكاه من ذلك أن الرئيس الجليل القدر إذا أراد أن يهم بمثل هذا الأمر في سائسه أو من يجري مجراه لم يكد يعلم ولده بما يريده منه فكيف إذا عزم على فعل ذلك مع مثلى هل يسوغ أن يطلع أحداً عليه ومع هذا فما الذي يدعوه أن يخرج بذلك إلى غيره وربما نم عليه وتقرب إلي بإطلاعي عليه وإلا تولى بنفسه مع إكثاري كان من زيارته وسكوني إليه وأني لم أتهمه بذلك فط فآخذ حذري منه وكان بهذا الحكم يتمكن من بلوغ غرضه مني بحيث لا يعلم به أحد.

فتحقق لي كذبه فيما حكاه وهذا أقوى الأسباب في صرفه لأن من ليس له عقل يميز به ما يخرج من فمه لا سيما في مثل هذا الأمر الخطر الكبير لم يجز أن يوثق به في تدبير مزبلة والخوف من جنايته على الدولة برقاعته ونقص عقله أكثر من الطمع في الانتفاع بنظره.

وكان صرف البابلي على الوزارة في شهر ربيع الأول وله في الوزارة اثنان وسبعون يوماً فلما صرف قبض عليه واعتقل.

وكان النهار لا يكاد يرتفع ويتأخر ما يحمل إليه من الطعام إلا ويتسغيث ويقول: ما يتم حبس وجوع.

وكان يبدو منه في محبسه من القول ما يعرب به عن مستحكم الرقاعة والجهل فكان الموكلون به يتعجبون من فرق ما بينه وبين اليازوري فإن ذاك كان ساكن الطباع كثير الصمت شريف النفس مع حداثة سنه وهذا شيخ يظهر منه من الخفة فيها تولى الوزارة بعد البابلي أبو الفرج محمد بن جعفر بن محمد بن الحسين بن المغربي.

وفيها تولى قضاء القضاة عوضاً عن اليازوري أبو علي أحمد بن عبد الحكم بن سعيد إلى ذي القعدة وصرف بأبي القاسم عبد الحاكم بن وهب بن عبد الرحمن المليجي.

وتولى المؤيد في الدين أبو نصر هبة الله بن موسى داعي الدعاة.

فيها قصد الأمير أبو الحارث أرسلان البساسيري الموصل ومعه قريش بن بدران بن المقلد بن المسيب العقيلي أمير الغرب فملكها.

وخرج إليه السلطان ركن الدين أبو طالب طغرلبك بن ميكائيل بن سلجوق ففارقها واتجه طغرلبك إلى نصيبين فخالف عليه أخوه لأمه إبراهيم بن ينال وسار إلى همذان فرجع في إثره وتلاحقت الأتراك فاستدعى الخليفة القائم دبيس من مزيد فوصل إليه وقد أرجف بمسير البساسيري إلى بغداد فعظم الخوف منه فرجع دبيس إلى بلاده.

فلما كان يوم الأحد الثامن من ذي القعدة من هذه السنة وصل البساسيري إلى بغداد ومعه قريش بن بدران وخطب في جامع المنصور للمستنصر بالله الفاطمي وقطع الخطبة لبني العباس وعقد الجسر وعبر عسكره.

فلما كانت الجمعة الثانية خطب بجامع الرصافة للمستنصر.

وكانت بينه وبين أهل بغداد حروب آلت إلى هزيمة رئيس الرؤساء وزير القائم والعسكر وقتل جماعة من الأعيان.

ووقع النهب في البلد ودخل أصحاب البساسيري إلى البلد ووصلوا إلى باب النوبي الشريف فركب القائم بسواده وعلى كتفه البردة وبيده السيف وعلى رأسه اللواء وحوله جماعة بني العباس والخدم بالسيوف المسللة فرأى الأمر شديداً فعاد وأبعد المنظرة ونادى رئيس الرؤساء: يا علم الدين قريش أمير المؤمنين يستدنيك.

فدنا منه فقال رئيس الرؤساء له: قد آتاك الله منزلة لم ينلها أمثالك وطلب منه الأمان للخليفة القائم فأمنه.

ونزل إليه الخليفة والوزير رئيس الرؤساء وصاروا معه.

فبعث إليه البساسيري: تخالف ما استقر بيننا! فقال قريش: لا.

وكانا قد تعاهدا على المشاركة في جميع ما يحصل لهما فاستقر الأمر على أن البساسيري يتسلم الوزير رئيس الرؤساء وأن قريش ابن بدران يتسلم الخليفة القائم فيكون عنده.

فبعث حينئذ قريش بالوزير إلى البساسيري فلما مثل بين يديه قال له: العفو عند المقدرة.

فقال البساسيري: أنت صاحب الطيلسان ما عفوت عن داري وحرمى وأطفالي فكيف أعفو وأنا صاحب سيف.

ثم إن قريش بن بدران سار في خدمة الخليفة وهو راكب بالصفة التي تقدم ذكرها إلى معسكره فأنزله في خيمة وهيأ له ما يقوم به ووقع النهب في دار الخلافة مدة أيام وأخذ منها ما لا يحصى كثرة وبعث منها إلى مصر منديل القائم الذي عممه بيده قد جعل في قالب رخام لكيلا ينحل مع ردائه والشباك الذي كان يتوكأ عليه فعمل في دار الوزارة بالقاهرة.

وأما العمامة والرداء فبعثهما السلطان صلاح الدين يوسف لما استولى على القصر إلى الخليفة المستضيء ببغداد مع الكتاب الذي كتبه على نفسه القائم وأشهد على نفسه العدول فيه أنه لا حق لبني العباس في الخلافة مع وجود فاطمة الزهراء.

وحمل أيضاً إلى القاهرة الذخائر والكتب والقضيب والبردة.

وسلم قريش الخليفة إلى ابن عمه مهارس بن المجلى وكان رجلاً متديناً فحمله في هودج إلى مدينة عانة وأنزله بها وفر أصحاب الخليفة القائم إلى طغرلبك فصاروا في جملته فلما كان يوم عيد النحر ركب البساسيري إلى المصلى وعلى رأسه ألوية المستنصر وقد استمال الناس بكثرة الإحسان وإجراء الأرزاق وكسر منبر المسجد الجامع ببغداد وقال: هذا منبر نحس أعلن عله بغض آل محمد عليهم السلام وأنشأ منبرا آخر وخطب عليه باسم المستنصر.

ثم أخرج الوزير رئيس الرؤساء أبا القاسم علي بن المسلمة وهو مقيد وعليه جبة صوف وطرطور أحمر من لبد وفي عنقه مخنقة فشهره ثم أعاده إلى المعسكر وقد نصبت له خشبة فألبس جلد ثور طري وجعل في فكيه كلابين من حديد وعلقه بهما فبقي يضطرب إلى آخر النهار حتى مات وعمره نحو من ثلاث وخمسين سنة وكان حسن التلاوة للقرآن جيد المعرفة بالأدب.

ولما ورد الخبر بذلك إلى المستنصر سر سرورا كثيرا وزينت القاهرة ومصر وجاءت نسب الطبالة فغنت بالطبل في القصر بين يدي المستنصر: يا بني العباس ردّوا ملك الأمر معدّ ملككم ملكٌ معار والعوارى تستردّ فقال لها المستنصر: تمنى فلك حكمك فسألت الأرض المجاورة للمقس فأقطعها إياها فعرفت بها وقيل لها إلى اليوم أرض الطبالة.

وأمر المستنصر في أن يحمل إلى مهارش عشرة آلاف دينار ليسير إليه الخليفة القائم على حال جميلة وعزم على أنه إذا وصل تلقاه أحسن لقاء وبالغ في إكرامه.

ويقال إنه بنى القصر الغربي لينزله فيه ويحمل إليه ما ينسيه به ما كان فيه من إقامة الرواتب السنية وأن يقرر له في كل يوم مائة دينار وأنه إذا ركب المستنصر في أوقات ركوبه قدمه بين يديه يحجبه.

فإذا أقام على ذلك مدة وبات وانتشر في الأقطار خبر ذلك خلع عليه وعقد له ألوية الولاية للعراق وكتب عهده بتقليده إياه وسيره إليه وأعاده إلى مملكته وخلافته من قبله.

فمنعه حادث القدر قبل إدراك ذلك.

وكان من جملة أسباب فوات هذا أن البساسيري لما بعث الكتب إلى المستنصر يعرفه بإقامة الخطبة له ببغداد كان الوزير حينئذ أبو الفرج محمد بن المغربي وهو ممن فر من البساسيري وصار إلى القاهرة فحذر المستنصر من البساسيري وخوفه عاقبته فتركت أجوبته مدة ثم عادت الأجوبة بخلاف ما أمله البساسيري ثم قدم طغرلبك فانتصر عليه.

وفيها بنيت القبة التي بصحن جامع دمشق شرقي الجامع على باب مشهد علي وكتب عليها اسم المستنصر.

وفيها ولى المستنصر ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان دمشق في شهر رجب سنة إحدى وخمسين وأربعمائة: فيها سار الأمير أبو الحارث البساسيري من بغداد فملك البصرة وواسط وأقام بهما الدعوة للمستنصر وخطب له في عامة تلك الأعمال.

وبلغ طغرلبك ما كان من أخذ بغداد وقطع الخطبة العباسية منها فكاتب ألب أرسلان بن داود أخيه فقدم عليه في إخوته بعسكر كبير واجتمعوا على محاربة إبراهيم بن ينال فكانت الغلبة لطغرلبك فأخذه أسيراً وقتله في تاسع جمادى الآخرة.

وتوجه يريد بغداد وبعث إلى البساسيري وإلى قريش بن بدران يأمرهما برد الخليفة القائم إلى بغداد وإقامة الخطبة له على عادته ورده إلى تخت خلافته ويعدهما أنهما إن فعلا ذلك رجع عن العراق ولم يدخل بغداد وأنه يقنع بأن يخطب له فيها وتضرب السكة باسمه.

فامتنع البساسيري أولاده وحرمه من بغداد إلى واسط ونوى العود.

وعند ما قارب طغرلبك بغداد بعث إلى قريش يشكر ما كان من صنيعه مع الخليفة القائم وجهز إلى بكر بن فورك لإحضار الخليفة فوافى حلة بدر بن مهلهل وقد وصل الخليفة وابن مهارش في تلك الساعة فركب هو وابن فورك وأركبا الخليفة وخدماه وأتته هدايا بدر.

وبعث طغرلبك بوزيره عميد الملك أبي نصر منصور الكندري والأمراء والحجاب بالخيام الكثيرة والسرادقات العظيمة والخيول العدة بالمراكب الذهب إلى الخليفة القائم فرحل وهم في خدمته وقد خرج طغرلبك إلى لقائه فعندما شاهده وقع إلى الأرض يقبلها ثم قام وهنأه بالسلامة وأظهر السرور الزائد والابتهاج الكبير واعتذر عن تأخره بما كان من عصيان إبراهيم ينال.

فقال الخليفة بسيف كان قد تأخر عنه وسار معه طغرلبك إلى بغداد وجلس على باب النوبى الشريف مكان حاجب الباب حتى وصل الخليفة فعندما شاهده مثل قائما وأخذ بلجام بغلته حتى انتهى إلى باب الحجرة الشريفة وذلك في يوم الاثنين لخمس بقين من ذي الحجة.

ثم عاد طغرلبك إلى معسكره وسير العساكر لمحاربة البساسيري وخرج في إثره فوافت العساكر البساسيري ودبيس بن مزيد فكانت بينهم حروب آلت إلى انهزام دبيس ووقوع ضربة في وجه البساسيري سقط منها عن فرسه فأخذ وقتل وحملت رأسه إلى طغرلبك فبعث بها إلى الخليفة القائم فطيف بها على قناة في بغداد للنصف من ذي الحجة وعلقت على باب النوبى.

وأحيط بأموال البساسيري ونسائه وأمواله وجميع حواشيه وأسبابه وقتل في هذه الوقائع من الخلائق ما لا يحصى لهم عدد وفر دبيس إلى البطيحة.

وقطعت الخطبة من بلاد العراق للمستنصر بعد أن خطب له ببغداد أربعين جمعة وعادت للقائم كما كانت.

وهذه الحادثة كانت آخر سعادة الدولة الفاطمية فإن الشام خرج من أيديهم بعدها بقليل لاستيلاء الترك عليه ولم يبق بيدهم غير ملك مصر خاصة ويقال إن الخليفة القائم بأمر الله كتب لما نكب كتاباً يشكو فيه ما يلقاه من البساسيري ونسخته بعد البسملة: إلى الله العظيم من عبده المسكين.

اللهم إنك عالم بالسرائر مطلع على مكنونات الضمائر اللهم إنك غني بعلمك واطلاعك على أمور خلقك عن إعلامي لك وهذا عبد من عبيدك قد كفر نعمتك وما شكرها وألغى العواقب وما ذكرها أطغاه حلمك وسخر بأناتك حتى تعدى علينا بغياً وأساء إلينا عتوا وعدواً.

اللهم قل الناصر واغتر الظالم وأنت المطلع العالم والمنصف الحاكم بك نستعين عليه وإليك نهرب من بين يديه وقد تعزر بالمخلوقين ونحن نستعين بالله رب العالمين.

اللهم إنا حاكمناه إليك وتوكلنا في إنصافنا منه عليك ورفعنا ظلامتنا إلى حكمك ووثقنا في كشفها بكرمك فاحكم بيننا بالحق وأنت خير الحاكمين وأظهر قدرتك فيه قدر ما نرتجيه فقد أخذته العزة بالإثم.

اللهم فاستلبه عزته وملكنا بقدرتك ناصيته يا أرحم الراحمين.

وصلى الله على محمد خاتم النبين وعلى آله الطيبين وسلم تسليما.

وبعث به إلى باب الكعبة وعلق بباب الكعبة ودعي بما فيه فقتل البساسيري في ذلك اليوم.

سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة

فيها سارت العساكر من مصر إلى دمشق وكتب لناصر الدولة أبي علي الحسين بن حمدان أن يكون قائد الجيش فسار من دمشق بعسكر كبير في سادس ربيع الأول يريد محاربة أهل حلب.

وكانت مدينة حلب قد أقيمت فيها الدعوة الفاطمية وأسقطت بها دعوة بني العباس إلى أيام الظاهر بن الحاكم فتغلب عليها صالح بن مرداس أحد أمراء الكلابيين وكثف أمره بها حتى استولى على دمشق أمير الجيوش أنوشتكين الدزبري أحد الغلمان الأتراك فساس الأمور وأطاعه كل مارق وراسل الملوك.

فنابذه صالح بن مرداس وجمع له العرب وفيهم عدة الدولة حسان بن جراح وسار لمحاربته فكانت بينهما وقائع انهزم فيها حسان إلى بلاد الروم وتفرق الجمع.

ثم مات صالح وقام من بعده ابنه شبل الدول نصر بن صالح في حلب فقام بمنابذة أمير الجيوش كما كان أبوه وسار لقتاله فقتل وملك أمير الجيوش حلب فأقام بها رضي الدولة منجوتكين أحد غلمانه فأقام بها سنين.

ومات أمير الجيوش فغلب على حلب ثمال بن صالح بن مرداس وملكها ولم يقم أحد بعد أمير الجيوش مقامه.

فلما كانت وزارة الجرجرائي غمض طرفه عن ثمال ورأى أن موادعته أخف من إنفاق الأموال في محاربته فكتب بولايته وقرر عليه الحمل في كل سنة.

وتمادى ذلك إلى أيام وزارة اليازوري فلم يرض بهذا ورأى أن الحيلة أبلغ فيما يؤثره لأنه إن رام صرفه لم يطق ذلك وإن نابذه ألزم كلفاً كثيرة.

فاستعمل السياسة والتدبير الخفي وندب لذلك رجلا من أهل صور له بها رئاسة ووجاهة يقال له عين الدولة علي بن عياض قاضي صور فساس الأمر وأحكم التدبير فيما قرره مع كاتب ثمال بن صالح وما وعده به حتى نزل من قلعة حلب وسلمها إلى مكين الدولة الحسن بن علي بن ملهم والي الخليفة المستنصر.

وسار من حلب يريد مصر للقاء الحضرة فلما بلغ رفح اتصل به خبر القبض على اليازوري فقال والله إني أموت بحسرة ونظرة إلى من استلبني من ذلك الملك وأخرجني بلا رغبة ولا رهبة إلا بحسن السياسة وإن رام ذلك مني فليس يتعذر عليه.

ورجع ثمال إلى حلب فاتفق في غيبته قيام أهل حلب وتسليم البلد إلى عز الدولة محمود بن نصر بن صالح بن مرداس في مستهل جمادى الآخرة من هذه السنة فحضر ابن ملهم بالقلعة إلى أن سار إليه ناصر الدولة بن حمدان فكانت بينهما حروب كبيرة على قنسرين آلت إلى أن انكسر ناصر الدولة كسرة عنيفة فأصابته ضربة شلت منها يده ورجع منهزماً في مستهل شعبان.

فقال عبد العزيز العكيك الحلبي وقد مدح ناصر الدولة فلم يجزه.

ولئن غلطت بأن مدحتك طالبا جدواك مع علمي بأنّك باخل فالدّولة الزهراء قد غلطت بأن نعتتك ناصرها وأنت الخاذل إن تمّ أمرك مع يدٍ لك أصبحت شلاّء فالأمثال عندي باطل وأما ابن ملهم فإنه بعث إلى أسد الدولة أبي ذؤابة عطية بن صالح فسلمه حلب ودخلها في عاشر شعبان هذا وأقام بها يوم ثم خرج عجزاً عنها فوصل محمود في ثاني عشره وملكها.

وفي تاسع رمضان صرف أبو الفرج ابن المغربي عن الوزارة وأعيد إليها أبو الفرج عبد الله بن محمد البابلي.

وصرف عن قضاء القضاة عبد الحاكم بن وهب في جمادى الآخرة واستقر عوضه أبو عبد الله أحمد بن محمد بن أبي ذكرى في حادي عشري رجب.

وفيها قدمت هدية المعز بن باديس فقومت بأربعين ألف دينار.

منها درقة مرصعة بالجوهر كانت للمهدي.

وفيها قدم كتاب علي بن محمد الصليحي بما هو عليه من القوة وإقامة الدعوة واستأذن في وفيها نزل محمود بن شبل الدولة ثمال بن صالح بن مرداس على حلب ومعه منيع بن سيف الدولة سبعة أيام ثم رحل وعاد إليها وأخذها يوم الاثنين ثاني جمادى الآخرة وحصر القلعة إلى سادس رجب ورحل فملكها أصحاب المستنصر.

وفيها التقى ناصر الدولة بن حمدان مع محمود بن شبل الدولة على الفنيدق فانكسر ابن حمدان ودخل عطية حلب وخرج منها وتسلمها محمود يوم السبت ثاني شعبان ثم وصل عمه معز الدولة فحاصر حلب مدة.

وفي هذه السنة سقط تنور قبة صخرة بيت المقدس وفيه خمسمائة قنديل فتطير الناس وقالوا ليكونن في الإسلام حادث عظيم.

سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة

في ثالث محرم صرف البابلي عن الوزارة واستقر عبد الله بن يحيى بن المدبر.

وفي صفر توفى قاضي القضاة ابن أبي ذكرى فاستقر في الحكم بعده أبو علي أحمد بن قاضي القضاة عبد الحاكم بن سعيد في رابع عشره وصرف في خامس صفر.

واستقر عوضه أبو القاسم عبد الحاكم بن وهيب المليجي ثم صرف في حادي عشر رمضان.

واستقر عوضه أبو محمد عبد الكريم بن عبد الحاكم بن سعد بن مالك بن سعيد الفارقي واستخلف ابنه عميد الملك أبا الحسن.

وصرف ابن المدبر عن الوزارة واستقر بعده أبو محمد عبد الكريم بن عبد الحاكم أخو قاضي القضاة.

وكان السبب في سرعة العزل وكثرة الولايات أنه لما قتل اليازوري كثر السعاة في الوزارة فما هو إلا أن يستخدم الوزير فيجعل نصب الأعين وتركب عليه المناصب ويكثر الطعن عليه حتى يعزل ولم تطل مدته ولا اتسع وقته فيلي بعده من يتفق له مثل ذلك لمخالطة الناس الخليفة ومداخلتهم الرقاع والمكاتبات الكثيرة إليه وكان لا ينكر على أحد مكاتبته.

فأحب الناس مخالطة الخليفة وجعلوه سوقا لهم فتقدم كل سفساف وحظي أوغاد عدة وكثروا حتى كانت رقاعهم أوقع من رقاع الصدور والرؤساء والجلة وتنقلوا في المكاتبة إلى كل فن حتى إنه كان يصل إلى المستنصر في كل يوم ثمانمائة رقعة فتشابهت عليه الأمور وتناقضت الأحوال.

ووقع الاختلاف بين عبيد الدولة وضعفت قوى الوزراء عن التدبير لقصر مدة كل منهم فإن الوزير منذ يخلع عليه ويستقر إلى أن ينصرف لا يفيق من التحرر فمن ابتغى به يؤذيه عند الخليفة وسعت عليه الرجال فما يصير فيه فضل عن الدفاع عن نفسه.

فخربت الأعمال وقل ارتفاعها وتقلب الرجال على معظمها واستنضوا راخي ارتفاعها فاتضع الارتفاع وعظمت النفقات.

ووقع اصطراع الأضداد على السلطان وواصلوه باقتضاء مالهم من المقررات ولازموا بابه ومنعوه من لذاته.

وتجرءوا على الوزراء واستخفوا بهم وجعلوهم غرضا لمساءتهم فكانت الفترات بعد صرف من ينصرف منهم أطول من مدة نظر أحدهم والمستنصر يوسعهم حلماً واحتمالا.

فأطغى الرجال ذلك وجرأهم عليه حتى خرجوا من طلب واجباتهم إلى التصارع فاستنفدوا أمواله وأخلوا منها خزائنه وأحوجوه إلى بيع ما عنده من العروض فكان يخرجها لهم لتباع ويشتريها الناس فيعترضونها ويأخذ من له درهم واحد ما يساوي عشرة ولا يمكن مطالبته.

ثم عادوا إلى تقويم ما يخرج فإذا حضر المقومون أخافوهم فيقومون ما يساوي ألفاً بمائة فما دونها ولا يتمكن الخليفة من استيفاء ذلك فتلاشت الأمور واضمحل الملك.

ثم لما علموا أنه لم يبق ما يخرج لهم تقاسموا الأعمال وتشاحنوا على ما زاد من الارتفاع وكانوا يتنقلون فيها بحكم غلبة من يغلب صاحبه عليها.

ودام ذلك بينهم سنوات نحواً من ست ثم قصر النيل وغلت الأسعار غلاءً بدد شمل الناس بأسرهم وفرق ألفتهم وشتت كلمتهم وأوقع العداوة والبغضاء بينهم فقتل بعضهم بعضا حتى ناء عصب الإقليم وعفت آثاره كما ستقف عليه فيما يأتي إن شاء الله.

وفيها اصطلح معز الدولة وابن أخيه محمود بن شبل الدولة ودخل حلب في رابع عشري ربيع الأول.

فلما كان يوم الجمعة لسبع بقين من ذي القعدة توفي ودفن بالقلعة بعد أن حاصر ابن أخيه وفيها مات بمصر مؤتمن الدولة أبو طاهر مسلم بن علي بن ثعلب فكتب أبو محمد بن سعد الشاعر الخفاجي من القسطنطينية إلى أهله بحلب يرثيه من أبيات: أتاني وعرض الرمل بيني وبينه حديث لأسرار الدموع مذيع ومات المعز بن باديس وملك بعده ابنه تميم فطمع أصحاب البلاد بسبب العرب وتغلبهم على بلاد إفريقية.

سنة أربع وخمسين وأربعمائة

في ثالث المحرم توفي أبو محمد عبد الكريم بن عبد الحاكم في وزارته.

وكان أبوه قاضي طرابلس فانتقل أبو محمد إلى مصر وكان فاضلا فردت الوزارة بعده إلى أخيه أبي علي أحمد بن عبد الحاكم بن سعيد.

ثم صرف عن القضاء في صفر بأبي القاسم عبد الحاكم بن وهيب بن عبد الرحمن ثم صرف أبو علي عن الوزارة واستخدم سديد الدولة أبو عبد الله الحسين بن سديد الدولة ذي الكفايتين بن أبي الحسن علي بن محمد بن الحسن ابن عيسى العقيلي وكان أولا ناظرا على دواوين الشام فأقام في الوزارة إلى شوال وصرف عنها بأبي الفرج البابلي المقدم ذكره وفيها تولى مكين الدولة بن ملهم طبرية وعكا وإمرة بني سليم وبني فزارة فسار إليها وتسلمها الفتنة التي خربت مصر ذكر ابتداء الفتنة التي آلت إلى خراب ديار مصر وفي هذه السنة ابتدأت الفتنة التي كانت سبباً لخراب الإقليم.

وذلك أن المستنصر كان من عادته في كل سنة أن يركب على النجب ومعه النساء والحشم إلى جب عميرة وهو موضع نزهة ويغير هيئته كأنه خارج يريد الحج على سبيل الهزر والمجانة ومعه الخمر محمول في الروايا عوضاً عن الماء ويدور به سقاته عليه وعلى من معه كأنه بطريق الحجاز أو كأنه ماء زمزم.

وقد أنشد الشريف أبو الحسين علي بن الحسين بن حيدرة العقيلي المستنصر في ذلك صبيحة يوم عرفة: قم فانحر الرّاح يوم النحر بالماء ولا تضحّ ضحىً إلا بصهباء وادرك حجيج النّدامى قبل نفرهم إلى منىّ فصفّهم مع كل هيفاء وعج على مكة الروحاء مبتكرا فطف بها حول ركن العود والنّاء فلما كان في جمادى الآخرة خرج على عادته واتفق أن بعض الأتراك جرد سيفا في سكرة منه على بعض عبيد الشراء فاجتمع عليه عدة من العبيد وقتلوه.

فغضب لذلك جماعة الأتراك واجتمعوا بأسرهم ودخلوا على المستنصر وقالوا إن كان هذا الذي قتل منا على رضاك فالسمع والطاعة وإن كان قتله عن غير رضا أمير المؤمنين فلا صبر لنا على ذلك وأنكر المستنصر أن قتله برضاه أو أمره فخرج الأتراك واشتدوا على العبيد يريدون محاربتهم فبرزت العبيد إليهم وكانت بين الفريقين حروب بناحية كوم شريك قتل فيها عدة وانهزم العبيد وقويت الأتراك هذا والسيدة أم المستنصر تمد العبيد بالأموال والسلاح.

فاتفق في بعض الأيام أن بعض الأتراك وقف على شيء مما تبعث به أم المستنصر إلى العبيد لتعينهم به على محاربة الأتراك فأنكر ذلك وأعلم أصحابه فاجتمعوا وصاروا إلى المستنصر وتجرءوا عليه بالقول وأغلظوا في المخاطبة فأنكر أن يكون عنده من ذلك خبر وصار السيف قائماً.

فدخل على أمه وأنكر عليها ما تعتمده من تقوية العبيد وإعانتهم على محارة الأتراك.

ثم انتدب أبا الفرج ابن المغربي الذي كان وزيرا فخرج ولم يزل يسعى بين الأتراك والعبيد حتى أوقع الصلح بين الفريقين.

فاجتمع العبيد وساروا إلى ناحية شبرا دمنهور.

فكانت هذه الكائنة أول الاختلاف بين طوائف العسكر.

وكانت السبب في كثرة السودان بالقصر أن أم المستنصر كانت جارية سوداء قدم بها أبو سعيد التستري المقدم ذكره فأخذها منه الظاهر واستولدها المستنصر.

فلما أفضت الخلافة إلى ابنها المستنصر ومات الوزير صفي الدين الجرجرائي في سنة ست وثلاثين وأربعمائة استطالت أم المستنصر وقويت شوكتها وتحكمت في الدولة واستوزرت مولاها أبا سعيد.

وتوقفت أحوال الوزير الفلاحي معه فاستمال الأتراك وزاد في واجباتهم حتى قتلوا أبا سعيد فحنقت أم المستنصر من قته على الفلاحي ولم تزل به حتى كان من أمره ما تقدم ذكره.

وأخذت في شراء العبيد السود وجعلتهم طائفة لها واستكثرت منهم وخصتهم بالنظر وبسطت لهم في الرزق ووسعت عليهم حتى أمطرتهم بالنعم وسار العبد بمصر بحكم حكم الولاة.

وشرعت تغض من الأتراك وتظهر كراهتهم وانتقاصهم.

وتقدمت إلى الوزير أبي البركات الجرجرائي أن يغري العبيد بالأتراك ويوقع بينهم فخاف سوء العاقبة في ذلك ولم يوافقها عليه فلم تزل به حتى صرف من الوزارة.

واستقر وزيرها أبو محمد اليازوري في الوزارة فأوعزت إليه بذلك فساس الأمور سياسة جميلة إلى أن انقضت أيامه.

ووزر البابلي فأمرته بذلك فشرع فيه.

وتغيرت النيات وصارت قلوب كل من الطائفتين تضمر السوء للأخرى حتى كان من الحرب ما قد ذكر ولم يزل ذلك حتى خرب الإقليم كله وهلك أهله كما سيأتي.

وفيها توفي الشريف أبو الحسن إبراهيم بن العباس بن الحسن بن الحسين بن علي بن محمد بن علي بن إسماعيل بن جعفر الصادق وكان قد ولي قضاء دمشق مرتين.

وفي سابع عشر ذي القعدة توفى القاضي الفقيه أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكمول بن إبراهيم بن محمد بن مسلم القضاعي وكان يخلف القضاة في الحكم بمصر.

وكان إماماً محدثاً وله كتاب الشهاب وكتاب الخطط وكتاب أنباء الأنبياء وغير ذلك من المصنفات.

وفيها توفى الرئيس أبو الحسن علي بن رضوان بن علي بن جعفر الطبيب.

وتوفي المعز بن باديس بالقيروان في رابع شعبان.

سنة خمس وخمسين وأربعمائة

فيها ردت الوزارة والحكم معاً إلى أبي علي أحمد بن قاضي القضاة عبد الكريم بن عبد الحاكم في ثالث عشر المحرم ثم صرف عنهما في سابع صفر وأعيدت الوزارة لأبي الفضل عبد الله بن يحيى بن المدبر والحكم إلى أبي القاسم عبد الحاكم بن وهيب.

وفي تاسع عشر جمادى الأولى توفي الوزير أبو المفضل عبد الله بن المدبر وقد تكررت ولايته للوزارة وسمع الحديث وكان فاضلاً أديباً وهو من ولد ابن المدبر متولي خراج مصر في أيام ابن طولون.

واستقر في الوزارة أبو غالب عبد الطاهر بن الفضل بن الموفق في الدين المعروف بابن العجمي ثم صرف وقبض عليه في السابع والعشرين من شعبان.

وأعيد إلى القضاء والوزارة جميعاً أبو محمد الحسن بن مجلي بن أسد بن أبي كدينة واستمر فيهما إلى خامس ذي الحجة فرتب مكانه جلال الملك أحمد بن عبد الكريم ابن عبد الحاكم بن سعيد فاستخلف أخاه أبا الحسن عليا على القضاء.

وفيها ندب أمير الجيوش بدر الجمالي لولاية دمشق وندب معه على الخراج الشريف أبو الحسن يحيى بن زيد الحسني الزيدي.

وفيها قدم الصليحي مكة بعد ما ملك اليمن كله سهله وجبله وبره وبحره وأقام بها وبمكة دعوة المستنصر وكسا الكعبة حريراً أبيض ورد حلية البيت

إليه وكان بنو حسن قد أخذوها ومضوا بها إلى اليمن فاشتراها منهم وأعادها في هذه السنة.

واستخلف على مكة محمد بن أبي هاشم وعاد إلى اليمن.

سنة ست وخمسين وأربعمائة

في ثالث عشري المحرم صرف أحمد بن عبد الحاكم عن القضاء والوزارة.

وتقلد الوزارة أبو المكارم المشرف بن أسعد بن مقبل وفوض قضاء القضاء لأبي محمد الحسن بن مجلى بن أبي كدينة ثم صرف وأعيدت الوزارة لأبي غالب عبد الطاهر بن الفضل وفوض القضاء لأبي الحسن علي بن عبد الحاكم في سابع عشري ربيع الآخر ثم صرف عن القضاء في خامس جمادى الأولى بأبي القاسم عبد الحاكم بن وهيب.

ثم صرف أبو غالب عن الوزارة واستدعى أبو البركات حسين بن عماد الدولة الجرجرائي من صور فحضر إلى مصر ووليها في مستهل رجب فأقام إلى العشر الأخر من رمضان وصرف عنها وصرف أيضاً عن القضاء عبد الحاكم.

وجمعا معاً الوزارة والقضاء لابن أبي كدينة فباشرهما إلى رابع ذي الحجة فصرف عن الوزارة وقرر فيها أبو علي الحسن بن أبي سعيد التستري وقرر في القضاء أحمد بن عبد الحاكم.

وفيها فارق أمير الجيوش بدر ولاية دمشق فراراً من أهلها لثورتهم به فقرر المستنصر بدله الأمير حصن الدولة أبا الحسن معلى بن حيدرة بن منزو بن النعمان الكناني.

وفيها قتل قطلمش بن إسرائيل بن سلجوق صاحب قونية وأقصرا فقام بعده ابنه سليمان ابن قطلمش وفتح أنطاكية.

سنة سبع وخمسين وأربعمائة

في النصف من المحرم صرف عن الوزارة أبو علي بن أبي سعيد وصرف عن القضاء أبو أحمد بن عبد الحاكم.

وتولى الوزارة أبو شجاع محمد بن الأشرف بن أبي غالب محمد ابن علي بن خلف وكان أبوه أحد وزراء بني بويه ببغداد ثم صرف عنها ثاني يوم واستقر في القضاء والوزارة جميعا أبو محمد بن أبي كدينة في حادي عشريه فلم يقم غير أربعة أيام وصرف عنها في سادس عشريه.

وأعيد أبو شجاع محمد بن الأشرف إلى الوزارة وتقلد القضاء جلال الملك أبو أحمد بن عبد الكريم.

فأقام ابن الأشرف في الوزارة إلى نصف ربيع الأول وصرف وقرر في الوزارة سديد الدولة أبو القاسم هبة الله بن محمد الرعباني الرحبي ثم صرف في آخره.

واستوزر ابن أبي كدينة وأضيف إليه القضاء أيضاً في نصف جمادى الآخرة فباشرهما إلى نصف رجب وصرف عن الوزارة بأبي المكارم رئيس الرؤساء الشرف بن أسعد وعن القضاء بعبد الحاكم بن وهيب.

ثم قبض على الوزير أبي المكارم في العشر الأخير من شوال وتولى الوزارة بعده الأثير أبو الحسن علي بن الأنباري فأقام شهراً وصرف في ذي الحجة عن الوزارة ولم يعد إليها.

سنة ثمان وخمسين وأربعمائة

في سادس عشرين منه صرف ابن أبي كدينة عن القضاء واستقر عوضه جلال الملك أبو أحمد ونعت بقاضي القضاة الأعظم.

وفي تاسع ربيع الآخر أعيد إلى الوزارة أبو القاسم هبة الله محمد وفي جمادى الأولى ولي المستنصر أمير الجيوش بدراً الشام بأسره فخرج إليها بعد ما أنفق عليه ألف ألف دينار.

وفي جمادى الآخرة جمع القضاء والوزارة لأبي أحمد جلال الملك ثم صرف بعد أيام عن الوزارة بأبي الحسن طاهر بن وزير فباشر أياماً يسيرةً وصرف بأبي عبد الله محمد بن حامد التنيسي وأقام يوماً واحداً ثم صرف وقتل.

فاستوزر أبو سعد منصور بن زنبور فلم يقم في الوزارة غير أيام قليلة وهرب فأقيم بعده أبو العلاء عبد الغني بن نصر بن سعيد الضيف فباشر أياما يسيرة وصرف.

وكان دخول أمير الجيوش إلى دمشق في سادس شعبان وبلغ ما بلغت نفقة المستنصر عليه ألف ألف دينار.

سنة تسع وخمسين وأربعمائة

فيها قويت شوكة الأتراك واشتد بأسهم وطلبوا الزيادات في واجباتهم ورواتبهم وساءت أحوال العبيد وكثر ضررهم وهم يتزايدون حتى صار منهم بالقاهرة ومصر وما في ظواهرهما من القرى نحو الخمسين ألف عبد ما بين فارس وراجل.

وخلت خزائن أموال المستنصر وضعفت الدولة.

فبعثت السيدة أم الخليفة المستنصر إلى قواد العبيد تغريهم بالأتراك وتحثهم على الإيقاع بهم ومحاربتهم وإخراجهم من مصر فجمع قواد العبيد وحشدوا طوائفهم وصاروا إلى شبرا دمنهور وساروا إلى الجيزة فخرج إليهم الأتراك يريدون محاربتهم وقد بلغت النفقة في تعديتهم إلى الجيزة ألف ألف دينار.

فالتقى الفريقان وكانت بينها حروب انجلت عن كسرة السودان وهزيمتهم إلى الصعيد.

وكان مقدم طوائف الأتراك يومئذ ناصر الدولة أبو علي الحسن بن الأمير أبي الهيجاء ابن حمدان فرجع بالأتراك إلى القاهرة وقد قويت نفسه وعظم قدره واشتدت شوكته وثقلت وطأته.

وتلاحق العبيد بعضهم ببعض واجتمعوا في بلاد الصعيد وهم في عدد يتجاوز الخمسة عشر ألف ما بين فارس وراجل فساء ذلك الأتراك وأقلقهم فصار أكابرهم إلى المستنصر وشكوا إليه أمر العبيد.

فأمرت أم المستنصر جماعة ممن كان عندها من العبيد أن يقتحموا على الأتراك فهاجموهم على حين غفلة وقتلوا منهم جماعة.

ففر ابن حمدان حينئذ إلى ظاهر القاهرة وتسارع إليه الأتراك وقد استعدوا لمحاربة العبيد فخرج إليهم عدة من العبيد الذين كانا بالقاهرة ومصر.

فكانت بين الطائفتين حروب شديدة مدة أيام فحلف منذ ذلك ابن حمدان أنه لا ينزل عن فرسه حتى ينفصل إما له أو عليه.

وثبت كل منهما فكانت الكرة لابن حمدان على العبيد فوضع السيف فيهم وتجاوز الحد في كثرة قتلهم وتتبعهم في كل مكان حتى لم يدع في القاهرة ومصر منهم إلا قليلا وهم مقيمون بالصعيد والاسكندرية.

فرأى ابن حمدان أن يبدأ محاربة من في الاسكندرية منهم فسار إليها ونازلها مدة وحصر العبيد بها وألح في مقاتلتهم حتى طلبوا منه الأمان فأقام على ولايتها رجلاً من ثقاته.

وانقضت هذه السنة كلها في قتال العبيد والأتراك.

وفي يوم عيد الفطر أفرج عن حميد بن محمود بن الجراح وحازم بن علي بن الجراح الطائيين من خزانة البنود بعد ما أقاما محبوسين مدة طويلة.

وفيها قطعت دعوة المستنصر من اليمن بقتل الصليحي وأعيدت دعوة بني العباس.

وأما الوزراء فإن ابن أبي كدينة صرف في ثامن المحرم وولى أبو القاسم عبد الحاكم المليحي فأقام إلى سابع جمادى الآخرة وصرف وأعيد ابن أبي كدينة فأقام أياماً وصرف وأعيد المليحي فلم يقم سوى ليالي يسيرة وصرف وأعيد ابن أبي كدينة فأقام إلى ثامن عشري ذي القعدة وصرف بجلال الملك بن عبد الحاكم.

وفيها قتل فتوح الشامي أحد قواد العبيد وكان المنفق حين قتل خمسمائة ألف دينار.

سنة ستين وأربعمائة

في المحرم خرج الأتراك مبرزين إلى الرملة حين قتل شهاب الدولة وقد بلغت نفقه المستنصر فيهم ألف ألف دينار.

وفيه اشتد البلاء على المستنصر بقوة الأتراك عليه وطمعهم فيه فانخرق ناموسه وتناقصت حرمته وقلت مهابته وتعنتوا به في زيادة واجباتهم.

وكانت مقرراتهم في كل شهر ثمانية وعشرين ألف دينار فبلغت في هذه السنة إلى أربعمائة ألف دينار في كل شهر فطالبوا المستنصر بالأموال.

وركب ناصر الدولة الحسين بن حمدان ومعه جماعة من قواد الأتراك وحصروا المستنصر وأخذوا جميع الأموال ثم اقتسموا الأعمال وركبوا إلى دار الوزير ابن أبي كدينة يريدون الأموال فقال: وأي مال بقى الريف في يد فلان والصعيد في يد فلان والشام في يد فلان.

فقالوا: لا بد أن تنفذ إلى مولانا وتطلب منه وتعلمه بحضورنا.

فكتب الوزير إلى المستنصر رقعة يذكر فيها حضورهم بألقابهم وما يطلبون فخرجت الرقعة بخط المستنصر فيها مكتوب: أصبحت لا أرجو ولا أتّقي إلا إلهي وله الفضل جدّي نبيّي وإمامي أبي وقولي التوحيد والعدل المال إلى الله والعبد عبد الله والإعطاء خير من المنع.

" وسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُون ".

واعتذر بأنه لم يبق عنده شيء.

فاضطروه إلى إخراج ذخائره وذخائر آبائه وبيعها فأخذ يخرج ذلك شيئا بعد شيء وهم يأخذونها لأنفسهم بأيديهم ويثمنونها بأقل القيم وأبخس الأثمان.

وسار ابن حمدان بجماعة الأتراك إلى الصعيد يريد محاربة العبيد وكان قد كثر شرهم وتزايد ضررهم وعم الكافة أذاهم وإفسادهم فاجتمعوا لحربه واستعدوا للغاية.

فسار إليهم في شهر رمضان وقد بلغت النفقة عليه وعلى من معه ألف ألف دينار وكانت بينهما حروب عظيمة ووقائع عديدة انجلت عن كسرة الأتراك وهزيمتهم إلى الجيزة.

فتلاقى بعضهم ببعض وصاروا يداً واحدة على المستنصر وألبوا عليه واتهموه بأنه بعث إلى العبيد بالأموال في السر ليقويهم على محاربة الأتراك وجهروا له بالسوء من القول فقال لهم إنه لم يبعث إليهم بشيء ولا أمدهم بمعونة.

وأخذ الأتراك في لم شعثهم والتأهب لمحاربة العبيد حتى تهيأ أمرهم بعد أن أنفق المستنصر فيهم عوضا عما نهب السودان لهم وضاع من أموالهم ألف ألف دينار.

وساروا إلى قتالهم مرة ثانية فالتقوا بهم وصابروهم القتال ووالوا عليهم الكرات حتى انهزم العبيد منهم وقتل كثر من أعدادهم بحيث لم ينج منهم إلا القليل وزالت حينئذ دولتهم.

وعظم أمر ناصر الدولة واستبد بالأمور فصرف ابن أبي كدينة من الوزارة وأعاد المليجي فلم يبق غير خمسة وصرف: وأعيد ابن أبي كدينة وجمع له بين الوزارة والقضاء معاً في ربيع الأول فأقام فيهما إلى جمادى الأولى وصرف عن القضاء بجلال الملك فأقيم في منصب القضاء إلى سلخ رمضان فصرف عن القضاء بالمليجي.

فأقام المليجي قاضيا إلى يوم عيد النحر وصرف وتولى ابن أبي كدينة.

وفيها كانت بدمشق حروب بين أمير الجيوش بدر وبين عسكريته فكانت الحروب طول السنة في بلاد الشام وديار مصر قائمة لا تهدأ.

وسار الأمير قطب الدولة باز طغان إلى ولاية دمشق ومعه أبو الطاهر حيدرة بن مختص الدولة أبي الحسين ناظراً في أعمالها.

وفيها زلزلت مصر زلزلةً عظيمة حتى طلع الماء من الآبار وهلك عالم عظيم تحت الردم.

وزال البحر بفلسطين من الزلازل وبعد عن الساحل مسيرة يوم ثم رجع فوق عالم كبير خرجوا يلتقطون من أرضه.

وخربت الرملة خراباً لم تعمر بعده.

وفيها أنفق في غير استحقاق لمدة خمسة عشر شهراً أولها عاشر صفر سنة ستين مبلغ ثلاثين ألف ألف دينار.

فيها قوى تغلب المارقين على المستنصر واستباحوا ما وجدوا في بيوت أمواله واشتدت مطالباتهم بالواجبات المقررة لهم وسألوا الزيادات في الرسوم.

واقتسم مقدموهم دور المكوس والجبايات وتغلب كل من بقي منهم على ناحية ولم يبق للدولة ارتفاع يعول عليه ولا مال في القياصر يرجع إليه.

وأخرج من الذخائر مالا شوهد فيما بعده من الدول مثله نفاسةً وغرابة وجلالةً وكثرة وحسنا وملاحة وجودة وسناء قيمة وعلو ثمن ونقل منه التجار إلى الأمصار شيئا كثيراً سوى ما أحرق بالنار بعد ما امتلأت قياسر مصر وأسواقها من الأمتعة المخرجة من القصر المبيعة على الناس التي أنفق منها في أعطيات الأتراك وغيرهم لسنة ستين وأربعمائة.

فأهلت سنة إحدى وستين هذه وقد اشتد الخوف بمصر وكثر التشليح في الطرقات نهاراً والخطف والقتل.

وصار الجند فرقتين فرقة مع الخليفة المستنصر وفرقة عليه.

وذلك أن الوحشة ابتدأت بين الأتراك وبين ناصر الدولة ابن حمدان لقوة بأسه وتفرده بالأمور دونهم واستبداده بالدولة عليهم فنافسوه وحسدوه وصاروا إلى الوزير خطير الملك وقالوا له: كل ما خرج من الخليفة من مال أخذه ناصر الدولة وتفرق أكثره في حاشيته ولا ينالنا منه إلا الشيء القليل.

فقال لهم إنما وصل ناصر الدولة إلى هذا وغيره مما هو فيه بكم ولولا أنتم لما كان له من الأمر شيء ولو أنكم فارقتموه لا نحل أمره.

واتفقوا على أن يكونوا جميعا عليه ويحاربوا حتى يظفروا به ويخرجوه من مصر.

ودخلوا إلى الخليفة المستنصر وسألوه أن يبعث إلى ناصر الدولة بالخروج من البلاد وتهديده إن لم يخرج فبعث إليه يأمره بالخروج عن بلاده فسارع إلى الخروج عن القاهرة ونزل بالجيزة.

فامتدت الأيدي عند خروجه إلى دوره ودور حواشيه وأصحابه وانتهبتها وأفسدتها.

فلما كان في الليلة التي خرج قبلها دخل في خفاء واجتمع بالقائد تاج الملوك شادي وترامي عليه وقبل رجله وقال له: اصطنعني وانصرني على الوزير الخطير وعلى إلدكز بأن تركب أنت وأصحابك وتسير بين القصرين فإذا أمكنتك الفرصة فاقتلهما فوافقه على ذلك وأجابه إليه ورجع ناصر الدولة إلى مخيمه بالجيزة.

فلما طلع النهار شرع تاج الملوك في عمل ما تقرر بينه وبين ناصر الدولة فأحس إلدكز بالمكيدة فسارع إلى اللحوق بالقصر واستجار بالمستنصر.

وأقبل الوزير في موكبه وليس له شعور بما بيت في الليل فصادفه تاج الملوك على غرة منه فأوقع به وقتله وسير في الحال إلى ناصر الدولة فحضر.

وحسن إلدكز للمستنصر أن يركب لمحاربة ناصر الدولة فلبس سلاحه وألبس من معه وركب ونزل فصار معه من الجند والعامة ما لا يحصى عددهم كثرة.

ووقف ناصر الدولة بمن معه ونشبت الحرب بينهما فكانت الكسرة على ناصر الدولة فانهزم وقد قتل كثير من أصحابه فمر على وجهه لا يلوى على شيء في يسير من أصحابه حتى انتهى إلى بني سنبس بالبحيرة فنزل عليهم وأقام فيهم واستجارهم وتزوج منهم.

واشتد الغلاء بمصر وقلت الأقوات في الأعمال وعظم الفساد والضرر وكثر الجوع حتى أكل الناس الجيف والميتات ووقفوا في الطرقات يخطفون من يمر من الناس فيسلبونه ما عليه مع ما نزل بالناس من الحروب والفتن التي هلك فيها من الخلق ما لا يحصيهم إلا خالقهم.

وخاف الناس من النهب فعاد التجار إلى ما ابتاعوه من المخرج من القصر يحرقونه بالنار ليخلص لهم ما فيه من الذهب والفضة.

فحرقوا من الثياب المنسوجة بالذهب والأمتعة من الستور والكلل والفرش والمظال والبنود والعماريات والمنجوقات والأجلة ومن السروج الذهب والفضة والآلات المجراة بالميناء والمرصعة بالجوهر شيء لا يمكن وصفه مما عمل في دول الإسلام وغيرها.

وفي سادس صفر وهب لسعد الدولة المعروف بسلام عليك ما في خزانة البنود من الآلات والأمتعة وغيرها فوجد فيها ألفا وتسعمائة درقة لمطية سوى ما كان فيها من آلات الحرب والقضب الفضة والذهب والبنود فسقطت شرارة فيما هنالك فاحترق جميعه وكانت لذلك غلبة وخوف شدائد.

فمما احترق فيها عشرات ألوف من السيوف إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة بحيث إن السلطان بعد ذلك بمدة احتاج إلى سلاح فأخرج من خزانة واحدة مما بقى وسلم من الحريق خمسة عشر ألف سيف مجوهرة سوى غيرها.

وأخرج من القصر صندوق كيل منه سبعة أمداد زمرد ذكر الجوهري أن قيمتها على الأقل ثلثمائة ألف دينار.

وكان في المجلس فخر العرب ابن حمدان وابن سنان وأبو محمد الحسن بن علي بن أسد بن أبي كدينة وغيرهم من المخالفين فقال بعضهم لمن أحضر من الجوهريين: كم قيمة هذا فقالوا إنما تعرف قيمة الشيء إذا كان مثله موجوداً ومثل هذا لا قيمة له.

فاغتاظ وقال ابن أبي كدينة: فخر العرب كثير المؤونة وعليه خرج والتفت إلى كتاب الجيش فقالوا: يحسب عليه بخمسمائة دينار فكتب بذلك وقبضه.

وأخرج عقد جوهر قيمته على الأقل ثمانون ألف دينار فكتب بألفي دينار وتشاغل الحاضرون بنظر ما سواه فانقطع سلكه وتناثر حبه فأخذ واحد حبة فجعلها في جيبه وأخذ ابن أبي كدينة حبة وأخذ فخر العرب شيئاً وتفرق الباقون سائره فذهب كأن لم يكن.

وأخرج ما أنفذه الصليحي من نفيس الدر وكيل فجاء سبع ويبات.

وأخرج ألفان ومائتا خاتم ما بين ذهب وفضة بفصوص من بين سائر أنواع الجواهر مما كان للخلفاء شوهد منها ثلاثة خواتيم من ذهب أحدها فصه زمرد واثنان ياقوت غشيم صاف ورماني كان شراء الفصوص اثني عشر ألف دينار.

وأخرج من خزائن القصر ما يزيد على خمسين ألف قطعة من الثياب الخسروانية وقال ابن عبد العزيز أخرج من الخزائن على يدي أكثر من مائة ألف قطعة ولما اشتد على المستنصر أمر الأتراك وطالبوه بجراياتهم بعث إلى العميد ابن أبي سعد في إحضار جوهر كان عنده فأحضر خريطة فيها نحو من ويبة فأحضر أرباب الخبرة من الجوهريين ليقوموه فذكروا أنه لا قيمة له ولا يشتري مثله إلا الملوك فقومت بعشرين ألف دينار وكان مشتراه على حده سبعمائة ألف دينار ففرق في الأتراك وقبض كل منهم جزءاً بقيمة الوقت.

وقسمت خزائن السيوف وآلات السلاح بين عشرة وهم ناصر الدولة ابن حمدان وأخواه فخر الدولة علي ويلدكوش وأمير الأمراء الحسين بن سبكتكين وسلام عليك وشاور بن حسين وتاج الملوك شادي والأعز ابن سنان ورضى الدولة بن رضي الدولة وأمير العرب ابن كيغلغ.

فكان من جملتها ذو الفقار وصمصامة عمرو بن معدي كرب وسيف عبد الله بن وهب الراسبي وسيف كافور الإخشيذي وسيف المعز لدين الله ودرع المعز وكانت تساوي ألف دينار بيعت منها كواكب بمائة دينار وسيف الحسين بن علي عليه السلام وكان وزنه ثلثمائة وستين مثقالاً وسيف الأشتر النخعي ودرقة حمزة بن عبد المطلب وسيف جعفر بن محمد الصادق.

ودخل في بعض الأيام من باب الديلم أحد أبواب القصر تاج الملوك شادي وفخر العرب علي بن ناصر الدولة ابن حمدان ورضي الدولة بن رضي الدولة وأمير الأمراء أبجتكين بن سبكتكين وأمي العرب ابن كيغلغ والأعز بن سنان وعدة من الأمراء البغداديين وصاروا في الإيوان ومعهم أحد الفراشين وفعلة فانتهوا إلى حائط مجير فأمروا الفعلة بكشف الجير فظهر باب فهدم فإذا خزانة ذكر أنها من أيام العزيزي بالله فوجدوا فيها من السلاح ما زادت قيمته على عشرين ألف دينار فحملوا جميع ذلك وتفرقوه.

وصارت حواشيهم وركابياتهم يكسرون الرماح ويتلفون أعوادها ليأخذوا المهارك الفضة.

وبيع من الرماح الخطية السمر الجياد شيء كثير مما كسره الغلمان للمغازليين وصناع موادن الغزل حتى كثر هذا الصنف بالقاهرة ولم يعترضهم أحد من أهل الدولة.

وأخذ ما في خزائن البنود ومن المحكم والمينا المجرى بالذهب والمجرود والبغدادي والمذهب والخلنج والصيني ما لا يحصى.

وأخذ أيضا ما في خزائن الفرش من البسط والستور والنفائس من الحرير وغيره ما لا يعرف له قيمة لكثرته.

وأخرج في يوم من خزائن من القصر عدة صناديق فوجد في أحدها أمثال كيزان الفقاع من صافي البللور المنقوش والمجرود شيء كثير وإذا جميعها مملوءة من ذلك وغيره.

وبيعت في تركة عماد الدولة بن الفضل من المحترق بعد قتله مما كان قد صار إليه من مخرج القصر مرتبة خسروانية حمراء بثلاثة آلاف وخمسمائة دينار ومرتبة قلمونية بألفين وأربعمائة دينار وثلاثون سندسية كل واحدة بثلاثين ديناراً وقدح بللور بمائتين وعشرين ديناراً وخردادي بللور بثلثمائة وستين دينارا وكوز بللور بمائتين وعشرة دنانير وكلة بثمانمائة دينار وعدة صحون ميناء بيع كل منها بمائة دينار فما دونها.

وخرج من القصر خردادي وباطية من بللور في غاية النقاء وحسن الصنعة مكتوب عليهما اسم العزيز تسع الباطية سبعة أرطال ماء ويسع الخردادي تسعة أرطال دفع فيهما ابن عمار بطرابلس ثمانمائة دينار فامتنع صاحبهما.

وقال المعتمد أبو سعد النهاوندي أحد الأمناء وحده دون غيره من أمناء القصر مما أخرج بيع ثماني عشرة ألف فقعة بللور ومحكم منها يساوي الألف دينار وإلى عشرة دنانير ونيف وعشرون ألف قطعة خسروانية إلى غير ذلك من الفرش والتعاليق ما بين مذهبة وغير مذهبة.

وبيع في مدة خمسة عشر شهراً أولها عاشر صفر سنة ستين وأربعمائة سوى ما نهب وسرق مما خرج من القصر ما تحصل من ثمنه ثلاثون ألف ألف دينار على أنه بيع بأقل القيم وأنزر الأثمان وقبض الجند والأتراك جميعها من غير أن يستحق أحد منهم درهماً واحداً منها.

ودخلوا إلى خزانة الرفوف وكانت خزانة عظيمة بالقصر من جملة خزائن الفرش فيها رفوف كبيرة بعضها فوق بعض ولكل منها سلم منفرد فأخرجوا منها ألفي عدل شققاً طميما بهدبها من سائر أنواع الخسرواني وغيره لم تستعمل وكلها مذهب معمول بسائر الأشكال والصور.

وجد في عدل منها أجلة للفيلة من خسرواني أحمر مذهب كأحسن ما يكون وموضع نزول أفخاذ الفيال ورجليه سارج بغير ذهب.

وأخرج من بعض الخزائن ثلاثة آلاف قطعة من خسرواني أحمر مطرز بأبيض لم تفصل برسم كسوة البيوت كل بيت منها كامل بجميع آلاته ومسانده ومخاده ومراتبه وبسطه وعتبه ومقاطعه وستوره وجميع ما يحتاج إليه فيه.

وأخرج من الحصر السامانية المطرزة بالذهب والفضة وغير المطرزة مما هي مجومة ومطيرة وطفيلة ومصورة بسائر الصور ما لا يحصى كثرة.

وأخرج من صواني الذهب المجراة بالميناء وغير المجراة المنقوشة بسائر أنواع النقوش المملوء جميعها جواهر من سائر أنواعه شيء كثير جدا ونيف وعشرون ألف قطعة طميم من سائر الأمتعة.

والتمس بعض الأتراك من المستنصر مقرمة سندس أخضر مذهبة اقتراحا عليه لعدمها وقلة وجود مثلها فأخرج منها عدل كان العدد المكتوب عليه مائة وثمانية وثمانين من جملة أعداد أعدال فيها من المتاع.

وأخرج في يوم صناديق سروج محلاة بفضة وجد فيها صندوق مكتوب عليه: الثامن والتسعون والثلثمائة وعدة ما فيها زيادة على أربعة آلاف سرج.

ووجد غلف خيزران مبطنة بالحرير محلاة بالذهب خالية من الأواني كانت تسعة عشر ألف غلاف كان في كل غلاف قطعة من ووجود مائة كأن بازهر على أكثرها اسم هارون الرشيد ووجد ستور حريرية منسوجة بالذهب تقارب الألف مختلفة الألوان والأطوال فيها صور الدول وملوكها والمشاهير فيها مكتوب على صورة كل واحد منهم اسمه ومدة أيامه وشرح حاله.

ووجد في خزانة عدة صناديق كثيرة مملوءة سكاكين مذهبة ومفضضة بنسب مختلفة من سائر الجواهر.

ووجد عدة صناديق كبيرة مملوءة من أنواع الدوى المربعة والمدورة والصغار والكبار المعمولة من الذهب والفضة والصندل والعود والأبنوس والعاج وسائر أنواع الخشب المحلاة بالجوهر والفضة والذهب وسائر أنواع الحلى الغريبة والصنعة المعجزة الدقيقة بجميع آلاتها فيها ما يساوي الألف دينار وما فوقها سوى ما عليها من الجواهر وصناديق مملوءة مشارب ذهباً وفضة محرقة بالسواد صغاراً وكباراً بأحسن ما يكون من الصناعة.

وصناديق مملوءة أقلاماً مبرية من سائر أنواع القصب فيها ما هو من براية أبي علي محمد ابن مقلة وابن البواب ومن يجري مجراهما وعدة مصاحف بخطيهما وخط نظرائهما فيها ما هو مكتوب بالذهب المكحل باللازورد.

وعدة أزيار صيني كبار مملوءة كافورا قنصوريا وعدة كبيرة من جماجم العنبر الشجري وكثير من قوارير المسك ومن شجر العود مقطعةً شيء كثير.

ووجدت عدة خزائن مملوءة من سائر أنواع الصيني منها أجاجين كبار محمولة كل إجانة منها على ثلاثة أرجل على صور الوحوش والسباع والناس والبهائم قيمة كل قطعة منها ألف دينار معمولة لغسل الثياب.

ووجدت له خزائن مملوءة من سائر أنواع الصواني المدهونة سعة كل واحدة منها من العشرة أشبار إلى ما دونها شيء في جوف شيء حتى تكون أصغرها سعة الدرهم.

ومن سائر أنواع الأطباق الخلنج الذي بهذه الصفة.

ومن الموائد الخلنج الكبار والصغار ألوف ومن موائد الكرم الجفان الجور الواسعة بمقابض الفضة التي لا يقدر الجمل القوي على حمل جفنتين منها لعظمتها منها ما يساوي المائة دينار وما فوقها.

ووجد من الدكك والمحاريب والأسرة العود والصندل والأبنوس والعاج وغيره شيء كثير.

وعدة أقفاص مملوءة من بيض صيني معمول على هيئة البيض في خامته وبياضه يعمل فيها ما في البيض اليشم سبت يوم الفصاد وكيزان من صيني صغار وكبار على خلقة كيزان الفقاع يشرب فيها الفقاع.

ووجد كثير من الأعدال مملوءة عقالاً من اليمن مما أهداه الصليحي.

وأخرجت حصير من ذهب زنتها ثمانية عشر رطلاً ذكر أنها الحصير التي جلبت عليها بوران بنت الحسن علي المأمون.

وأخرج ثمان وعشرون صينية ميناءً مجرى بالذهب لها كعوب تعلو بها عن الأرض مما بعثه ملك الروم للعزيز بالله قومت كل صينية بثلاثة آلاف دينار فأخذها كلها ناصر الدولة ابن حمدان.

ووجد عدة صناديق مملوءة مرايا حديد صيني وغيره من الزجاج الميناء ما لا يحصى كثرة وجميعها محلاة بالذهب المشبك والفضة ومنها ما هو مكلل بالجوهر في غلف الكهمخت وغيره من أنواع الحرير والخيزران كلها مضببة بالذهب والفضة ومقابض المرايا ما بين عقيق وجزع وصندل وعود وأبنوس وغيره.

وأخرج عدة أعدال من الخيام والمضارب والمنارات والخركاوات وغير ذلك من أنواع الخيام المعمولة من الدبيقي والمخمل وسائر أنواع الحرير المثقل وغير المثقل مما هو منقوش ومصور بسائر الصور العجيبة الصنعة وسائر أعمدتها مكسوة بالفضة المذهبة ولها الصفريات الفضة والحبال القطنية والحريرية.

فكان منها ما تحمل الخيمة منه على عشرين بعيراً وأكثر.

وأخرجت المدورة الكبيرة وكانت تقوم على خرط عمود طوله خمسة وستون ذراعاً بالكبير ودور مكللته عشرون ذراعاً وسعة قطرها ستة أذرع وثلثا ذراع ودور المدورة خمسمائة ذراع وعدة قطع خرقها أربع وستون قطعة كل قطعة منها تحزم في عدل وتحمل على مائة جمل وفي صفرتها ثلاثة قناطير فضة يحملها من داخلها قضبان حديد تسع راوية ماء من روايا الجمال وفي زخرفتها صور سائر الحيوانات ولها بادهنج طوله ثلاثون ذراعا.

كان عملها لليازوري في وزارته فأقام يعمل فيها مائة وخمسون صانعاً نحو تسع سنين وصرف عليها ثلاثون ألف دينار أراد بها محاكاة القاتول الذي عمله العزيز بالله فجاء أعظم منه وأحسن.

وبعث إلى متملك الروم في طلب عودين للفسطاط طول كل منهما سبعون ذراعا فأنفذهما إليه وقد بلغت النفقة عليهما حتى وصلا ألف دينار

فعمل أحدهما في الفسطاط بعد أن قطع منه خمسة أذرع وأخذ الآخر ناصر الدولة ابن حمدان لما خرج إلى الإسكندرية.

وقد قطعت هذه الخيام الكبار خرقاً وقومت على المذكورين من المارقين بأقل القيم فتمزقت وأخرج مسطح من قلمون عمل بتنيس للعزيز وسمى دار البطيخ يقوم على ستة أعمدة وفيه أربع قباب بين كل قبتين رواق يقوم كل منها على أربعة أعمدة وطول كل عمود ثمانية عشر ذراعا.

ومسطح عمله الظاهر في تنيس كله ذهب طميم بستر صفارى بللور وستة أعمدة من فضة أنفق عليها أربعة عشر ألف دينار.

إلى غير ذلك من القصور والخيام المخمل وغيره من سائر أنواع الحرير وعدة من الحمامات المعمولة من البللور والطالقاني ومن الأدم المذهبة المنقوشة بحياضها ودككها ومساطبها وقدورها وزجاجها وسائر عددها وأخرجت المدورة الكبيرة التي عملت بحلب في سني بضع وأربعين وأربعمائة فبلغت النفقة عليها ثلاثين ألف دينار وكان طول عمودها أربعين ذراعا ودور فلكه أربعة وعشرين شبرا وزنة صفرتيه قنطارين من فضة سوى أنابيب الحديد ويحملها سبعون جملا ولا ينصبها إلا نحو المائتي رجل وهو شبه القاتول العزيزي.

وأخرج من المظال وقصبها الفضة والذهب شيء له قدر جليل.

وأخرج من الصناديق والقمطرات والأدراج والموازين وغلف الأمشاط والمرايا والمداخن من الكيمخت والأبنوس والعاج وسائر الخشب والبقم المحلى جميعها بالذهب والفضة المغشاة بأغشية الأدم والحرير ما لا يحد كثرة.

ومن صناديق الطعام وخزائنه والمجامع ما لا يدركه الإحصاء لكثرته.

وأخرج من خزائن الفضة ما ينيف على ألف ألف درهم كلها آلات مصوغة مجراة بالذهب فيها ما يبلغ زنة القطعة منها خمسة آلاف درهم مما هو غريب الصنعة فبيع جميعه عشرون درهما بدينار وكانت قيمته خمسة دراهم بدينار.

وأخرج غير ذلك عشاريات موكبية وأعمدة الخيام وقصب المظال ومنجوقات وأعلام وقناديل وصناديق وبوقات وزواريق وقمطرات وسروج ولجم ومناطق العماريات وغير ذلك ما يجاوز ألف ألف فضة بيعت كما بيع غيرها.

وأخرج من الشطرنج والنرد المعمولة من أنواع الجواهر والأحجار ومن الذهب والفضة والعاج والأبنوس برقاع الحرير المذهب وغيره ما لا يحد

كثرةً ونفاسةً ومن دسوت الفصاد مثل ذلك ومن خرق المنجوقات والمطارد والمظال والأعلام ما لا يمكن وصفه لكثرته مما هو مخمل وحرير ساذج ومذهب فقطع جميع ذلك وبيع.

وأخرج مرة من خزائن السروج خمسة آلاف سرج كان أبو سعيد إبراهيم بن سهل التستري قد عملها فيها ما يساوي السرج الواحد منها سبعة آلاف دينار إلى ألف دينار شبك جميعها وفرق في الأتراك كان منها أربعة آلاف سرج برسم ركاب الخليفة.

وأخرج من خزانة السيدة أم المستنصر أربعة آلاف مثلها ودونها صنع بها مثل ذلك.

وأخذ منها آلات فضية وزنها ثلثمائة ألف وأربعون ألف درهم تساوي ستة دراهم بدينار.

وأخرج من القصر أقفاص مملوءة آلات مصوغة مجراة بالذهب معدومة المثل صنعةً وحسنا عدتها أربعمائة قفص كبار شبكت كلها في إيوان القصر وفرقت.

ومعظم ذلك كان في وزارة جلال الملك بن عبد الحاكم في هذه السنة.

كان من جملة ما في الأقفاص ستة عشر ألف قطعة برسم العواري خاصة.

وأخرج في بعض أسابيع المولد ألفان وخمسمائة إناء من فضة برسم الخيم.

وأخرج مرة عند ورود بعض رسل ملوك الروم فيما أخرج عدة كثيرة من صواني الذهب والفضة المجراة بالميناء الغريبة الصنعة ملئت كلها جوهراً فاخراً وأربعة آلاف نرجسية فضة محرقة بالذهب عمل فيها النرجس وألفا بنفسجية كذلك.

وأخرج من خزائن الطريف ستة وثلاثون ألف قطعة ما بين بللور وغيره.

وكان مبلغ ما قوم من نصب سكاكين بأقل القيم ستة وثلاثين ألف دينار.

وأخرج من تماثيل العنبر اثنان وعشرون ألف قطعة أقل تمثال منها وزنه اثنا عشر منا وأكبره يتجاوز ذلك بكثير ومن تماثيل الكافور ما لا يحد كثرة منها ثمانمائة بطيخة كافور وأخرج من خزائن الفرش أربعة آلاف رزمة خسروانية مذهبة في كل رزمة فرش مجلس ببسطه وتعاليقه وسائر آلاته.

وأخرج من خزائن الكسوات من التخوت والأسفاط والصناديق المملوءة بفاخر الملابس المستعملة بتنيس ودمياط وبرقة وصقلية وسائر أقطار الأرض ما لا يحد كثرةً ولا يعرف له قيمة.

وفي هذه السنة بعث ناصر الدولة ابن حمدان عماد الدولة المعروف بالمخنوق هو والوزير أبا محمد بن أبي كدينة إلى المستنصر يطالبه معهما بما بقي لغلمانه فذكر أنه لم يبق عنده شيء إلا ملابسه وقال فابعث من يقوم ذلك ويقبضه فأخرج إليهما ثمانمائة بذلة من ثيابه بجميع آلاتها كاملة قومت وحملت إليه في حادي عشر صفر.

وفيها وهب المستنصر لفخر العرب وتاج الملوك الكلوتة المرصعة بالجوهر وكانت من غريب ما في القصر ونفيسه وكانت قيمتها مائة وثلاثين ألف دينار وقومت عليهما بثمانين ألف دينار وقسمت بينهما بالسوية فجاء وزن ما فيها من الجوهر سبعة عشر رطلا بالمصري.

فصار إلى فخر العرب من جملة ما وقع في سهمه منها قطعة بلخش زنتها ثلاثة وعشرون مثقالا فأنفذها مع باقي ما حصل له منها إلى الفخرية وكانت بثغر الإسكندرية فحملت بعد ذلك إلى تنيس مع غيره من رجالاتهم فصار جميعه عند أمير الجيوش بالشام.

وصار إلى تاج الملوك منها حبات در زنة كل حبة ثلاثة مثاقيل وعدتها مائة حبة فلما انهزم من مصر أخذها بعض غلمانه مع غيرها من نفيس الجوهر وهرب إلى الصعيد فقتل وأخذ منه.

وأخرج من خزائن الطيب مما أخرج خمسة صواري عود هندي طول كل واحد منها ما بين تسعة أذرع إلى عشرة أذرع وكافور قنصوري زنة كل حصاة منه من خمسة مثاقيل إلى ما دونها وقطع عنبر تزن القطعة ثلاثة آلاف مثقال فوهب ذلك لناصر الدولة فحاز منه ما لا حد له ولا قيمة.

وحمل إليه من القصر متارد صيني يقوم كل مترد منها على ثلاثة أرجل على صورة السباع وغيرها يسع كل منها مائتي رطل وما فوقها وعدة قطع يشب وبازهر منها جام سعته ثلاثة أشبار ونصف وعمقه شبر مليح الصورة.

وأخرج من القصر منديل نسيج من زغب ريش بدائر يسمى السمندل طوله تسعة أشبار لا يحترق بالنار فاشتراه بعض المسافرين التجار بثمن يسير طلب فلم يقدر عليه.

وصار إلى ناصر الدولة قطرميز بللور فيه صور ناتئة عن ضبته يسع سبعة عشر رطلا ودكوجة بللور تسع عشرين رطلا وقصرية يصب كبيرة جدا وعدة كاسات يصب وطابع ند فيه ألف مثقال عمله فخر الدولة أبو الحسن علي بن ركن الدولة ابن بويه الديلمي وكتب عليه فخر الدولة شمس الدولة

وكتب عليه أبياتا منها: فاقتسمه ناصر الدولة وفخر العرب وتاج الملوك أمير الأمراء.

وصار لناصر الدولة أيضا طائر من ذهب مرصع بنفيس الجوهر وعيناه من ياقوت أحمر وريشه من الميناء المجري بالذهب كهيئة ريش الطاووس.

وديك من ذهب له عرف كأكبر أعراف الديكة من الياقوت الأحمر مرصع كله بسائر الدر والجوهر وعيناه من ياقوت أحمر كان يحيره ناظره كيفية تركيبه لالتئام الصنعة فيه وملاحتها.

وغزال مرصع بنفيس الدر والجوهر بطنه أبيض منطور من در رائع يخاله الناظر حيوانا.

ومجمع سكارج مخروط من بللور فظ وفيه سكارج من بللور يخرج منه ويعود إليه فتحته أربعة أشبار في مثلها محكم الصنعة في غلاف من خيزران مذهب فسمح به لفخر العرب.

وأخرج بطيخة من كافور في شباك من ذهب مرصع وزن كافورها سبعون منا سوى الذهب اقتسمها فخر العرب وتاج الملوك فخص فخر العرب منها ثلاثة آلاف مثقال من ذهب وقطعة عنبر تسمى الخروف زنتها سوى ما يمسكها من الذهب ثمانون منا وعدة قطارميز بللور فيها صور مجسمة بارزة يسع كل منها عشرين رطلا.

وطلب الأتراك من المستنصر نفقة فماطلهم بها فهجموا على التربة التي للقصر وأخذوا ما فيها من قناديل الذهب ومن الآلات كالمداخن والمجامر وحلي المحاريب فجاء منه خمسون ألف دينار.

وصار إلى فخر العرب مقطع حرير أزرق رقيق بديع الصنعة منسوج بالذهب وسائر أنواع الحرير تنبيتاً عمله المعز فيه صورة أقاليم الأرض بمدنها وجبالها وبحارها وأنهارها وسعة حصونها وفيه صورة مكة والمدينة وفي آخره: مما أمر بعمله المعز لدين الله شوقاً إلى حرم الله وإشهاراً لمعالم رسول الله في سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة والنفقة عليه اثنان وعشرون ألف دينار.

وصار إلى فخر العرب ما لا يحصى كثرةً من ذلك مائدة يصب كبيرة قوائمها منها وبيضة كبيرة بلخشن زنتها سبعة وعشرون مثقالاً أشد صفاء من الياقوت الأحمر وبيت أرمني منسوج بالذهب عمل للمتوكل على الله العباسي لا مثل له ولا قيمة وقطرميز بللور يسع مروقتين نبيذاً مليح التقدير قوم عليه مما خرج من القصر ثمانمائة دينار فدفع إليه بعد ذلك فيه ألف دينار فأبى وبساط خسرواني دفع إليه بالإسكندرية ألف دينار فامتنع

من بيعه ومائدة جزع يقعد عليها جماعة قوائمها مخروطة منها ما لا قدر لها ولا قيمة.

سوى ما قبضة شاور بن حسين لناصر الدولة ولفخر العرب من آلات الذهب والفضة وآنية الجوهر وعقوده وفاخر الثياب والفرش والآلات والسلاح مما قوم بمئين ألوفاً وكانت قيمته ألوف ألوف ديناراً.

وصار إلى ناصر الجيوش ما قيمته ألف ألف دينار من جملته نخلة من ذهب مكللة بجوهر بديع ودر رائع في إجانة من ذهب تجمع الطلع والبلح وسائر ألوان البسر والرطب بشكله ولونه وصفته وهيئته من ألوان الجوهر لا قيمة لها.

وكوز على مثال كوز الزير من بللور يسع عشرة أرطال ماء مرصع بنفيس الجوهر لا قيمة له وصورة مكللة بحب لؤلؤ نفيس فيها ما وزن الجبة منه مثقال ومنه ما يزن مثقالين مرصعة بياقوت.

وأخرج فيه العشارى المعروف بالمقدم ونجارته وكسوة رحله التي عملها الوزير علي بن أحمد الجرجرائي في سنة ست وثلاثين وأربعمائة كان فيها مائة ألف وسبعة وستون ألفا وسبعمائة درهم فضة نقرة غير ما أطلق للصناع من أجرة صياغة وثمن ذهب لطلائه وهو ألفان وتسعمائة دينار وكان سعر الفضة في ذلك الوقت كل مائة درهم بستة دنانير وربع بسعر ستة عشر درهما بدينار.

وأخرج حلي العشارى الفضي الذي عمله أبو سعيد إبراهيم بن سهل التستري لما ولي الوساطة في سنة ست وثلاثين وأربعمائة لوالدة المستنصر وكان الحلي مائة ألف وثلاثين ألف درهم فضة وإلى ذلك أجر الصباغة ولطلاء بعضه ألفان وأربعمائة غير ما استعمل كسوة برسمه مال جليل.

فأخرج عدة العشاريات التي برسم القوة البحرية وعدتها ستة وثلاثون عشارياً وكان قد انصرف عليها في حلاها من مناطق ورؤوس منجوقات وأهلة وصفريات وكساها أربعمائة ألف دينار.

وأخرج ما على سرير الملك الكبير من الذهب الإبريز الخالص فكان مائة ألف مثقال وعشرة آلاف مثقال.

وأخرج الستر الذي أنشأه أبو محمد اليازوري فجاء فيه من الذهب ثلاثون ألف مثقال وكان مرصعاً بألف وخمسمائة وستين قطعة جوهر من سائر الألوان.

وأخرجت الشمسة الكبيرة وكان فيها ثلاثون ألف مثقال ذهباً وعشرون ألف درهم فضة وثلاثة آلاف وستمائة قطعة جوهر وأخرجت الشمسة التي لم تتم فوجد فيها من الذهب سبعة عشر ألف مثقال.

وأخرج من خزانة عدة مناكين فضة منها ما زنته مائة وتسعة أرطال إلى ما دونها.

وأخرج بستان أرضه فضة محرقة مذهبة وطينه ند معجون وأشجاره فضة مصنوعة وأثماره عنبروند زنته ثلثمائة وستة أرطال بالمصري.

وبطيخة كافور مشبكة بذهب وزنها عشرة آلاف مثقال ومنقلتا كافور مشبكتان بذهب زنتهما ستة آلاف مثقال ومنقلتا عنبر وزنهما عشرة آلاف مثقال ومنقلتا عنبر مدورتان وزنهما ستة آلاف مثقال.

وأثواب مصمتة منها أربعة يفصل كل ثوب منها اثنين وثلاثون قميصاً تاماً ومدهن ياقوت أحمر زنته سبعة وثلاثون درهماً ونصف أخذ من موجود اليازوري وكان قد صار إليه من السيدة عبدة بنت المعز لدين الله.

وأخرج لؤلؤ زنة كل حبة منه مثقالان ومن الياقوت الأزرق ما زنة كل قطعة منه سبعون درهماً ومن الزمرد ما وزن كل قطعة منه ثمانون درهما ونصاب مرآة طويل ثخين من زمرد لا قيمة له.

وأخرج من خزائن الكتب ثمانية عشر ألف كتاب في العلوم القديمة وألفان وأربعمائة ختمة في ربعات بخطوط منسوبة محلاة بذهب وفضة.

وأخذ جميع ذلك الأتراك ببعض قيمته.

وأخرج في المحرم منها في يوم واحد خمسة وعشرون جملاً موقرةً كتباً صارت إلى دار الوزير أبي الفرج محمد بن جعفر بن المعز واقتسمها هو والخطير ابن الموفق في الدارين بخدمات وجبت لهما عما يستحقانه وغلمانهما من ديوان الحلبيين وأن حصة الوزير أبي الفرج قومت عليه بخمسة آلاف دينار وكانت تساوي أكثر من مائة ألف دينار نهبت بأجمعها من داره يوم انهزم ناصر الدولة من مصر في صفر مع غيرها مما نهب من دور من سار معه من الوزير أبي الفرج وابن أبي كدينة وغيرهما.

وأخرج ما في خزائن دار العلم بالقاهرة.

وصار إلى عماد الدولة أبي الفضل بن المحترف بالإسكندرية كثير من الكتب ثم انتقل منها كثير بعد مقتله إلى المغرب وأخذته لواتة فيما صار إليها بالابتياع أو الغصب من الكتب الجليلة المقدار ما لا يعد ولا يوصف فجعل عبيدهم وإماؤهم جلودها نعالاً في أرجلهم وأحرق ورقها تأولاً منهم

أنها خرجت من القصر وأن فيها كلام المشارقة الذي يخالف مذهبهم فصار رمادها تلالاً عرفت في نواحي أبيار بتلال الكتب وغرق منها وتلف ووصل إلى الأمصار ما يتجاوز الوصف.

وأخرج من بعض الخزائن التي بالقصر بيضة كبيرة كأكبر ما يكون من بيض النعام محلاة بذهب فأخذها المستنصر دون ما أخرج من تلك الخزانة مما له خطر وقدر فقال بعض الحاضرين هذه بيضة نعامة فتغافل بعض من حضر من الأتراك عنها وأخذوا النفائس من الذخائر وانصرفوا.

فسئلا المستنصر من بعض الخدم عن هذه البيضة فقال: هي بيضة حية أهداها بعض الملوك إلى جدي القائم بأمر الله وكان يحتفظ بها وهذه الرقعة بخط القائم بأمر الله باسم مهديها والسنة التي أهديت فيها.

وأخرج من القصر في ثلاثة أيام من المحرم ما قيمته من العين اثنان وعشرون ألف دينار وستمائة وستة وسبعون ديناراً وثمن دينار منها قيمة متاع ثلاثة عشر ألفا وثمانمائة وثلاثون ديناراً وثلث وثمن وقيمة جوهر ثمانية آلاف وثمانمائة وخمسة وأربعون ديناراً وثلثان هذا على أن ما يساوي ألف دينار يقوم بمائة دينار وما دونها.

فإذا كان هذا في ثلاثة أيام فكيف يكون في مدة سنتين ليلا ونهاراً! وتسلم جلال الدولة بن بويه من العين له ولمن يجري مجراه وعدتهم عشرة نفر من عطية واحدة مبلغ أربعة وأربعين ألف دينار ومائة وثلاثين دينارا.

ووصل إلى بغداد على يد التجار مما خرج من القصر على ما وقفت في تاريخ بعض البغداديين أحد عشر ألف درع وعشرون ألف سيف محلى وثمانون ألف قطعة بللور وخمسة وسبعون ألف قطعة من الديباج.

وبيع طشت وإبريق من بللور باثني عشر ألف دينار وبيع نحو السبعين ألف قطعة من الثياب وعشر حبات قال ابن ميسر: رأيت مجلدة تجيء نحو العشرين كراسة فيها ذكر ما خرج من القصر من التحف والأثاث والثياب والذهب وغير ذلك.

وفيها صرف الوزير محمد بن جعفر ابن المغربي عن الوزارة في رمضان وتقرر جلال الملك أبو أحمد أحمد بن عبد الكريم بن عبد الحاكم بن سعيد الفارقي.

وفيها قتل أمير الجيوش بدر بساحل الشام الشريف أبا طاهر حيدرة ناظر دمشق لإحن كانت في نفسه منه وكان يعد من الأجواد.

وفيها تغلب الأمير حصن الدولة معلى بن حيدرة الكتامي على دمشق واقتحمها قهراً بالسيف في شوال فأساء السيرة في الناس.

وفيها عظم الغلاء بمصر واشتد جوع الناس لقلة الأقوات في الأعمال وكثرة الفساد وأكل الناس الجيفة والميتات ووقفوا في الطرقات فقتلوا من ظفروا به وبيعت البيضة من بيض الدجاج بعشرة قراريط وبلغت رواية الماء دينارا وبيع دار ثمنها تسعمائة دينار بتسعين دينارا اشترى بها دون تليس دقيق.

وعم مع الغلاء وباء شديد وشمل الخوف من العسكرية وفساد العبيد.

فانقطعت الطرقات براً وبحراً إلا بالخفارة الكبيرة مع ركوب الغرر.

وبيع رغيف من الخبز زنته رطل في زقاق القناديل كما تباع التحف والطرق في النداء: خراج! خراج! فبلغ أربعة عشر درهما وبيع أردب قمح بثمانين ديناراً.

ثم عدم ذلك كله وأكلت الكلاب والقطط فبيع كلب ليؤكل بخمسة دنانير.

وأبيعت حارة بمصر بطبق خبز حساباً عن كل دار رغيف فعرفت تلك الحارة بعد ذلك بحارة طبق وما زالت تعرف بذلك حتى دثرت فيما دثر من خطط مصر.

وأكل الناس نحاتة النخل ثم تزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضا.

وكان بمصر طوائف من أهل الفساد قد سكنوا بيوتاً قصيرة السقوف قريبةً ممن يسعى في الطرقات فأعدوا سلباً وخطاطيف فإذا مر بهم أحد شالوه في أقرب وقت ثم ضربوه بالأخشاب وشرحوا لحمه وأكلوه.

قال الشريف أبو عبد الله محمد الجواني في كتاب النقط: حدثني بعض نسائنا الصالحات قالت: كانت لنا من الجارات امرأة ترينا أفخاذها وفيها كالحفر فتقول: أنا ممن خطفني أكلة الناس في الشدة فأخذني إنسان وكنت ذات جسم وسمن فأدخلني بيتاً فيه سكاكين وآثار الدماء وزفرة القتيل فأضجعني على وجهي وربط في يدي ورجلي سلباً إلى أوتاد حديد عريانةً ثم شرح من أفخاذي وأنا أستغيث ولا أحد يجيبني ثم أضرم الفحم وأسوى من لحمي وأكل أكلاً كثيراً ثم سكر حتى وقع على جنبيه لا يعرف أين هو فأخذت في الحركة إلى أن تخلى أحد الأوتاد وأعان الله على الخلاص وخلصت وحللت الرباط وأخذت خروقا من داره ولففت بها أفخاذي وزحفت إلى باب الدار وخرجت أزحف إلى أن وقعت إلى الناس فحملت إلى بيتي وعرفتهم بموضعه فمضوا إلى الوالي فكبس وآل أمر الخليفة المستنصر إلى أن صار يجلس على نخ أو حصير وتعطلت دواوينه وذهب وقاره وخرج من نساء قصوره ناشرات شعورهن يصحن: الجوع الجوع وهن يردن المسير إلى العراق فتساقطن عند المصلى بظاهر باب النصر من القاهرة ومتن جوعاً.

جاء الوزير يوماً على بغلة فأكلها العامة فأمر بهم فشنقوا فاجتمع الناس على المشنقين وأكلوهم.

وعدم المستنصر القوت جملةً حتى كانت الشريفة بنت صاحب السبيل تبعث إليه كل يوم بقعب من فتيت من جملة ما كان لها من البر والصدقات في سني هذا الغلاء حتى أنفقت مالها كله وكان يجل عن الإحصاء في سبيل البر فلم يكن للمستنصر قوت سوى ما كانت تبعث به إليه وهو مرة واحدة في اليوم لا يجد غيره.

وبعث بأولاده إلى الأطراف لعدم القوت فسير الأمير عبد الله إلى عكا فنزل عند أمير الجيوش وأرسل الأمير أبا علي معه وبعث الأمير أبا القاسم والد الحافظ إلى عسقلان وسيره أولا إلى دمياط ولم يترك عنده سوى ابنه أبي القاسم أحمد.

وبعث المستنصر يوما إلى أبي الفضل عبد الله بن حسين بن شورى بن الجوهري الواعظ فدخل القاهرة من باب البرقية فلم يلق أحداً إلى القصر فجاء من باب البحر فوجد عليه شيخاً فقال استأذن علي فقال: ادخل فهو وحده فدخل فلم ير أحداً في الدهاليز ولا القلعة فأنشد: يا منزلاً لم تبل أطلاله حاشا لأطلالك أن تبلى والعيش أولى ما بكاه الفتى لا بدّ للمحزون أن يسلى فإذا هو خلف باب المجلس فبكى وبكيت طويلا وحادثته ساعة ثم ناوله الخليفة قرطاساً فيه سبعون ديناراً.

ومن عجيب ما وقع أن امرأة من أرباب البيوت عرضت عقداً لها قيمته ألف دينار على جماعة ليعطوها به دقيقاً وهم يعتذرون إليها ويدفعونها إلى أن رق لها رجل وباعها به تليس دقيق فحملته من مصر واكترت معها من يحفظه من النهابة وسارت تريد منزلها بالقاهرة فسلمه الحملة إليها عند بابي زويلة فلم تمش به غير قليل حتى تكاثر الناس عليها وانتهبوه منها فانتهبت هي أيضا منه مع النهابة فصار إليها ملء يديها دقيقاً لم ينبها منه غيره فعجنته وشوته ثم مضت إلى باب القصر ووقفت على موضع مرتفع ورفعت القرصة في يدها حتى يراها الناس ونادت بأعلى صوتها: يأهل القاهرة ادعوا لمولانا المستنصر الذي أسعد الله الناس بأيامه وأعاد عليهم بركات حسن نظره حتى تقومت علي هذه القرصة بألف دينار.

ووقف مرة بعض المياسير بباب القصر وصرح إلى أن أحضر المستنصر فلما وقف بين يديه قال: يا مولانا هذه سبعون قمحة وقفت علي بسبعين ديناراً كل حبة قمح بدينار في أيامك وهو أني اشتريت إردباً بسبعين ديناراً فنهب مني ولم يبق في منه سوى ما وقع بيدي وانتهابي منه مع من نهب فعددت ما في يدي فجاء سبعين حبةً من قمح وإذا كل حبة بدينار.

فقال المستنصر: الآن فرج الله على الناس فإن أيامي حكم لها أنه يباع فيها القمحة بدينار.

ولم يكن هذا الغلاء عن قصور مد النيل فقط وإنما كان من اختلاف الكلمة ومحاربة الأجناد بعضهم مع بعض.

وكان الجند عدة طوائف مختلفة الأجناس فتغلبت لواتة والمغاربة على الوجه البحري وتغلب العبيد السودان على أرض الصعيد وتغلب الملثمة والأتراك بمصر والقاهرة وتحاربوا.

وكان قد حصل ذلك من بعد قتل اليازوري في سنة خمسين كما تقدم فما زالت أمور الدولة تضطرب وأحوالها تختل ورسومها تتغير من سنة خمسين إلى سنة سبع وخمسين فابتدأت الشدة منها تتزايد إلى سنتي ستين وإحدى وستين فتفاقم الأمر وعظم الخطب واشتد البلاء والكرب.

وما برح المصاب يعظم إلى سنة ست وستين وكان أشدها مدة سبع سنين من سنة تسع وخمسين إلى سنة أربع وستين أخصبت كل شر وهلك فيها معظم أهل الإقليم.

ثم أخذ البلاء ينجلي من سنة أربع وستين إلى أن قدم أمير الجيوش بدر في سنة ست وستين كما سيأتي ذكره إن شاء الله.

فكانت السبع سنين المذكورة يمد فيها النيل ويطلع وينزل في أوقاته فلا يوجد في الإقليم من يزرع الأراضي ولا من يقيم جسوره من كثرة الاختلاف وتواتر الحروب وانقطاع الطرقات في البر والبحر إلا بالخفارة الثقيلة وارتكاب الخطر ولم يوجد ما يبذر في الأراضي للزراعة فإن القمح ارتفع الأردب منه من ثمانين ديناراً إلى مائتي دينار ثم فقد فلم يقدر عليه ولا الخليفة.

وفيها صرف ابن أبي كدينة عن القضاء في ثالث عشر صفر وتولى المليحي وصرف جلال الملك عن الوزارة وصرف معه أيضا المليحي عن القضاء في يوم واحد وجمعا معاً لخطير الملك محمد بن اليازوري فباشرهما إلى شوال ثم صرف عنهما.

فاستقر فيهما بعده ابن أبي كدينة إلى ذي القعد وأعيد المليحي بعده.

وفيها احترق جامع دمشق ليلة الاثنين النصف من شعبان بعد العصر وسببه فتنة بين العسكرية وأهل البلد فأضرموا النار في بعض الأسواق واتصل بالجامع فاحترق الجانب الغربي جميعه من الرواق الباقلاني والقبة الكبيرة وزالت آثار الوليد بن عبد الملك التي لم يكن في الإسلام مثلها.

سنة اثنتين وستين وأربعمائة

فيها بعث ناصر الدولة حسين بن حمدان الفقيه أبا جعفر محمد بن أحمد بن البخاري رسولاً منه إلى السلطان ألب أرسلان ملك العراق يسأله أن يسير إليه العساكر ليقيم الدعوة العباسية بديار مصر وتكون مصر له.

فتجهز ألب أرسلان من خراسان في عساكر عظيمة وبعث إلى محمود بن ثمال بن صالح بن مرداس صاحب حلب أن يقطع دعوة المستنصر ويقيم الدعوة العباسية فقطعت دعوة المستنصر من حلب ولم تعد بعد ذلك.

وانتهى ألب أرسلان إلى حلب في جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وحاصرها شهرا فخرج إليه صاحبها محمود بن ثمال بن صالح بن مرداس فأكرمه وأقره على ولايته.

وأخذ يريد المسير إلى دمشق ليمر منها إلى مصر وإذا بالخبر قد طرقه أن متملك الروم قد قطع بلاد أرمينية يريد أخذ خراسان فشغله ذلك عن الشام ومصر ورجع إلى بلاده فواقع جمائع الروم على خلاط وهزمهم.

وكان قد ترك طائفة من عسكره الأتراك ببلاد الشام فامتدت أيديهم إليها وملكتها كلها فخرجت عن أيدي المصريين ولم تعد إليهم.

وبلغ المستنصر إرسال ناصر الدولة إلى ألب أرسلان فجهز إليه ثلاث عساكر من الأتراك وغيرهم وتقدم أحد العساكر إليه وهو في أهل البحيرة فجمع له ابن حمدان وأوقع به وقعة انكشفت عن أسر مقدم العسكر وقتل كثير من أصحابه وانهزام من بقي والاستيلاء على ما بقي معهم فتقوى به.

ووافاه العسكر الثاني ولا علم عندهم بما اتفق على من تقدم فكانت الدائرة لابن حمدان عليهم أيضا فسار وهجم على العسكر الثالث وقتل منهم وأسر وانتهب عامة ما كان معهم فكثرت أمواله وكبرت نفسه واستأسد على المستنصر واستخف به وبمن معه فقطع الميرة عن القاهرة ومصر وعاث في البلاد ونهب أكثر الوجه البحري.

وقطع خطبة المستنصر من الإسكندرية ودمياط وجميع الوجه البحري وخطب للخليفة القائم بأمر الله العباسي.

وامتدت الحرب بين الأتراك وعبيد الشراء ثمانية أشهر يتحاربون ليلا ونهارا فامتنع الناس من الحركة وجاء النيل ووفى فلم يقدروا على الزرع فتفاقم البلاء بالناس واشتد جوعهم وعظمت رزاياهم.

وفشا مع ذلك الموت في الناس فكان يموت الواحد من أهل البيت في القاهرة أو مصر فلا يمضي ذلك اليوم أو تلك الليلة حتى يموت سائر من في ذلك البيت.

وعجز الناس عن مواراة الأموات فكفنوهم في الأنخاخ ثم عظمت شناعة الموت وتضاعف العجز فصاروا يحفرون الحفائر الكبار ويلقون فيها الأموات بعضهم على بعض حتى تمتلئ الحفيرة بالرمم من الرجال والنساء والصغار والكبار ثم يهال عليها التراب.

ومع هذا تكاثر انتهاب الجند للعامة واختطافهم من الطرقات فخرج أهل القوة من القاهرة ومصر يريدون بلاد الشام والعراق هرباً من الجوع والفتن فصار إلى تلك البلاد عامة التجار وأصحاب القوة ومعهم ثياب المستنصر وذخائره وآلاته التي تقدم ذكر طرف منها.

وفيها حاصر أمير الجيوش بدر مدينة صور وبها عين الدولة أبو الحسن علي الملقب بالناصح ثقة الثقات ذي الرئاستين ابن عبد الله بن علي بن عياض بن أحمد بن أبي عقيل القاضي وضايقها فسير عين الدولة إلى الأمير لواء مقدم الأتراك الواردين من العراق إلى بلاد الشام لينجده واتصل ذلك بأمير الجيوش فخاف من الأتراك فرحل عن صور.

ثم لما اطمأن عاد إلى صور ونازلها فلم يظفر منها بشيء.

وفيها قطعت دعوة المستنصر من مكة ودعي بها للقائم العباسي وللسلطان عضد الدولة ألب أرسلان بن داود بن ميكال بن مسلجوق بن دقاق.

وكان سبب انقطاع دعوة المستنصر بها أنه كان ينفق في كل سنة على القافلة المجهزة إلى مكة في الموسم مائة ألف وعشرون ألف دينار منها عن الطيب والخلوق والشمع راتباً في كل سنة عشرة آلاف دينار ونفقة الوفد الواصلين إلى الحضرة أربعون ألف دينار وعن الجرايات والصدقات وأجرة الجمال ومعونة من يسير من العسكرية وأمير الموسم وخدم القافلة والضعفاء وحفر الآبار ونفقات العربان ستون ألف دينار.

ثم زادت النفقة في وزارة اليازوري حتى بلغت إلى مائتي ألف دينار في السنة ولم تبلغ النفقة على موسم الحج مثل ذلك في دولة من دول الإسلام قط.

فلما ضعفت الدولة في هذه السنين وزحف عضد الدولة من خراسان إلى حلب بعث إلى محمد ابن أبي القاسم الحسني أمير مكة بثلاثين ألف دينار وبخلع سنية وأجرى له في كل سنة عشرة آلاف دينار وبعث إلى صاحب المدينة عشرين ألف دينار فقطع خطبة المستنصر بعدما قامت الدعوة

والخطبة للمستنصر ولآبائه بمكة والمدينة مائة سنة ودعا للقائم العباسي ولعضد الدولة وقرر عضد الدولة ما يحمل إلى الحرمين على ارتفاع واسط.

سنة ثلاث وستين وأربعمائة

فيها اصطلح الأتراك بمصر مع ناصر الدولة ابن حمدان وهو مقيم بالوجه البحري وذلك لشدة ما نالهم من قطعه الميرة عنهم فوقع الاتفاق بينهم وبينه على أن يكون مقيماً بمكانه وتحمل إليه الأموال التي تقرر له وأن يكون تاج الملوك شادي نائباً عنه بالقاهرة.

فتقرر الحال على ذلك ودخلت الغلال إلى البلد فطابت قلوب الناس وانجلى الأمر نحو شهر ثم وقع الخلاف بين الأتراك وبينه فرحل من البحيرة بعساكر كثيرة ونازل البلد وحاصرها محاصرةً شديدة في ذي القعدة وامتدت أيدي أصحابه فانتهبوا الناس في الدور وأخذوهم من الطرقات وأحرقوا كثيراً من دور الساحل.

ثم عاد إلى البحيرة.

سنة أربع وستين وأربعمائة

وفيها كانت الحرب بين تاج الملوك شادي وبين ناصر الدولة ابن حمدان وعادت الفتنة بالقاهرة ومصر.

وكان سبب محاربتهما أن تاج الملوك لما دخل إلى القاهرة نائباً عن ناصر الدولة تغير عما كان قد تقرر بينهما واستبد بالأمور فضن بالمال عليه ولم يصل ابن حمدان منه إلا دون ما كان يؤمله.

فقلق لذلك ابن حمدان واتفق هو وجمائع العربان على المسير إلى القاهرة وأخذها.

فسار بهم ونزل إلى الجيزة فاستدعى تاج الملوك وغيره من أكابر المقدمين فخرجوا إليه مطمئنين لأنه واحد منهم يهوى هواهم فما هو إلا أن صاروا إليه حتى قبض عليهم وزحف بجموعه وألقى النار في دور السادة وانبثت أصحابه ينتهبون ما قدروا عليه.

فجهز المستنصر إليه عسكراً كانت فيه طائفة لهم قوة وفيهم منعة فوافقوه.

وكانت بينهم وبينه حرب انجلت عن هزيمته ففر على وجهه وتلاحق به أصحابه وصاروا إلى البحيرة فقطع خطبة المستنصر من جميع الوجه

البحري وكتب إلى الخليفة القائم ببغداد يسأله أن يجهز إليه الخلع والألوية السود فاضمحل قدر المستنصر وتلاشى أمره.

وتعاظمت الشدائد بمصر وجلت رزايا الناس.

فلما كان في شعبان سار ناصر الدولة بعساكره وقد تيقن عجز المستنصر عن مقاومته لضعف أمره وممالاة كثير من الأتراك له.

وموافقتهم لما قرره معهم من محبة فدخل إلى مصر فاستولى على الأمر وبعث إلى المستنصر يطلب منه المال فدخل عليه قاصد ابن حمدان وهو جالس على حصير بغير فرش ولا أبهة وليس عنده غير ثلاثة من الخدم وقد زال ما كان يعهده من شارة المملكة وعظمة الخلافة.

فلما أدى إليه الرسالة.

قال له المستنصر: أما يكفي ناصر الدولة أن أجلس في مثل هذا البيت على هذه الحال! فلما سمع بذلك قاصد بن حمدان بكى وخرج فأعلم ناصر الدولة ما شاهده من هيئة المستنصر وعرفه بما صار إليه من سوء الحال فرق له وكف عنه وأطلق له في كل شهر مائة دينار.

واستبد بسائر أمور الدولة وبالغ في إهانة المستنصر في الاعتقاد وزاد في إيصال الضرر إليه وإلى سائر حواشيه وأسبابه حتى قبض على أم المستنصر وعاقبها بعقوبات متعددة واستخلص منها أموالاً جمة.

فتفرق عن المستنصر جميع أهله وسائر أقاربه وأولاده وحواشيه فمنهم من سار إلى المغرب ومنهم من خرج إلى العراق وبقي فقيراً وحيداً خائفاً يترقب.

وقيل إن أم المستنصر فرت أيضاً إلى العراق.

وفي شهر ربيع الأول استقر ابن أبي كدينة في الوزارة والدعوة والقضاء.

واستمر الحال على ما وصفنا جميع سنة أربع وستين.

وفيها فقد الطعام فسارت التجار من صقلية والمهدية في الطعام والمرتب.

فبيع القمح كل كيل قروي زنته تسعة أرطال بدينار نزاري ثم بيع بمثقالين ثم بثلاثة ثم فقد.

وطبخ الناس جلود البقر وباعوها رطلاً بدرهمين وبلغ الزيت أوقيةً بدرهمين وأوقية اللحم بدرهم وبيعت الأمتعة بأبخس ثمن وباع الناس أملاكهم.

ووقع الوباء فألقى الناس موتاهم في النيل بغير أكفان.

وفيها مات القاضي الأجل أمين الدولة أبو طالب عبد الله بن عمار بن الحسين بن قندس بن عبد الله بن إدريس بن أبي يوسف الطائي بطرابلس الشام ليلة السبت نصف رجب.

وفيها ملك القمص رجار بن تنقرد صاحب مدينة قلبريو وهي مقابل مدينة جربة جزيرة صقلية.

سنة خمس وستين وأربعمائة

فيها قتل ناصر الدين الحسين بن ناصر الدولة الحسن بن الحسين بن عبد الله أبي الهيجاء بن حمدان بن حمدون بن الحارث بن لقمان بن الرشيد بن المثنى بن رافع بن الحارث ابن غطيف بن مجربة بن حارثة بن مالك بن جشم أحد الأراقم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن ثعلب بن وائل بن قاسط بن فيد بن أقصى بن داغمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة الفرس بن نزار بن معد بن عدنان التغلبي.

وكان سبب فنائه أنه لما استولى على أمور الدولة وبالغ في إهانة المستنصر وتتبع أقاربه وحواشيه وأخذ من قدر عليه منهم وفر من وجد سبيلا إلى الفرار كان يولي الرجل بعض الأعمال ويسيره إليه فلا يتمكن من ذلك العمل حتى يكتب إليه بأن يعود ويبعث غيره.

وشرع في قطع دعوة المستنصر وإعمال الرأي في إقامة الخطب للخليفة القائم بمصر والقاهرة وأن يزيل من البلاد دولة الفاطميين ويمحو آثارها فلم يستطع ذلك ولا قدر عليه لكثرة الأعوان والأتباع.

وكان من جملة رجال الدولة إلدكز وهو أحد الأمراء ففطن لما يريده ناصر الدولة من قطع خطبة المستنصر وإقامة دعوة بني العباس فتشاور هو والأمير يلدكوز وكانا من أكابر الأتراك وأنكرا ما يتفق من ناصر الدولة وتخوفا من عاقبة ذلك.

وصارا إلى بقية الأتراك وأعلماهم أنه إن تم لناصر الدولة ما يحاوله لم يبق منهم أحدا والرأي مبادرته قبل أن يستفحل أمره فتقرر الأمر على القيام عليه وقتله.

وكان ناصر الدولة قد اغتر بقوته وظن أنه قد أمن وأن أعداءه قد تلاشوا وتلفوا فأتاه الله من حيث لم يحتسب وأناخ به عواقب بغيه فلم يشعر إلا وقد ركب الأتراك بأجمعهم على حين غفلة من ليلة من رجب ووافوا داره بمصر سحراً وكان يسكن في منازل العز فهجموا عليه من غير دستوره ولا

طلب إذن فإذا هو في صحن داره وعليه رداء فبادره أحدهم بسيفه وأتبعه إلدكز فحز رأسه.

وخرج كوكب الدولة مسرعا إلى فخر الدولة أخيه في عدة فطرقه وهو آمن وقتله واحتمل رأسه وأخذ سيفه وجاريةً من جواريه.

وامتدت الأيدي إلى من بقي منهم فقتل أخوهما تاج المعالي وجماعة من بني حمدان وتتبعوا أسبابهم وحواشيهم حتى لم يبق منهم أحد بديار مصر وأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم وما أصدق قول أبي على الفكيك إذ يقول هجاء لناصر الدولة هذا: فالدولة الغراء قد غلطت بأن سمّتك ناصرها وأنت الخاذل وقتل في هذه النوبة الوزير أبو غالب عبد الطاهر بن فضل بن الموفق بن الدين ابن العجمي.

وفيها قطعت خطبة المستنصر من بيت المقدس.

سنة ست وستين وأربعمائة

فيها تشدد الأتراك وكبيرهم سلطان الجيش يلدكوش التركي والأمير إلدكز والوزير يومئذ ابن أبي كدينة فضاق خناقه وعظم روعه وساءت حاله وكان المستنصر بالله يظن أن في قتل ابن حمدان راحةً له فاستطال إلدكز وابن أبي كدينة عليه وناكداه.

فتحير في أمره وكتب إلى أمير الجيوش بدر الجمالي وهو يومئذ بعكا يستدعيه للقدوم لنجدته وإعانته ويعده بتملك البلاد والاستيلاء عليها.

فاشترط عليه أنه يقدم بعسكر معه وأنه لا يبقى أحداً من عساكر مصر ولا وزرائهم فأجابه المستنصر إلى ذلك.

فأخذ في الاستعداد للمسير إلى مصر واستخدم معه عدةً من العساكر وركب بحر الملح من عكا وكان الوقت في كانون وهو أشد ما يكون من البلاء ومن العادة أن البحر لا يركب في الشتاء.

فسار في مائة مركب وقد حذر من ركوبه وخوف من سوء العاقبة فلم يصغ لذلك وكأن الله سبحانه قد صنع له ومكن له في الأرض وقضى بأن يصلح على يديه ما قد فسد من إقليم مصر.

فترحل بعساكره في المراكب وأضحت السماء وواتتهم ريح طيبة سارت بهم إلى دمياط ولم يمسسهم سوء فكان يقال إنه لم ير في البحر قط صحوة تمادت أربعين يوماً إلا في هذا الوقت فكان هذا ابتداء سعادته وأول عظيم جده.

فنزل بدمياط وطلب إليه التجار من تنيس وافترض عليهم مالا.

وقدم عليه سليمان اللواتي وهو يومئذ كبير أهل البحيرة وأكثرهم مالا وأوسعهم حالا وقدم إليه وأضافه وأمده بالطرقات حتى قدم قليوب فنزل بها.

وبعث إلى المستنصر سراً بأني لا يمكنني القدوم إلى الحضرة ما لم يقدم على يلدكوش فبادر المستنصر إلى إجابته وقبض عليه.

ودخل بدر عشية يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الأولى فتلقاه أهل الدولة وأنزلوه وبالغوا في إكرامه فأظهر أنه ما جاء إلا شوقاً إليهم وخدعهم بما أبداه من المحبة لهم وكثرة التملق وأعرض عن المستنصر ولم يذكره إلا بالسوء وصار من معه يدخلون إلى القاهرة وحداناً ورجالا في الخفية حتى تكامل منهم تسعمائة.

ثم أخذ مع الأمراء في الأكل والشرب واللذات إلى أن اشتد تآنسهم به فاستدعاه كل منهم إلى ضيافته وقدموا إليه وهو آخذ في أسباب ما دعى إليه.

فلما انقضت أيام ضيافتهم له استدعى أمراء الدولة ومقدميها في صنيع أعد لهم فمضوا إليه وقضوا نهارهم عنده وباتوا في أطيب عيش وأنعم بال وقد رتب أصحابه ليقتل كل واحد أميراً من الأمراء ويكون له جميع ما بيده.

فلما سكروا وامتد عليهم رواق الليل صار يخرج كل واحد من باب ويسلمه إلى غلام من غلمانه ويمضي إلى داره فيتسلمها بما فيها من الخدم والأموال.

فلم يصبح الصباح إلا ورؤوس الجميع بين يديه وقد استولى كل رجل من أصحابه على دار أمير من الأمراء وأحاط بجميع ما كان له.

وأخذ في القبض على الأتراك وتتبعهم حتى لم يدع منهم أحداً يشار إليه فقويت شوكته واشتدت وطأته وعظم أمره فحسر عن ساعد الجد وشمر ساعد الاجتهاد والتقط المفسدين فلم يبق على أحد منهم وتطلبهم في القاهرة ومصر حتى أتى على جميعهم القتل.

وفر ناصر الجيوش أبو الملوك وكان شاه بن يلدكوش إلى الشام.

وخلع عليه المستنصر بالطيلسان المقور وصار جميع أهل الدولة في حكمه والدعاة نواباً عنه وكذلك القضاة إنما يتولون منه.

فقلد أبا يعلى حمزة بن الحسين بن أحمد الفارقي قضاء القضاة.

وزيد في ألقاب أمير الجيوش على ألقاب من تقدمه من الوزراء: كافل قضاة المسلمين.

واتفق أنه لما لبس خلع الوزارة حضر إليه المتصدرون بالجوامع فقرأ ابن العجمي: " ولقد نصركم الله ببدر " وسكت عن تمام الآية فقال له أمير الجيوش بدر: والله لقد جاءت في مكانها فيها قتل أمير الجيوش من أماثل المصريين وقضاتهم ووزرائهم عدة كثيرة منهم الوزير أبو محمد الحسن بن ثقة الدولة علي بن أحمد المعروف بابن أبي كدينة وكان عندما قدم بدر إلى مصر هو الوزير وهو من ولد عبد الرحمن بن ملجم وتردد في القضاء والوزارة سبع مرات وكان قاسي القلب جبارا فلما قبض عليه سير إلى دمياط ودخل عليه السياف ليضرب عنقه فكان سيفه ثليلاً فضربه سبع ضربات بعدد ولايته القضاء والوزارة.

وقتل أيضا الوزير أبو المكارم أسعد والوزير أبو شجاع محمد بن الأشرف أبي غالب محمد بن علي والوزير عبد الغني بن نصر بن سعيد الضيف.

سنة سبع وستين وأربعمائة

فيها سار أمير الجيوش بدر إلى الوجه البحري فأوقع بلواتة وقتل مقدمهم سليم اللواتي وابنه واستصفى جميع ما كان له ولقومه من أنواع الأموال وأسرف في قتلهم حتى يقال إنه قتل منهم عشرين ألفا.

وسار إلى دمياط وقتل كثيراً ممن كان فيها من المفسدين وخرب وحرق وأصلح عامة أحوال الثغر.

ولم يدع بالبر الشرقي وجميع أسفل الأرض مفسداً إلا وقتله أو قمعه.

ثم عدى إلى البر الغربي فقتل كثيراً من الطائفة الملحية وأتباعهم وأقام على محاصرة الإسكندرية وفيها حاصر شكل التركي أحد الأتراك الواصلين من العراق إلى الشام ثغر عكا وأخذه بالسيف وكان فيه أولاد أمير الجيوش بدر وأهله وحرمه فأحسن إليهم وأكرمهم وقتل والي عكا.

ثم سار منها فنزل على طبرية وأخذها.

وفيها مات الخليفة القائم بأمر الله ببغداد يوم الخميس ثالث عشر شعبان وله من الخلافة أربع وأربعون سنة وتسعة أشهر وأيام وجلس بعده ابن ابنه أبو القاسم عبد الله ابن ذخيرة الدين ولقب بالمقتدي.

وفيها أعيدت الخطبة للمستنصر بمكة بعد أن خطب فيها للقائم بأمر الله العباسي أربع سنين.

وفيها قتل أمير الجيوش كثيراً من جند مصر وغيرهم ممن يومي إليه بفساد.

سنة ثمان وستين وأربعمائة

فيها حاصر أطسز بن أرتق المعروف بالأقسيس دمشق وألح على قتال من بها من عساكر المستنصر حتى ملكها بعد أن أقام يحاصرها نحو ثلاث سنين.

وكان عليها من قبل المستنصر حيدرة بن ميرزا الكتامي وقد كرهته الرعية لسوء سيرته فيهم وكثرة مصادرته للناس ففر منهزما إلى بانياس ثم خرج عنها إلى صور فأقام بها مدة ثم حمل إلى مصر فقتل بها.

وكان قد التحق بأطسز عدة ممن فر من مصر عند قدوم أمير الجيوش فتقوى بهم وبمن صار إليه من أهل دمشق فراراً من حيدرة لسوء سيرته.

فلما ملك دمشق دعا للمقتدي من خلفاء بني العباس وأبطل الخطبة للمستنصر فانقطعت دعوة الخلفاء الفاطميين منها ولم تعد بعد ذلك.

وقطعت دعوة المستنصر من مكة أيضا ودعي فيها للمقتدي.

فيها مات القاضي الشريف جلال الدولة أبو الحسين أحمد بن أبي القاسم علي بن محمد ابن الحسين بن إبراهيم بن علي بن عبيد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب الحسيني النصيبيني قاضي دمشق وهو يومئذ متولي القضاء بها في يوم الجمعة الرابع من ذي القعدة وهو آخر قضاة الخلفاء الفاطميين بدمشق وسمع الحديث وحدث وله فيه مقال.

سنة تسع وستين وأربعمائة

فيها اجتمع بمدينة طوخ من صعيد مصر عدد كبير من عرب جهينة والثعالبة والجعافرة لمحاربة أمير الجيوش فسار إليهم حتى قرب منهم فنزل ثم ارتحل بالليل وأمر بضرب الطبول وزعقت البوقات واشتعلت المشاعل وقد تزايد وقود النيران.

وجد في السير والعساكر لها صرخات وصيحات متتابعة في دفعة واحدة حتى طرقهم بغتة ووضع فيهم السيف فأفنى أكثرهم قتلا وفر منهم طوائف فغرقوا ولم ينج منهم إلا القليل.

وأحاط بأموالهم فحاز منها ما يتجاوز الوصف كثرة وسيرها إلى المستنصر.

وثار كنز الدولة محمد بأسوان وتغلب عليها وعلى نواحيها وكثرت أتباعه ونجم أمره فسار إليه أمير الجيوش بعساكره فالتقى معهم وحاربهم محاربة طويلة أسفرت عن قتله وهزيمة أصحابه بعد أن قتل منهم جم غفير فكانت هذه الواقعة آخر الوقائع التي قطع فيها دابر المفسدين وخمدت جمرتهم.

وفيها جمع أطسز صاحب دمشق العساكر وسار يريد تملك الديار المصرية وإزالة الدولة الفاطمية منها وإقامة الدعوة العباسية كما فعل في بلاد الشام.

وكان أكثر الأسباب الحاملة له على ذلك أن ابن يلدكوش لما فر من أمير الجيوش وصار إلى بلاد الشام اتصل بأطسز وقدم إليه ستين حبة لؤلؤ مدحرج زنة كل حبة منها ينيف على مثقال وحجر ياقوت زنته سبعة عشر مثقالا وتحفاً كثيرة مما كان قد وصل إلى أبيه من خزائن المستنصر في سني الشدة وأغراه بأهل مصر وحثه على قصد البلاد وهونها عنده.

فقوي طمعه وسار وقد حصل في قوة بمن صار إليه من عساكر مصر ومن انضاف إليه من أهل الشام.

وكان أمير الجيوش ببلاد الصعيد قد انتهى إلى بلاد أسوان فوصل الخبر بمسير أطسز إلى مصر فكتب بذلك إلى أمير الجيوش وكان عند موافاة الخبر إليه في شغل عن ذلك فقدم أطسز إلى أطراف مصر في جمادى الأولى وقد أشار عليه ابن يلدكوش بألا تشتغل بالقاهرة ولكن تملك الريف.

وقال له: إذا ملكت الريف فقد ملكت مصر.

فأقام بالريف جمادى الأولى وجمادى الآخرة وبعض رجب وأمير الجيوش في إصلاح الصعيد وتدبير أموره وقد حضر إليه أكثر أهل أسوان وبدر بن حازم بجمائع طي.

فلما استوثق أمره وجمع إليه العساكر عاد إلى القاهرة وخرج يريد محاربة أطسز في جمع تبلغ عدته ما ينيف على ثلاثين ألفاً ما بين فارس وراجل وذلك في يوم الخميس لثلاث عشرة بقيت من رجب بعد ما جهز عدة مراكب قد شحنها بالعلوفات والأزواد.

فجمع أطسز إليه أصحابه واستشارهم فاختلفوا عليه في الرأي فقال بعضهم أن ترجع فإنك قد دست بلاد مصر وليس معك غير خمسة آلاف والقوم في كثرة وعواقب الأمور غير معلومة.

وقال له أخوه وابن يلدكوش لا يهولنك ما تسمع به من كثرتهم فإنما هم سوقة وأخلاط لو سمعوا صيحة لفروا عن آخرهم فإياك والرجوع عن هذا الملك قد أشرفت على أخذه ولم يبق إلا تملكه.

وأشار عليه شكل أمير طبرية بموافقة القوم والدخول إلى مصر.

فتقرر الرأي على ملاقاة العساكر المصرية.

فلما كان يوم الثلاثاء لثمان بقين منه تلاقى الفريقان وتحاربا فكانت بينهما عدة وقائع كانت الغلبة فيها للمصريين فانهزم أطسز وقتل أخوه وعدة من أصحابه وعاد في قليل ممن معه وأقام بالرملة حتى تلاحقت به عساكره.

ثم رحل إلى القدس ففتحها وقتل من فيها من المسلمين ولم يترك من استجار بالأقصى.

ثم سار إلى دمشق فدخلها لعشر بقين من شعبان وقد احتوى أمير الجيوش على كثير مما كان معهم ورجع إلى القاهرة مؤيداً مظفراً.

وكان المتولي لكسرة أطسز بدر بن حازم ابن علي بن دغفل بن جراح.

فلما جلس أمير الجيوش بدر الجمالي للهناء بنصرته قرأ ابن لفتة أحد القراء " ولقد نصركم الله ببدر " ولم يتم الآية يعني بدر بن حازم.

فبينا أمير الجيوش بدر في ذلك إذ بلغه اجتماع عرب قيس وسليم وفزارة فخرج إليهم وأوقع بهم وأكثر من القتل فيهم وفر من بقي منهم إلى برقة.

وفيها سقط أبو الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ النحوي من سطح جامع عمرو بن العاص بمصر فمات في عشية اليوم الثالث من رجب وكان له على الدولة الفاطمية في كل شهر ثلاثون ديناراً وغلة لإصلاح ما يكتب في ديوان الإنشاء فكان يعرض عليه جميع ما يكتب منه وإذا حرره أمر به فدفع لأربابه.

ثم إنه تخلى عن الخدم السلطانية وانقطع للعبادة حتى مات وكان أبوه واعظاً بمصر.

فيها سير أمير الجيوش عسكراً مقدمه ناصر الدولة الجيوشي فانتهى إلى دمشق وأقام محاصراً لها مدة ثم ارتحل عنها وعاد بغير طائل.

وفيها فوض لأمير الجيوش قضاء القضاة وزيد في نعوته: كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين.

وفيها وصل إلى مكة من بغداد منبر كبير في شهر رمضان منقوش عليه بالذهب: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

الإمام المقتدي بأمر الله أمير المؤمنين.

مما أمر بعمله محمد بن محمد بن جهير.

فاتفق وصوله وقد أعيدت الخطبة للمستنصر فكسر المنبر المذكور وأحرق.

ولم يكن بمصر في سنة إحدى وسبعين كبير شيء.

سنة واحد وسبعين وأربعمائة

سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة

فيها سير أمير الجيوش عسكراً كبيراً فانتهى إلى دمشق وحاصرها حتى أشرف على أخذها فسير أطسز صاحب دمشق إلى تاج الدولة تتش بن السلطان ألب أرسلان وكان قد أقطعه أخوه ملكشاه الشام وأخذ حلب بعد ما حاصرها حتى اشتد الجوع بأهلها وملكها يستحثه على نصرته وتقويته على المصريين ويعده أنه يسلم إليه ملك دمشق.

فأجابه إلى سؤاله وسار إليه بعسكره فبلغ ذلك عسكر أمير الجيوش فارتحل وعاد إلى مصر.

وقدم تتش فملك دمشق ودبر على أطسز وقتله بحيلة في ربيع الأول وجهز عسكراً في إثر العسكر المصري فلم يدركه.

وفيها خرج ملك النوبة من بلاده وصار إلى أسوان يريد زيادة كنيسة لهم بها فبعث والي قوص من قبض عليه وحمله إلى القاهرة فأكرمه أمير الجيوش وأفاض عليه النعم وأتحفه بالهدايا الجليلة فأدركه أجله ومات قبل أن يعود إلى بلاده.

وفيها قطعت خطبة المستنصر من مكة وأعيدت خطبة بني العباس.

سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة

سنة أربع وسبعين وأربعمائة

سنة خمس وسبعين وأربعمائة

سنة ست وسبعين وأربعمائة

سنة سبع وسبعين وأربعمائة

فيها خرج الأوحد بن أمير الجيوش على أبيه وانضم إليه جماعة من العسكر والعربان وتحصن بالإسكندرية فسار إليه أمير الجيوش وحصره وألح عليه القتال حتى دخل البلد وأخذ ابنه قهراً.

وأمر ببناء الجامع المعروف في الإسكندرية بجامع العطارين من أموال أخذها من أهل البلد وفرغ منه في شهر ربيع الأول وأقيمت فيه الجمعة واستمرت إلى أن زالت دولة الفاطميين على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فأمر ببناء جامع ونقل الخطبة من جامع العطارين إليه.

وفي جمادى الأولى استناب أمير الجيوش ولده الأفضل وجعله ولي عهده في السلطنة.

وفيها ابتدأ أمير الجيوش في بناء سور القاهرة.

سنة ثمان وسبعين وأربعمائة

فيها قطعت الخطبة من مكة للمستنصر وخطب بها للمقتدي العباسي.

فيها مات أبو الفرج محمد بن جعفر بن محمد بن علي الحسين المغربي الملقب بالكامل وكان قد ولي الوزارة بعد أن صار إلى بلاد المغرب وخدم بها ثم عاد واتصل بالوزير أبي محمد اليازوري فأحسن إليه واستخدمه وعني به فماقته أبو الفرج البابلي.

فلما صارت إليه الوزارة بعد اليازوري قبض عليه في جملة من قبض عليه من أصحاب اليازوري واعتقله فلم يزل معتقلاً إلى أن تقررت له الوزارة وهو في السجن فأخرج وخلع عليه خلع الوزراة عوضاً عن أبي الفرج البابلي فلم يؤاخذه بما كان منه في حقه بل قابله بالجميل وأحسن إليه إحساناً كبيراً.

ولما صرف عن الوزارة اقترح أن يولي ديوان الإنشاء فقرر في هذه الرتبة التي يقال لها في زمننا اليوم كتاب السر فاستقرت من بعده وظيفة ورتبة يتقلدها الأكابر.

وفيها مات سليمان بن قطلمش بن إسرائيل بن سلجوق صاحب قونية وأقصرا من بلاد الروم وقام من بعده ابنه قليج أرسلان بن سليمان فاسترد منه الفرنج مدينة أنطاكية.

سنة تسع وسبعين وأربعمائة

فيها قدم الحسن بن الصباح رئيس الطائفة الباطنية من الإسماعيلية إلى مصر في زي تاجر واتصل بالمستنصر واختص به والتزم أن يقيم له الدعوة في بلاد خراسان وغيرها من بلاد المشرق.

وكان الحسن هذا كاتباً للرئيس عبد الرزاق بن بهرام بالري فكاتب المستنصر ثم قدم عليه.

ثم إن المستنصر بلغه عنه كلام فاعتقله ثم أطلقه.

وسأله ابن الصباح عن عدة مسائل من مسائل الإسماعيلية فأجاب عنها بخطه.

ويقال إنه قال له: يا أمير المؤمنين من الإمام من بعدك فقال له ولدي نزار.

ثم إنه سار من مصر بعد ما أقام عند المستنصر مدة وأنعم عليه بنعم وافية.

فلما وصل إلى بلاده نشر بها دعوة المستنصر وبثها في تلك الأقطار وحدث منه من البلاء بالخلق ما لا يوصف مما قد ذكر في أخبار المشرق.

ثم قام من بعد المستنصر بدعوة ابنه نزار وكان بسبب ذلك في مصر من الانقلاب ما نهتم به إن شاء الله تعالى.

وأخذ ابن الصباح أصحابه بجمع الأسلحة ومواعدتهم حتى اجتمعوا له في شعبان سنة ثلاث وثمانين ووثب بهم فأخذ قلعة ألموت وكانت لملوك الديلم من قبل ظهور الإسلام وهي من الحصانة في غاية.

واجتمع الباطنية بأصبهان مع رئيسهم وكبير دعاتهم أحمد بن عبد الملك بن عطاش وملكوا قلعتين عظيمتين إحداهما يقال لها قلعة الدر.

وكانت لأبي القاسم دلف العجلي وجددها وسماها ساهور والقلعة الأخرى تعرف بقلعة جان وهما على جبل أصبهان.

وبث الحسن بن الصباح دعاته وألقى عليهم مسائل الباطنية التي ذكرتها في هذا الكتاب عند ذكر داعي الدعاة في أخبار بناء سور القاهرة عند ذكر خطط المعزية القاهرة.

فساروا من قلعة ألموت وأكثروا من القتل في الناس غيلة.

وكان إذ ذاك ملك العراقين السلطان ملكشاه الملقب جلال الدين بن ألب أرسلان فاستدعى الإمام أبا يوسف الخازن لمناظرة أصحاب ابن الصباح فناظرهم وألف كتابه المسمى بالمستظهري وأجاب عن مسائلهم.

واجتهد ملك شاه في أخذ قلعتهم فأعياه المرض وعجز عن نيلها.

وفيها خلع اسم المستنصر وآبائه من مكة والمدينة وكتب اسم المقتدي.

سنة ثمانين وأربعمائة

فيها مات أبو الفضل عبد الله بن الحسين بن بشرى المعروف بابن الجوهري الواعظ المصري في العشر الأواخر من شوال وهو أحد أكابر شيوخ مصر وتصدى سنين للوعظ بجامع عمرو بن العاص.

حدث عن جماعة وله كلام في الزهد والمواعظ وهو من بيت علم وأسرة وعظ.

ولما كانت أيام الشدة والغلاء بمصر اجتمع إليه الناس في بعض الأيام وسألوه عقد المجلس للوعظ بالجامع العتيق فقال: من يحضر عندي ومن بقي فقالوا: لا بد من ذلك فجلس وكان من كلامه: أبشروا هذه سنة ثلاث وأشار بيده وهي متعلقة كلها وسنة حل سنة أربع ويفتح الله ورفع بنصره وبعدها سنة خمس ويفتح الله ورفع خنصره.

فكان كما قال.

وأنشد مرة في بعض مجالسه:

ما يصنع اللّيل والنّهار ** ويستر الثّوب والجدار

ومن كلامه: قد اختل امر الدين والدنيا وتعذر الوصول إليهما فمن طلب الآخرة لم يجد معيناً علينا ومن طلب الدنيا وجد فاجراً قد سبقه إليها.

وأنشد مرةً الخليفة المستنصر:

عساكر الشكر قد جاءت مهنئةً ** وللملوك ارتيابٌ في تأتّيها

بالباب قومٌ ذوو ضعفٍ ومسكنةٍ ** يستصغرون لك الدّنيا بما فيها

وفيها بعث برديل ملك الفرنج الذين يقال لهم الإفرنسيس عسكراً عليه أجار إلى صقلية فملكها من المسلمين.

سنة إحدى وثمانين وأربعمائة

سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة

فيها ندب أمير الجيوش عسكرا إلى بلاد الشام وقدم عليه ناصر الدولة الجيوشي فسار وفتح ثغري صور وصيدا ثم فتح جبيل وعكا.

وكان تتش قد ملكها فاستولى عليها ناصر الدولة الجيوشي وقتل جماعة من أصحاب تتش وأخذ كثيراً من ذخائره.

ومضى إلى بعلبك فوفد عليه خلف بن ملاعب صاحب حمص ودخل في الطاعة وبعث ابن حمدان إلى أمير الجيوش سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة فيها توفى الحافظ أبو اسحق ابراهيم بن سعد بن عبد الله الخيال المصري الإمام صاحب التاريخ في سادس ذي القعدة ومولده في سنة إحدى وسبعين وثلثمائة ودفن بالقرافة.

وفيها صعد الحسن بن الصباح إلى قلعة ألموت في شعبان وأظهر دعوة المستنصر بالله.

سنة أربع وثمانين وأربعمائة

سنة خمس وثمانين وأربعمائة

فيها نقل أمير الجيوش بابي زويلة وزاد من ورائهما قطعة وبنى باب زويلة الكبير الموجود الآن ورفع أبراجه على ما هي عليه ولم يجعل له باشورة كما هي عادة أبواب الحصون أن يكون في أبوابها عطفة تمنع العساكر من الهجوم على الحصن عند الحصار بل عمل في بابه زلاقة من حجارة صوان حتى إذا هجم العسكر لم تثبت قوائم الخيل على الصوان لملاسته.

فلم تزل هذه الزلاقة باقية إلى أيام الملك الكامل محمد بن العادل فأمر بنقضها لما زلت به فرسه وسقط عنها.

سنة ست وثمانين وأربعمائة

فيها جرد أمير الجيوش عسكراً إلى ثغر صور وكان المتولي به قد خرج عن الطاعة.

فسار العسكر ونزل على الثغر فخاف أهل البلد من سطوة أمير الجيوش فلم يعرضوا لقتال فهجم العسكر البلد وانتهبوا أهله وقبضوا على أميرها وعلى جماعة من الناس وسيروهم إلى أمير الجيوش فقتلهم وبعث بفريضة ستين ألف دينار على أهل صور وكان ذلك في رابع عشر جمادى الآخرة.

وفيها نمى قتل أبي علي حسن بن عبد الصمد بن أبي الشحناء العسقلاني صاحب الرسائل والشعر وكان بديوان الإنشاء وشعره ورسائله مشهورة.

ويقال إن القاضي الفاضل عبد الرحيم كان جل اعتماده على رسائله.

ومن شعره:

أصبحت تخرجني بغير جريمة ** من دار إكرام لدار هوان

كدم الفصد يراق أرذل موضع ** أبداً ويخرج من أعزّ مكان

ثقلت موازين العباد بفضلهم ** وفضيلتي قد خفّفت ميزاني

سنة سبع وثمانين وأربعمائة

في شهر ربيع وقيل في جمادى الأولى توفي أمير الجيوش بدر الجمالي من مرض نزل به من أول السنة حتى أسكت فلم يقدر على الكلام إلى أن مات وقد ناهز ثمانين سنة وجنسه أرمني وكان مملوكاً لجمال الدولة ابن عمار فلذلك قيل له بدر الجمالي.

وما زال يأخذ نفسه بالجد من شبيبته فيما يباشره ويوطن نفسه على قوة العزم فيما يرومه ويتنقل في الرتب العلية حتى ولي بلاد الشام وتقلد إمارة دمشق من قبل المستنصر مرتين وثار عليه أهلها وكانت في إمارته الفتنة العظيمة التي احترق فيها قصر الإمارة وجامع بني أمية.

ثم إنه رحل عن دمشق إلى مصر وقلده المستنصر عكا.

فلما فسدت أحوال مصر وتغيرت أمورها وخربت كان يبلغه ذلك فيتحسر لما يبلغه ويتلهف لكونه بعيداً عن مصر.

فلما كاتبه المستنصر ودخل إلى القاهرة تحكم في بلاد مصر تحكم الملوك ولم يبق للمستنصر من أمر وألقى إليه مقاليد مملكته وسلم إليه أمور خلافته فضبطها أحسن ضبط.

فاشتدت مهابته في قلوب الخاصة والعامة وخاف سطوته كل جليل وكبير لعظم بأسه وكثرة بطشه وقتله من الخلائق ما لا يمكن ضبطهم ولا يعلم عدتهم إلا إلههم سبحانه.

وبقتله أكابر المصريين من الأمراء والقواد والوزراء والأعيان من أهل القاهرة ومصر وبلاد الصعيد وأسفل الأرض وثغر دمياط وتنيس والإسكندرية الذين كانوا قد تمرنوا على الفساد ونشأوا في الفتن واعتادوا مضرة الخلق ولصلاح أحوالهم من ذلك صلحت الديار المصرية بعد فسادها وعمرت بعد خرابها وزال عكس المستنصر وابتدأت سعادته.

وكان من جميل أفعاله أنه لما قتل المفسدين من الأجناد والعربان وغيرهم أطلق الخراج للمزارعين ولم يأخذ منهم شيئاً ثلاث سنين حتى صلحت أحوال الفلاحين.

واستغنى أهل مصر في أيامه ودرت عليهم أخلاف النعم بعد توالي الشدائد الكبيرة ومقاساة الألم.

وكثر ترداد التجار في أيامه إلى مصر بعد نزوحهم عنها وخروجهم لشدة البلاء والجور فيها.

وكانت مدة تحكمه بالديار المصرية إحدى وعشرين سنة.

وكان عزوف النفس شديد البطش عالي الهمة عظيم الهيبة حسن التأتي جميل السياسة مظفراً سعيد الجد سخيا مفضالا.

قصده علقمة بن عبد الرزاق العليمي فلما وافى بابه شاهد أشراف الناس وكبراءهم وشعراءهم وعلماءهم على بابه وقد طال وقوفهم ومقامهم ولا يصلون إليه.

فبينا هو كذلك إذ خرج أمير الجيوش يريد الصيد فخرج في أثره وأقام معه حتى رجع من صيده فعندما قاربه وقف على تل من رمل ورمى برقعة كانت في يده وأنشد: نحن التّجار وهذه أعلاقنا درّ وجود يمينك المبتاع قلّب وفتّشها بسمعك إنّما هي جوهرٌ تختاره الأسماع كسدت علينا بالشآم وكلمّا قلّ النّفاق تعطّل الصّنّاع فأتاك يحملها إليك تجارها ومطيّها الآمال والأطماع فوهبت ما لم يعطه في دهره هرمٌ ولا كعبٌ ولا القعقاع وسبقت هذا النّاس في طلب العلا والناس بعدك كلّهم أتباع يا بدر أقسم لو بك اعتصم الورى ولجوا إليك جميعهم ما ضاعوا وكان بيد بدر باز فدفعه لأحد مماليكه وجعل يستعيد الأبيات وهو معه إلى أن استقر في مجلسه.

فلما اطمأن قال للحاضرين عنده من أحبني فليخلع عليه.

فبادر حينئذ الحاضرون ولم يبق منهم إلا من ألقى له ما قدر عليه حتى صار إليه منهم ما حمله على سبعين بغلاً عندما خرج من المجلس ومع ذلك أمر له أمير الجيوش من ماله بعشرة ألاف درهم.

قال قاضي الرشيد أحمد بن الزبير في كتاب العجائب والطرف والهدايا والتحف: ولما مات أمير الجيوش بدر المستنصري خلف سبعمائة غلام كل غلام له من المال ما ينيف عن المائة ألف غلام.

وخلف من المال بعد عمارة سور القاهرة ستة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف ألف درهم في دار الوزارة ومن الجوهر والياقوت أربعة صناديق ومن القضب الفضة والذهب والمراتب ومن السروج المحلاة ما يعجز عن وصفه.

وخلف ألف قصبة زمرد لأنه كان له به غرام عظيم جمعت له من جميع الأقطار.

ولما مات أمير الجيوش كان أجل غلمانه من الأمراء نصر الدولة أفتكين ويليه في الرتبة أمين الدولة صافي ويقال لاون فبعث لاون لكل جماعة من الأمراء الجيوشية مالاً والتمس منهم الرضا به أن يلي الوزارة مكان أستاذه أمير الجيوش فوافقوه على ذلك فأقر أمره مع المستنصر فطلبه بعد موت أمير الجيوش وأفاض عليه خلع الوزارة وجلس في الشباك عند الخليفة ليتولى على العادة.

وكان نصر الدولة أفتكين قد بلغه ذلك من قبل فركب وطاف على الأمراء كل واحد بمفرده وغلطه فيما عزم عليه وقبح أن يكون أحد خشدا شيته يتحكم عليه مع وجود أولاد أستاذهم مع ما قد عرف من بخل لاون ونحو ذلك من القول حتى رجعوا عن لاون.

فعندما طلبه المستنصر وخلع عليه ركب نصر الدولة في جميع الأمراء بالسلاح وصاروا إلى القصر ووقفوا في الصحن فشق ذلك على المستنصر وعلى من بحضرته من خواصه.

وشرع الأمراء في مخاطبة المستنصر في إبطال وزارة لاون وهو يأبى عليهم حتى طال الخطاب.

فقال المستنصر إذا أقمنا قصبة قبل أمرنا.

فقال الأمراء إذا أقمت هذه القصبة قطعناها بهذه السيوف وجردوا سيوفهم ولم يبق إلا وقوع الشر.

فقال المستنصر لهم خيراً وأمر بإحضار الأفضل بن أمير الجيوش وقرر في الوزارة مكان أبيه وبطل أمر لاون فاستمر إلى ليلة الخميس الثامن عشر من ذي الحجة.

وفيها مات الخليفة المستنصر بالله أبو تميم معد فلما كان عند موته حصل رعد عظيم وبرق كثير ومطر غزير وعمره يومئذ سبع وستون سنة وخمسة أشهر منها في خلافته ستون سنة وأربعة أشهر وثلاثة أيام مرت به فيها أهوال عظيمة وشدائد آلت به إلى أن جلس على نخ لا يجد من القوت إلا ما تتصدق به عليه الشريفة ابنة صاحب السبيل في كل يوم فلا يأكل غير مرة واحدة في اليوم من قعب فتيت تبعث بها إليه كما قد تقدم ذلك.

وكان قد قوي أمره وقام بتدبير وزارته عند إقامته في الخلافة وزير أبيه علي بن أحمد الجرجرائي فمشت الأحوال على سداد إلى أن مات فحكمت أمه في الدولة وولت أبا سعيد ابراهيم اليهودي التستري وزارتها فصار هو الذي يلي الوساطة ويدبر الأموال إلى أن قتل.

فلما كانت سنة اثنتين وستين اختلطت الأمور وتعاظم الأمر فكان من الغلاء والفتن والبلاء والنهب ما تقدم ذكره.

وولي وزارته أربعة وعشرون وزيراً وهم: أبو القاسم الجرجرائي إلى أن مات وزيراً في سنة ست وثلاثين فولي أبو منصور صدقة بن يوسف الفلاحي إلى أن قتل في سنة تسع وثلاثين فولي عماد الدولة أبو البركات الحسين بن محمد الجرجرائي مرتين إلى أن عزل في سنة أربعين فولي صاعد بن مسعود أبو الفضل وصرف في سنة اثنتين وأربعين فاستقر أبو محمد اليازوري مضافاً إلى القضاء والتقدمة على الدعاة ولم يجمع ذلك لأحد قبله إلى أن قبض عليه في محرم سنة خمسين فاستوزر أبو الفرج عبد الله بن محمد البابلي ثم صرف بعد شهرين وأربعة عشر يوماً.

واستقر أبو الفرج محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين المغربي ثم صرف في سنة اثنتين وخمسين وأعيد البابلي ثم صرف بعد أربعة أشهر.

وتولى عبد الله بن يحيى بن المدبر في صفر سنة ثلاث وخمسين وصرف بعد شهرين وتولى عبد الكريم بن عبد الحاكم بن سعيد الفارقي في رمضان منها إلى أن توفي في محرم سنة أربع وخمسين فتولى بعده أخوه أبو علي أحمد سبعة عشر يوماً وصرف فأعيد البابلي كرة ثالثة في ربيع الأول فأقام خمسة أشهر واستعفى فوزر أبو عبد الله الحسين بن سديد الدولة الماسكي ثم صرف بأبي أحمد بن عبد الكريم ابن عبد الحاكم فكان ينقل من القضاء إلى الوزارة ثم يعود إلى القضاء وصرف بابن المدبر فأقام إلى أن توفي فأعيد أبو أحمد بن عبد الحاكم في ذي الحجة سنة خمس وخمسين فأقام خمسة وأربعين يوماً وصرف بأبي غالب عبد الطاهر بن فضل العجمي فتولى غير مرة وكان جده من دعاة الدولة فولي مرة في جمادى الأولى سنة خمس وخمسين وصرف بعد ثلاثة أشهر وولي أخرى في ربيع الآخر سنة ست وخمسين وصرف بعد ثلاثة وأربعين يوماً وفي ثالثة في أيام الفتنة وقتله تاج الملوك شاذي بالقاهرة في سنة خمس وستين.

وولي الوزارة أيضا الحسن بن ثقة الدولة بن أبي كدينة وجمع له بين القضاء والوزارة سبع مرات ووصل أمير الجيوش وهو وزير فقبض عليه وقتل بدمياط.

وولي أبو المكارم سعد وتنقلت به الأحوال حتى قتله أمير الجيوش ثم وزر بعده أبو علي الحسن ابن أبي سعيد التستري عشرة أيام ثم استعفى وكان يهوديا فأسلم.

ثم استوزر أبو القاسم عبد الله بن محمد الرعباني مرتين كل منهما عشرة أيام ثم ولي الأمير أبو الحسن بن الأنباري أياما وصرف.

فتولى أبو علي الحسن بن سديد الدولة الماسكي أياما وهذه وزارته الثانية ثم صرف بأبي شجاع محمد بن الأشرف بن فخر الملوك وصرف فسار إلى الشام ولقيه أمير الجيوش فقتله وأبو غالب جده كان وزيراً لبهاء الدولة بن عضد الدولة ملك العراق.

ثم ولي بعده أبو الحسن طاهر بن وزير الطرابلسي ثم صرف وكان أحد الكتاب بديوان الإنشاء فولي بعده أبو عبد الله محمد بن أبي حامد التنيسي يوماً واحداً وقتل فوجد له مال كثير.

ثم ولي أبو سعد منصور بن أبي أيمن سورس بن مكرواه بن زنبور وكان نصرانيا فأسلم ويقال إنه لم يسلم ثم ولي بعده أبو العلاء عبد الغني بن نصر بن سعيد الضيف وصرف.

فلما قدم أمير الجيوش تسلمها.

ولما قدم أمير الجيوش من عكا صار وزير السيف والقلم وولي القضاء أيضا وزيد في ألقابه كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين.

ثم لما مات وزر من بعده ابنه الأفضل.

وأما قضاته فقد تقدم من جمع له القضاء مع الوزارة.

والذين أفردوا بوظيفة القضاء عبد الحاكم بن سعيد الفارقي في أول خلافته ثم تقلد القضاء القاسم بن عبد العزيز ابن النعمان ثم أبو يعلى ويقال أبو الحسن أحمد بن حمزة بن أحمد العرقي ومات فولي أبو الفضل القضاعي ثم جلال الدولة أبو القاسم علي بن أحمد بن عمار.

وولي الفضل ابن نباتة ثم أبو الفضل بن عتيق ثم أبو الحسن علي بن يوسف بن الكحال ثم فخر الأحكام أبو الفضل محمد بن عبد الحاكم وكان في أيامه ما قد تقدم ذكره من الرزايا.

وكان نقش خاتمه: بنصر السميع العليم ينتصر المستنصر أبو تميم.

ومما رثى به المستنصر قول حظي الدولة أبي المناقب عبد الباقي بن علي التنوخي الشاعر من أبيات:

وليس ردى المستنصر اليوم كالرّدى ** ولا قدره أمرٌ يقاس به أمر

لقد هاب ملك الموت إتيانه ضحى ** ففاجأه ليلاً وما طلع الفجر

فأجرى عليه حين مات دموعنا ** سماءً فقال الناس لا بل هو القطر

وقد بكت الخنساء صخراً وإنّه ** ليبكيه من فرط المصاب به الصّخر
وقلّدنا المستعلى الطّهر حسبما ** عليه قديما نصّ والده الطّهر